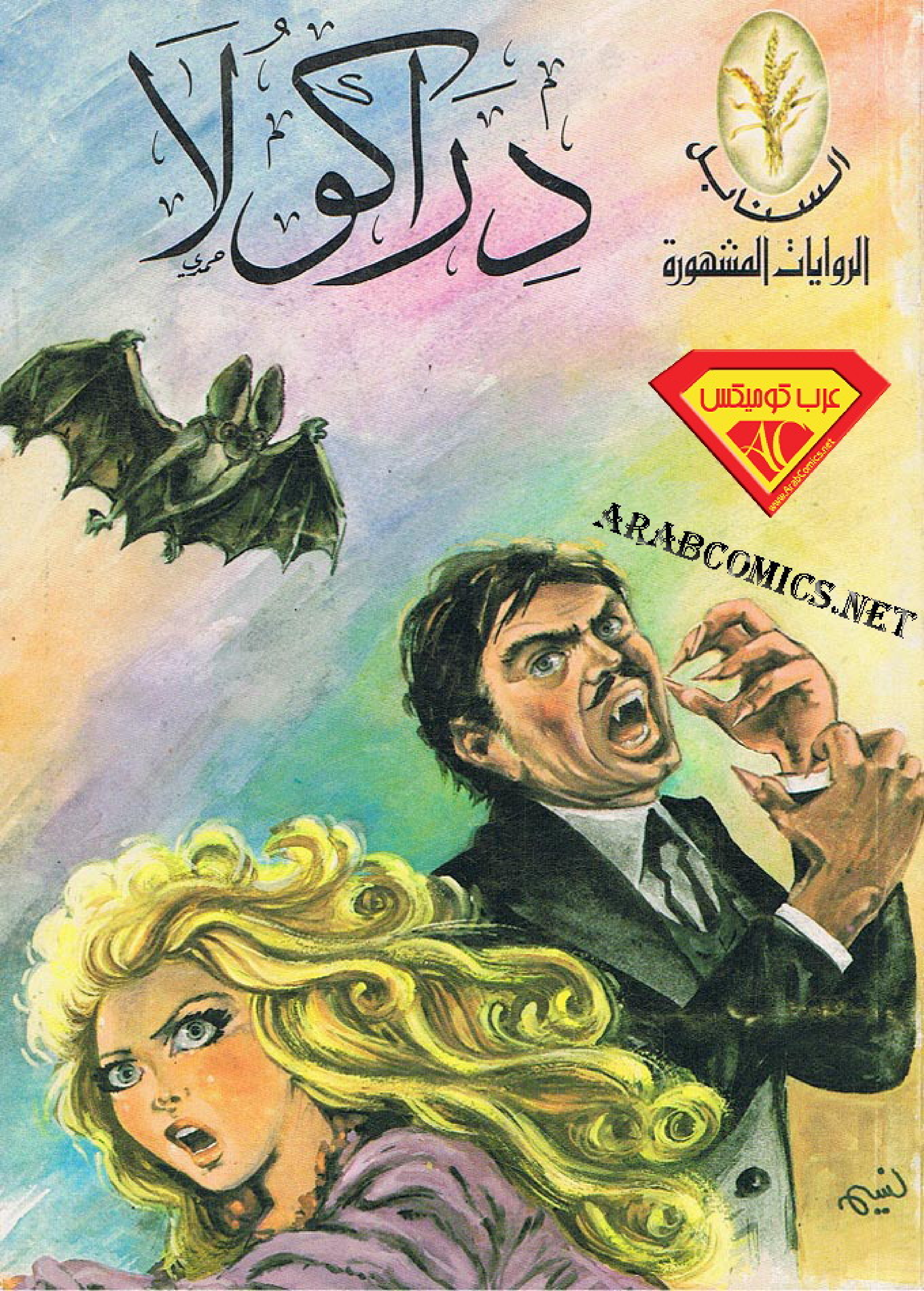
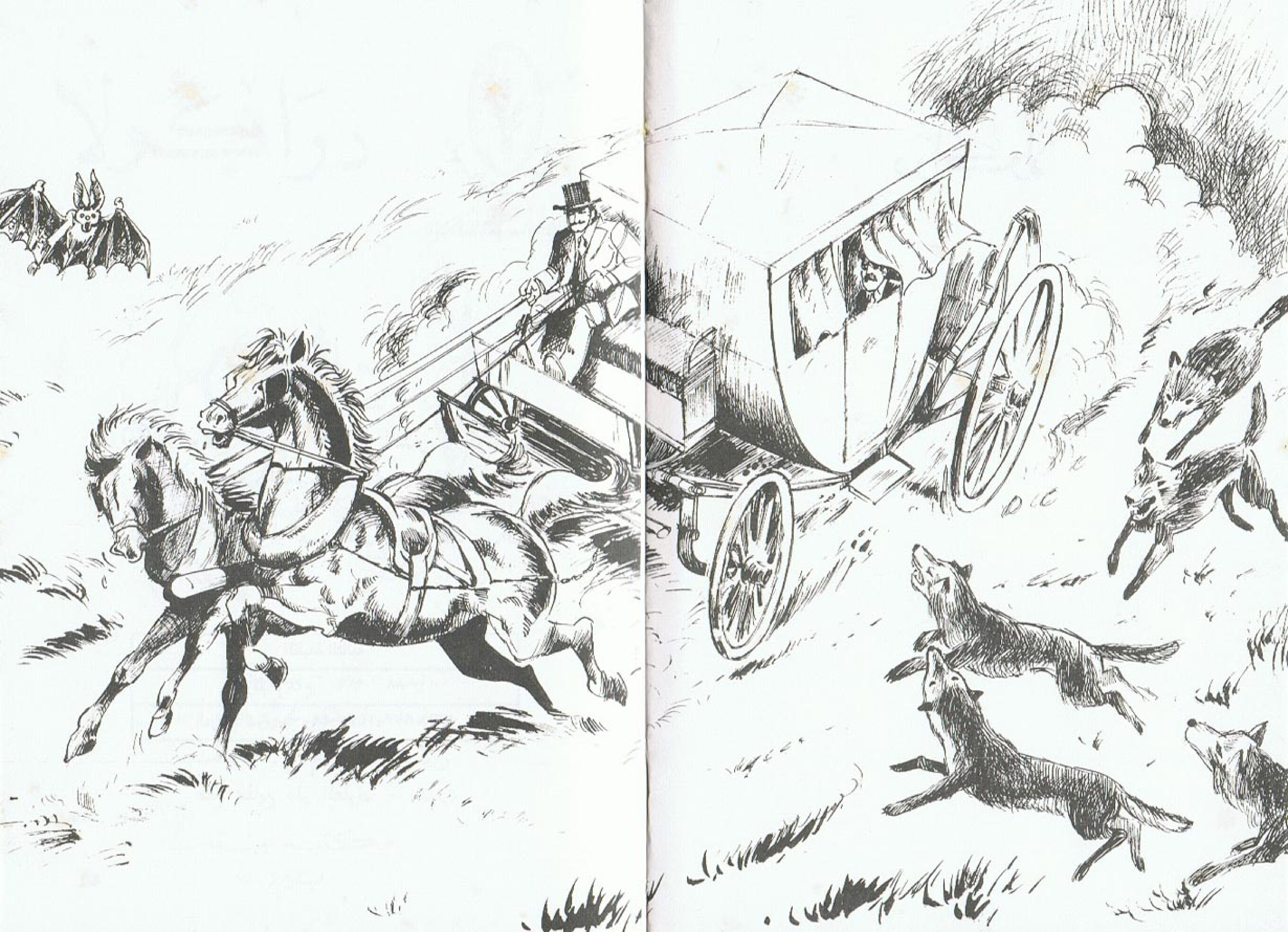

السنابل
الروايات المشهورة
دراكولا
عرب كوميكس
AC
ARABCOMICS.NET





الروايات المشهورة

دراكولا



تأليف : برام ستوكر

إعداد : الدكتور محمد محمود رضوان

رسوم : نسيم ج. نصيف

مكتبة لبنان

بيروت

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة

الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٢٩٠ / ٨٨
الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧-١٤٤٥-٤٨-٠

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

اَلْقِسْمُ اَلأَوَّلُ

قَلْعةُ دراكولا

اَلْفصْلُ اَلأَوَّلُ

لَمْ يَكَدِ اَلْقِطارُ يُغادِرُ بودابِسْت حَتَّى أَحَسَّ جوناثان هارْكَر أَنَّهُ يُوَدِّعُ اَلْغَرْبَ وَيَسْتَقْبِلُ اَلشَّرْقَ . لَمْ يَكُنْ جوناثان قَدْ غادَرَ إِنْجِلْترا قَطُّ مِنْ قَبْلُ ، وَلِذٰلِكَ بَدا لَهُ كُلُّ شَيْءٍ غَريبًا عِنْدَما بَدَأَ رِحْلَتَهُ . أَمّا اَلآنَ فَقَدِ اَزْدادَ كُلُّ شَيْءٍ غَرابَةً : اَلطَّعامُ اَلْحِرِّيفُ اَلَّذي يَجْعَلُهُ يُحِسُّ وَكَأَنَّ فِي فَمِهِ نارًا ، وَاَللُّغاتُ اَلَّتي لا يَعْرِفُها ، وَوادي اَلدّانوبِ اَلْمُنْبَسِطُ اَلْمُترامِي اَلأَطْرافِ ، وَاَلنَّهْرُ اَلْعَظيمُ ذاتُهُ . كانَتْ رُؤْيَةُ أَهْلِ اَلرّيفِ بِمَلابِسِهِمِ اَلزّاهِيَةِ في كُلِّ مَحَطَّةٍ تَجْعَلُهُ وَكَأَنَّهُ في عالَمٍ آخَرَ ، وَلَسَوْفَ يَكونُ هُناكَ اَلْكَثيرُ مِمّا يَرْويهِ لِصاحِبَتِهِ مينا ، اَلْفَتاةِ اَلَّتي يَعْتَزِمُ اَلزَّواجَ بِها .

وَفيما بَعْدُ ، حينَما تَحَرَّكَ اَلْقِطارُ نَحْوَ اَلشَّمالِ ، تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ مَرَّةً أُخْرى ، فَقَدْ كانَتْ هُناكَ جِبالٌ ، وَغاباتٌ كَثيفَةٌ ، وَأَنْهارٌ تَتَدَفَّقُ مِياهُها . وَتَمَلَّكَتْهُ اَلدَّهْشَةُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلى اَلْقِلاعِ تَقِفُ شامِخَةً فَوْقَ اَلصُّخورِ العالِيَةِ ، وَتَمَنَّى أَنْ تَكونَ اَلْقَلْعَةُ اَلَّتي هُوَ ذاهِبٌ إِلَيْها عَلى شاكِلَةِ هٰذِهِ اَلْقِلاعِ .

كانَ اَلظَّلامُ قَدْ بَدَأَ يَزْحَفُ عِنْدَما وَصَلَ إِلى مَدينَةِ بيسْتريتْز اَلْقَديمَةِ اَلْجَميلَةِ ، اَلَّتي تَمْتَدُّ مِنْها طَريقٌ جَبَلِيَّةٌ تُوَصِّلُ إِلى بوكوڤينا . وَكانَتْ هٰذِهِ هِيَ ثانِيَةَ لَيْلَتَيْنِ قَضاهُما عَلى سَفَرٍ مُنْذُ غادَرَ بودابِسْت . وَكانَ مَنْهوكًا مَكْدودًا ، وَلِذٰلِكَ شَعَرَ بِالاِرْتِياحِ وَاَلسُّرورِ حينَما رَأى فُنْدُقَ « اَلتّاجِ اَلذَّهَبِيِّ » اَلَّذي كانَ اَلْكونْت دراكولا قَدْ رَتَّبَ لَهُ اَلإِقامَةَ فيهِ ، وَاَلَّذي كانَ يَبْدو مِنْ مَظْهَرِهِ أَنَّهُ فُنْدُقٌ مُريحٌ تَشيعُ فيهِ اَلْمَوَدَّةُ . وَصَعِدَ بِهِ مُديرُ اَلْفُنْدُقِ إِلى غُرْفَةٍ بَهيجَةٍ نَظيفَةٍ تُطِلُّ عَلى ساحَةٍ ريفِيَّةٍ غُرِسَتْ فيها بَعْضُ أَشْجارِ اَلْفاكِهَةِ .

وَبَعْدَ أَنِ اَغْتَسَلَ جوناثان نَزَلَ لِيَتَناوَلَ اَلطَّعامَ ، وَوَجَدَ عَلى اَلْمائِدَةِ اَلْمُعَدَّةِ لَهُ رِسالَةً قَرَأَ فيها :

عَزيزي اَلسَّيِّدَ هارْكَر ،

وَهٰكَذا قَدْ وَصَلْتَ إِلى ترانْسيلْڤانْيا ، وَإِنَّهُ لَيُسْعِدُني أَنْ أَتَرَقَّبَ لِقاءَكَ . أَرْجو لَكَ نَوْمًا هادِئًا اَللَّيْلَةَ ، وَفي اَلسّاعَةِ اَلثّالِثَةِ بَعْدَ ظُهْرِ اَلْغَدِ ، سَتَرْكَبُ اَلْعَرَبَةَ اَلَّتي حَجَزْتُ لَكَ مَكانًا فيها ، وَاَلْمُتَّجِهَةَ إِلى بوكوڤينا ، فَإِذا بَلَغْتَ أَعْلى بُقْعَةٍ في اَلطَّريقِ اَلصّاعِدِ إِلى اَلْجِبالِ فَسَوْفَ تَجِدُ عَرَبَتي في اَنْتِظارِكَ فَتُقِلُّكَ إِلى حَيْثُ تَلْقاني . لَعَلَّكَ سَعِدْتَ بِرِحْلَتِكَ مِنْ لَنْدَن ، وَأَنا واثِقٌ أَنَّكَ سَوْفَ تَسْتَمْتِعُ بِالإِقامَةِ في أَرْضِيَ اَلْجَميلَةِ .

صَديقُكَ

دراكولا

فَلَمّا قَرَأَ جوناثان اَلرِّسالَةَ قالَ لِنَفْسِهِ : « ما أَكْرَمَهُ ! وَما أَشَدَّ مَهارَتَهُ في وَضْعِ بَرْنامَجِ رِحْلَتي ! » وَلٰكِنَّهُ حينَما سَأَلَ مُديرَ اَلْفُنْدُقِ كَيْفَ وَصَلَتِ اَلرِّسالَةُ بَدا عَلى اَلرَّجُلِ شَيْءٌ مِنْ عَدَمِ اَلاِرْتِياحِ ، وَتَظاهَرَ بِأَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ لُغَتَهُ اَلأَلْمانِيَّةَ . وَعِنْدَما حاوَلَ جوناثان أَنْ يَعْرِفَ مِنْهُ مَعْلوماتٍ أَكْثَرَ عَنْ قَلْعَةِ دراكولا بَدا عَلَيْهِ أَنَّهُ غَيْرُ راغِبٍ في اَلْحَديثِ ، وَكُلُّ ما قالَهُ إِنَّها تَبْعُدُ كَثيرًا عَنْ بيسْتريتْز ، وَإِنَّهُ لَمْ تُتَحْ لَهُ فُرْصَةُ زِيارَتِها قَطُّ .

كانَ هٰذا اَلْمَسْلَكُ غَريبًا ، وَلٰكِنْ عِنْدَما كانَ جوناثان في طَريقِهِ بَعْدَ ظُهْرِ اَلْيَوْمِ اَلتّالي إِلى اَلْعَرَبَةِ ، كانَ مَسْلَكُ زَوْجَةِ مُديرِ اَلْفُنْدُقِ أَشَدَّ غَرابَةً . فَقَدْ حَدَثَ حينَما كانَ مُتَّجِهًا لِيَأْخُذَ مَكانَهُ في اَلْعَرَبَةِ أَنْ جاءَتْ إِلَيْهِ وَعَلى وَجْهِها نَظْرَةُ خَوْفٍ وَرُعْبٍ وَسَأَلَتْهُ : « أَلابُدَّ لَكَ مِنَ اَلذَّهابِ ؟ »

فَتَطَلَّعَ إِلَيْها جوناثان في دَهْشَةٍ وَأَجابَها : « إِنَّني لَمْ آتِ إِلى هُنا مِنْ إِنْجِلْترا لِلنُّزْهَةِ . إِنَّني هُنا في عَمَلٍ ، وَلَسْتُ أَمْلِكُ حَقَّ اَلتَّصَرُّفِ حَسْبَما أَرْغَبُ ، فَهَلْ مِنْ سَبَبٍ

يَدْعونِي إلى عَدَمِ ٱلذَّهابِ ؟ » .

فَقالَتِ ٱلسَّيِّدةُ وَهِيَ تَضَعُ يَدَها على ذِراعِهِ : « أَرْجوكَ .. فَهُناكَ خَطَرٌ . »

وَحاوَلَ جوناثان أَنْ يَبْتَسِمَ ، وَلٰكِنَّ ٱلابْتِسامةَ لَمْ تُطاوِعْهُ ، فَقالَ لَها : « أَيُّ خَطَرٍ يُمْكِنُ أَنْ أَتَعرَّضَ لَهُ ؟ إِنَّني ذاهِبٌ لِزِيارةِ ٱلكونْت دراكولا . »

وَهُنا بَدا عَلى ٱلسَّيِّدةِ ٱرْتِباكٌ شَديدٌ ، وَأَخَذَتْ تَفوهُ بِعِباراتٍ بِلُغةٍ غَيْرِ ٱلأَلْمانيةِ .. لُغَةٍ غَيْرِ مَفْهومةٍ لَهُ . وَكانَ هُناكَ آخَرونَ عَلى مَقْرُبةٍ جاءوا نَحْوَهُما . وَأَخيرًا خَلَعَتِ ٱلسَّيِّدةُ ٱلصَّليبَ ٱلمُعلَّقَ في عُنُقِها وَوَضَعَتْهُ حَوْلَ عُنُقِ جوناثان ، وَبَدا عَلَيْها وَهِيَ تَفْعَلُ ذٰلِكَ مَظْهَرُ ٱلجِدِّيَّةِ ٱلشَّديدةِ حَتّى إِنَّهُ لَمْ يَمْلِكْ إِلّا ٱلقَبولَ ، بِٱلرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ ٱلمَأْلوفِ أَنْ يَضَعَ ٱلرَّجُلُ ٱلإِنْجليزيُّ صَليبًا حَوْلَ عُنُقِهِ ، وَكانَ ٱلأَمْرُ غَريبًا بِٱلنِّسْبةِ لَهُ .

رَكِبَ جوناثان ٱلعَرَبةَ ، وَبَدَأَ ٱلسّائِقُ رِحْلَتَهُ ، أَمّا جُمْهورُ ٱلواقِفينَ فَقَدْ أَخَذوا يَرْسُمونَ في ٱلهَواءِ إِشارةَ ٱلصَّليبِ . وَكانَ هٰذا آخِرَ عَهْدِ جوناثان بِبِسْتريتْز .

سَأَلَ جوناثان وَعَلى وَجْهِهِ ٱبْتِسامةٌ : « هَلْ نَحْنُ مُعَرَّضونَ لِخَطَرٍ داهِمٍ ، وَمِنْ ثَمَّ نَحْتاجُ إِلى ٱلْتِماسِ كُلِّ هٰذِهِ ٱلبَرَكاتِ مِنَ ٱللهِ ؟ »

فَأَجابَ أَحَدُ ٱلمُسافِرينَ في جِدِّيَّةٍ : « بَعْضُنا قَدْ يَكونُ في حاجةٍ إِلَيْها . »

أَخَذَ جوناثان يَتَطلَّعُ إِلى جَمالِ ٱلطَّبيعةِ ٱلفَتّانِ ، مِمّا جَعَلَهُ يَنْسَى — لِفَتْرةٍ مِنَ ٱلزَّمَنِ — كُلَّ هٰذِهِ ٱلغَرائِبِ . وَٱلحَقُّ أَنَّ ٱلكونْت دراكولا كانَ عَلى حَقٍّ أَنْ يَفْخَرَ بِمِثْلِ هٰذِهِ ٱلأَراضي ٱلرّائِعةِ . كانَتْ هُناكَ أَشْجارٌ مُزْهِرةٌ ، وَحُقولٌ خُضْرٌ ذاتُ بَهْجةٍ ، وَأَكْواخٌ خَشَبيَّةٌ ، وَجَداوِلُ جارِيةٌ ، ثُمَّ هُناكَ ٱلغابةُ ٱلَّتي يَكْتَنِفُها ٱلظَّلامُ ، وَٱلَّتي تَمْتَدُّ لِتُطَوِّقَ ٱلمَكانَ .

كانَ ٱلطَّريقُ غَيْرَ مُمَهَّدٍ ، وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ كانَ ٱلسّائِقُ يَمْضي بِٱلعَرَبةِ مُسْرِعًا ، كَأَنَّما يُريدُ أَنْ يُنْهِيَ ٱلرِّحْلةَ بِقَدْرِ ما يَسْتَطيعُ مِنْ سُرْعةٍ . وَفيما بَعْدُ ، حينَما بَدَأَ ٱلطَّريقُ يَتَصعَّدُ

إِلى ٱلجِبالِ كانَ مُضْطَرًّا إِلى ٱلإِبْطاءِ . وَأَرادَ جوناثان حينَئِذٍ أَنْ يَنْزِلَ مِنَ ٱلعَرَبةِ وَيَسيرَ عَلى قَدَمَيْهِ بِمُحاذاتِها ، وَلٰكِنَّ ٱلسّائِقَ لَمْ يَسْمَحْ لَهُ ، وَقالَ مُحَذِّرًا : « لا ! لا ! إِنَّ ٱلذِّئابَ هُنا خَطِرةٌ . »

وَحينَما ٱنْتَشَرَ ٱلظَّلامُ ٱنْتابَتِ ٱلمُسافِرينَ ٱلرَّهْبةُ ، وَلٰكِنَّ ٱلسّائِقَ زادَ في سُرْعةِ ٱلجِيادِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَتَوقَّفُ إِلّا لَحْظةً رَيْثَما يُشْعِلُ ٱلمَصابيحَ . وَأَخيرًا بَلَغَتِ ٱلعَرَبةُ أَعْلى بُقْعةٍ في ٱلطَّريقِ ، وَمَضَتْ في طَريقٍ لا هُوَ مُرْتَفِعٌ وَلا هُوَ مُنْخَفِضٌ ، وَقدَّرَ جوناثان أَنَّهُ لابُدَّ أَنْ يَكونَ هاهُنا ٱلمَكانُ ٱلَّذي تَنْتَظِرُهُ فيهِ عَرَبةُ ٱلكونْت دراكولا .

وَفَجْأَةً أَخَذَ ٱلرُّكّابُ ٱلآخَرونَ يُلَوِّحونَ بِأَيْديهِمْ يَلْتَمِسونَ لَهُ ٱلبَرَكاتِ كَما فَعَلَ أُولٰئِكَ ٱلَّذينَ كانوا عِنْدَ ٱلفُنْدُقِ . فَهَلْ كانَ هٰذا أَمْرًا مَأْلوفًا ، أَمْ أَنَّهُ كانَ هُناكَ خَطَرٌ حَقًّا ؟ ثُمَّ تَوقَّفَتِ ٱلعَرَبةُ وَٱنْتَظَرَتْ ، وَكانَ كُلُّ مَنْ فيها صامِتًا يَرْقُبُ ٱلمَصابيحَ ٱلمُشْتَعِلةَ ، أَمّا ٱلجِيادُ فَكانَتْ تَرْتَجِفُ مُتَمَلْمِلةً .

وَبَعْدَ لَحَظاتٍ قالَ ٱلسّائِقُ : « لا تُوجَدُ عَرَبةٌ هُنا ، لَيْسَ هُناكَ أَحَدٌ في ٱنْتِظارِ ٱلسَّيِّدِ ٱلإِنْجليزيِّ فَمِنَ ٱلأَفْضَلِ لَهُ أَنْ يَظَلَّ في ٱلعَرَبةِ مَعَنا إِلى بوكوفِينا ، ثُمَّ يَعودَ غَدًا ، بَلْ لَعَلَّ ٱلأَفْضَلَ لَهُ أَنْ يَعودَ بَعْدَ غَدٍ . »

فَقالَ أَحَدُ ٱلمُسافِرينَ : « أَوْ لَعَلَّ ٱلخَيْرَ أَلّا يَعودَ أَبَدًا . »

فَصاحَ آخَرُ : « نَعَمْ ، نَعَمْ ، خَيْرُ ما يَفْعَلُهُ هُوَ أَنْ يَذْهَبَ إِلى بوكوفِينا . »

وَلَمْ يَكَدْ يُتِمُّ عِبارَتَهُ حَتّى طَرَقَ أَسْماعَهُمْ صَوْتُ عَرَبةٍ أُخْرى مِنْ خَلْفِهِمْ . وَظَهَرَتْ أَرْبَعةُ جِيادٍ سودٍ ، يَسوقُها رَجُلٌ طَويلٌ يَرْتَدي قُبَّعةً كَبيرةً سَوْداءَ ، وَكانَتِ ٱلقُبَّعةُ تُخْفي مُعْظَمَ وَجْهِهِ ، فيما عَدا عَيْنَيْهِ ٱللَّتَيْنِ كانَ ٱحْمِرارُهُما يَلْمَعُ في ضَوْءِ ٱلمِصْباحِ .

قالَ ٱلرَّجُلُ في لُغةٍ أَلْمانيَّةٍ سَليمةٍ : « لَقَدْ وَصَلْتَ مُبَكِّرًا ٱللَّيْلةَ ياصَديقي . »

فَلَمْ يُجِبْهُ سائِقُ بيسْتريتْز ، وَكانَ واضِحًا أَنَّهُ خائِفٌ . فَرَدَّدَ ٱلرَّجُلُ مَرَّةً ثانِيةً : « لَقَدْ وَصَلْتَ مُبَكِّرًا ٱللَّيْلَةَ . »

فَأَجابَهُ سائِقُ بيسْتريتْز : « إِنَّ ٱلسَّيِّدَ ٱلإِنْجليزِيَّ كانَ مُسْتَعْجِلًا . »

فَقالَ ٱلرَّجُلُ : « أَظُنُّ أَنَّ هٰذا هُوَ ٱلسَّبَبُ في أَنَّكَ أَرَدْتَ أَنْ تَأْخُذَهُ إِلى بوكوڤينا . إِنَّكَ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تُخْفِيَ ما يَجُولُ في ذِهْنِكَ مِنْ أَفْكارٍ ياصَديقي . » قالَ ذٰلِكَ ، وَٱبْتَسَمَ ٱبْتِسامةً قَبيحةً ، فَظَهَرَتْ في ضَوْءِ ٱلمَصابيحِ أَسْنانُهُ ٱلبَيْضاءُ غَيْرُ العادِيَّةِ .

وَمَرَّةً ثانِيةً لَمْ يُجِبْ سائِقُ بيسْتريتْز بِكَلِمةٍ ، وَإِنَّما قَفَزَ إِلى ٱلأَرْضِ بِسُرْعةٍ ، وَوَضَعَ



حَقائِبَ جوناثان في ٱلعَرَبةِ ٱلأُخرى ، وَهَبَطَ جوناثان مِنَ ٱلعَرَبةِ ، وَساعَدَهُ ٱلسَّائِقُ ٱلجَديدُ في صُعودِ عَرَبَتِهِ . وَلَمْ يَشْعُرْ جوناثان بِٱرْتِياحٍ حينما ٱنغَرَزَتْ أَصابِعُ ٱلسَّائِقِ ٱلقَوِيَّةُ ٱلنَّحيلةُ بِعُمْقٍ في ذِراعِهِ .

وَٱنْطَلَقَتْ عَرَبةُ بيستريتز ثُمَّ ٱخْتَفَتْ في ٱلظَّلامِ . وَأَحَسَّ جوناثان فَجْأَةً بِٱلوَحْدةِ ٱلموحِشةِ .

قالَ ٱلرَّجُلُ : « إِنَّ ٱللَّيْلةَ بارِدةٌ ، فَخُذْ هٰذا غِطاءً تَتَدَثَّرُ بِهِ . لَقَدْ طَلَبَ مِنِّي سَيِّدي أَنْ أَرْعاكَ خَيْرَ رِعايةٍ ، وَهُناكَ زُجاجةُ عَصيرٍ تَحْتَ ٱلمَقْعَدِ إِذا رَغِبْتَ في ٱلشُّرْبِ . »

وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ هٰذا ، وَإِنَّما حَوَّلَ مَسارَ ٱلعَرَبةِ وَٱنطَلَقَ بِها في طَريقٍ جانِبِيٍّ لَمْ يَلْحَظْهُ جوناثان مِنْ قَبْلُ ، وَكانَ يَمْتَدُّ لِيَتَصَعَّدَ إِلى أَعْلى ٱلجَبَلِ .

وَبَيْنَما كانَتِ ٱلعَرَبةُ تَسيرُ بِهِما في ٱللَّيْلِ ٱلبَهيمِ لَمْ يَكُنْ جوناثان في ٱلبِدايةِ يَسْتَطيعُ أَنْ يَرى شَيْئًا . فَقَدْ كانَ ٱلظَّلامُ حالِكًا ، وَلَمْ تَكُنِ ٱلعَرَبةُ مُزَوَّدةً بِمَصابيحَ ، وَإِنَّما كانَتْ تَطْرُقُ سَمْعَهُ طَوالَ ٱلوَقْتِ أَصْواتُ ٱلذِّئابِ ، فَيَعْوي ذِئْبٌ أَوَّلًا ، ثُمَّ يَعْوي آخَرُ بَعْدَهُ ، كُلٌّ يَرُدُّ عَلى صاحِبِهِ . وَكانَتْ أَصْواتُها تَتَرَدَّدُ عَبْرَ ٱلوُدْيانِ ، وَكُلَّما مَضَتِ ٱلعَرَبةُ قُدُمًا ٱزْدادَتْ أَصْواتُها ٱرْتِفاعًا ، حَتّى بَدا وَكَأَنَّ ٱلذِّئابَ تُحيطُ بِهِما مِنْ كُلِّ جانِبٍ . وَحينَما حَدَّقَ جوناثان بِعَيْنَيْهِ خِلالَ ٱلظَّلامِ رَأى قَطيعًا مِنَ ٱلذِّئابِ تَلْتَفُّ حَوْلَهُما كَأَنَّما تَقومُ بِحِراسَتِهِما . فَكانَتْ حَلْقةً مِنَ ٱلعُيونِ ٱلحُمْرِ تَتَحَرَّكُ مَعَهُما بِنَفْسِ ٱلسُّرْعةِ ٱلَّتي تَتَحَرَّكُ بِها ٱلجِيادُ .

وَلَمْ يَكُنْ يَبْدو عَلى ٱلسَّائِقِ أَنَّهُ يَكْتَرِثُ بِما يَراهُ ، وَلٰكِنَّ ٱلجِيادَ كانَتْ خائِفةً ، وَحينَما ٱزْدادَتِ ٱلذِّئابُ قُرْبًا صاحَ ٱلسَّائِقُ فيها ، كَما يَصيحُ ٱلمَرْءُ في كِلابِهِ .

كانَتِ ٱلتَّجْرِبةُ بِٱلنِّسْبةِ لِجوناثان أَشْبَهَ بِحُلْمٍ طَويلٍ مُزْعِجٍ وَلَمْ يَنْتَهِ هٰذا ٱلحُلْمُ إِلَّا حينَما تَغَيَّرَ صَوْتُ عَجَلاتِ ٱلعَرَبةِ ، بِما دَلَّ عَلى أَنَّهُما قَدِ ٱجْتازا ساحةَ ٱلدّارِ في قَلْعةِ دراكولا .

ٱلفَصْلُ ٱلثّاني

غادَرَتِ ٱلعَرَبةُ ٱلمَكانَ وَتَرَكَتْ جوناثان واقِفًا أَمامَ بابٍ قَديمٍ ضَخْمٍ ذي دَعائِمَ حَديدِيَّةٍ . وَلَمْ يَكُنْ بِٱلطّابَقِ ٱلأَرْضِيِّ أَيَّةُ نافِذةٍ ، وَإِنَّما كانَ هُناكَ ضَوْءٌ يَنْبَعِثُ مِنْ أَعْلى ٱلمَبْنى مِمّا يَدُلُّ عَلى أَنَّ ٱلقَلْعةَ لَمْ تَكُنْ خالِيةً مِنَ ٱلسُّكّانِ ، وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ جَرَسٌ ، وَلِذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ في وُسْعِهِ إِلّا أَنْ يَنْتَظِرَ حَتّى يَأْتِيَ أَحَدٌ لِيَقودَهُ إِلى ٱلدّاخِلِ .

ظَلَّ جوناثان واقِفًا بِضْعَ دَقائِقَ لا تَطْرُقُ سَمْعَهُ إِلّا أَصْواتُ ٱلذِّئابِ ، إِلى أَنْ سَمِعَ جَلَبةً عِنْدَ ٱلجانِبِ ٱلدّاخِلِيِّ مِنَ ٱلبابِ ، ثُمَّ فُتِحَ ٱلبابُ ، وَظَهَرَ رَجُلٌ طَويلٌ أَسْوَدُ ٱلشَّعْرِ يَلْبَسُ رِداءً أَسْوَدَ ، وَيُمْسِكُ في يَدِهِ مِصْباحًا فِضِّيًّا . اِبْتَسَمَ ٱلرَّجُلُ قائِلًا :

« إِنَّني أُقَدِّمُ إِلَيْكَ مَنْزِلي ، فَأَهْلًا بِكَ وَسَهْلًا . تَدْخُلُهُ حُرًّا وَتَرْحَلُ مِنْهُ سالِمًا ، وَٱتْرُكْ لَدَيْنا بَعْدَ رَحيلِكَ بَعْضًا مِنَ ٱلسَّعادةِ ٱلَّتي جِئْتَ بِها إِلَيْنا . »

فَسَأَلَ جوناثان وَهُوَ يُصافِحُ ٱليَدَ ٱلَّتي ٱمْتَدَّتْ إِلَيْهِ : « ٱلكونت دراكولا ؟ »

فَأَجابَ ٱلرَّجُلُ : « أَنا دراكولا . وَيَسُرُّني ياسَيِّدُ هاركر أَنْ أَسْتَقْبِلَكَ في مَنْزِلي . سَأَحْمِلُ عَنْكَ حَقائِبَكَ ، فَٱلوَقْتُ مُتَأَخِّرٌ وَٱلخَدَمُ نائِمونَ . »

وَأَخَذَ جوناثان ٱلمِصْباحَ مِنْهُ ، وَتَبِعَهُ وَهُوَ يَصْعَدُ ٱلسُّلَّمَ ، ثُمَّ وَهُوَ يَعْبُرُ مِنْ خِلالِ حُجْرةٍ فَسيحةٍ مُضاءةٍ إِضاءةً جَيِّدةً إِلى غُرْفةِ نَوْمِهِ . وَكانَ سُرورُ جوناثان بالِغًا إِذْ وَقَعَ بَصَرُهُ في ٱلحُجْرةِ ٱلَّتي ٱجْتازاها عَلى مِدْفأةِ حَطَبٍ مُشْتَعِلةٍ ، وَمائِدةٍ عامِرةٍ بِٱلطَّعامِ .

لَمْ يَجْلِسِ ٱلكونت مَعَ جوناثان إِلى ٱلمائِدةِ مُعْتَذِرًا بِأَنَّهُ سَبَقَ أَنْ تَناوَلَ طَعامَهُ ، وَلِذٰلِكَ ، فَبَيْنَما كانَ جوناثان يَأْكُلُ ، أَخَذَ ٱلكونت يُطالِعُ ٱلرِّسالةَ ٱلَّتي أَحْضَرَها جوناثان مَعَهُ مِنَ ٱلسَّيِّدِ هوكينز ٱلمُحامي ٱلمُسِنِّ ٱلَّذي يَعْمَلُ في مَكْتَبِهِ . وَبَدا عَلى ٱلكونت ٱلسُّرورُ بَعْدَ أَنْ قَرَأَ ٱلرِّسالةَ ، ثُمَّ أَعادَها إِلى جوناثان لِكَيْ يَطَّلِعَ عَلى ٱلأَشْياءِ ٱلطَّيِّبةِ ٱلَّتي

كَتَبَها هَوْكِينز عَنْهُ .

وَبَعْدَ أَنْ تَناوَلَ جوناثان طَعامَهُ جَلَسَ ٱلضَّيْفُ وَٱلْمُضيفُ بِجِوارِ ٱلْمِدْفَأَةِ يَتَحَدَّثانِ . وَكانَ جوناثان مَسْرورًا لِأَنَّ ٱلكونْت كانَ يَتَحَدَّثُ بِلُغَةٍ إِنْجليزِيَّةٍ سَليمَةٍ ، كَما أَنَّ ٱلسُّرورَ كانَ بادِيًا عَلى ٱلكونْت لِأَنَّهُ وَجَدَ مَنْ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ بِٱلإِنْجليزِيَّةِ ، وَكانَ هُوَ أَكْثَرَ الاثْنَيْنِ حَديثًا مِمَّا هَيَّأَ لِجوناثان فُرْصَةَ ٱلتَّأَمُّلِ في وَجْهِهِ وَدِراسَتِهِ .

كانَ وَجْهُهُ غَيْرَ عادِيٍّ ، فَالأَنْفُ قَوِيٌّ حَسَنُ ٱلصُّورَةِ ، وَٱلأُذُنانِ مُحَدَّدَتانِ نابِتَتانِ ، وَالشَّفَتانِ حَمْراوانِ ، وَٱلأَسْنانُ حادَّةٌ بَيْضاءُ . وَلٰكِنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذي كانَ يَلْفِتُ فيهِ ٱلنَّظَرَ بِصِفَةٍ خاصَّةٍ هُوَ ذٰلِكَ ٱلشُّحوبُ غَيْرُ الطَّبيعِيِّ . لابُدَّ أَنَّ ٱلرَّجُلَ كَبيرُ ٱلسِّنِّ ، وَلٰكِنَّهُ ، مَعَ ذٰلِكَ ، كانَ يَبْدو قَوِيًّا نَشيطًا . وَقَدْ لَحَظَ جوناثان أَيْضًا يَدَيْهِ ٱللَّتَيْنِ نَبَتَ ٱلشَّعْرُ في راحَتَيْهِما ، وَأَصابِعَهُ ٱلطَّويلَةَ ٱلحادَّةَ ٱلأَطْرافِ . وَلَمْ يَكُنْ جوناثان يَشْعُرُ بِٱلارْتِياحِ حينَما كانَ ٱلكونْت يَتَحَدَّثُ فَيَلْمِسُ أَحْيانًا ذِراعَهُ بِأَصابِعِهِ ، كَما أَنَّ ٱلرّائِحَةَ ٱلْمُنْبَعِثَةَ مِنْ أَنْفاسِ ٱلكونْت كانَتْ تُثيرُ ٱلغَثَيانَ . لَقَدْ كانَتْ فيها رائِحَةُ ٱلْمَوْتِ ، حَتّى لَقَدْ تَساءَلَ في نَفْسِهِ : « تُرى أَتَكونُ هِيَ ٱلسَّبَبَ في أَنَّ ٱلنّاسَ يَخافونَهُ ؟ »

وَأَخيرًا ، خَيَّمَ ٱلسُّكونُ عَلى ٱلقَلْعَةِ فيما عَدا عُواءَ ٱلذِّئابِ في ٱلخارِجِ وَٱلَّذي كانَ لا يَزالُ مَسْموعًا . وَقالَ ٱلكونْت وَهُوَ يَنْهَضُ : « أَوْلادي في هِياجِ ٱللَّيْلَةَ . إِنَّ لَدَيْنا بَعْضَ ٱلزُّوّارِ . »

وَحينَما نَهَضَ ، كانَ ضَوْءُ ٱلفَجْرِ قَدْ بَدَأَ يَنْتَشِرُ ، وَهٰكَذا ٱنْقَضَتْ أَوَّلُ لَيْلَةٍ لِجوناثان في قَلْعَةِ دراكولا .

كانَ جوناثان مُرْهَقًا مَكْدودًا ، وَلِذٰلِكَ نامَ طَويلًا ، وَلَمّا ٱسْتَيْقَظَ دَلَفَ إِلى ٱلحُجْرَةِ ٱلَّتي تَناوَلَ فيها ٱلطَّعامَ في ٱللَّيْلَةِ ٱلْماضِيَةِ ، فَوَجَدَ طَعامَ ٱلإِفْطارِ مُعَدًّا ، وَإِبْريقَ ٱلقَهْوَةِ قُرْبَ نارِ ٱلْمِدْفَأَةِ ، وَأَمْكَنَهُ في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ أَنْ يَرى قَلْعَةَ دراكولا عَلى حَقيقَتِها : فَهِيَ قَلْعَةٌ قَديمَةٌ

مَليئَةٌ بِالغُبارِ ، مَسَّها ٱلبِلى ، مَعَ أَنَّ إِبْريقَ ٱلقَهْوَةِ كانَ مِنَ ٱلذَّهَبِ .

وَحينَما فَرَغَ مِنْ تَناوُلِ طَعامِهِ نَظَرَ باحِثًا عَنْ جَرَسٍ يَدُقُّهُ لِكَيْ يَعْرِفَ ٱلخَدَمُ أَنَّهُمْ يَسْتَطيعونَ أَنْ يَرْفَعوا ٱلصُّحونَ . وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ جَرَسٌ ، بَلْ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُناكَ خَدَمٌ عَلى ٱلأَقَلِّ في هٰذا ٱلجُزْءِ مِنَ ٱلقَلْعَةِ ٱلَّذي كانَ يُمْكِنُهُ ٱلتَّجَوُّلُ فيهِ ، وَكانَتِ ٱلأَبْوابُ كُلُّها مُوصَدَةً فيما عَدا بابًا واحِدًا كانَ يُؤَدّي إِلى حُجْرَةِ جُلوسٍ تَشْتَمِلُ عَلى مَجْموعَةِ كُتُبٍ ، وَقَدْ أَخَذَتْهُ ٱلدَّهْشَةُ حينَما وَجَدَ بَيْنَها كُتُبًا وَصُحُفًا إِنْجليزِيَّةً ، فَجَلَسَ لِيُطالِعَ . وَكانَ لا يَزالُ جالِسًا لِلْقِراءَةِ في ٱلْمَساءِ حينَما دَخَلَ ٱلكونْت ٱلَّذي بادَرَهُ بِقَوْلِهِ :

« إِنَّني مَسْرورٌ لِأَنَّكَ عَرَفْتَ طَريقَكَ إِلى هُنا . إِنَّني ، مُنْذُ عَزَمْتُ عَلى شِراءِ مَنْزِلٍ في إِنْجِلْترا ، أُحاوِلُ أَنْ أَعْرِفَ شَيْئًا عَنِ ٱلحَياةِ ٱلإِنْجليزِيَّةِ . وَيُؤْسِفُني أَنَّ مَعْرِفَتي بِٱللُّغَةِ ٱلإِنْجليزِيَّةِ كانَتْ عَنْ طَريقِ ٱلكُتُبِ فَحَسْبُ ، وَلٰكِنّي آمُلُ أَنْ أَزْدادَ بِها عِلْمًا بِٱلتَّحَدُّثِ إِلَيْكَ ياسَيِّدُ هاركر . وَلِذٰلِكَ فَإِنّي أَرْجو أَنْ تَطولَ إِقامَتُكَ في قَلْعَتي ، وَأَلّا تَكونَ مُتَعَجِّلًا في ٱلعَوْدَةِ . »

ثُمَّ ٱسْتَمَرَّ يَقولُ : « وَتَذَكَّرْ ياسَيِّدُ هاركر ، مادُمْتَ هُنا ، أَنَّ ٱلدّارَ دارُكَ . فَجُلْ فيها حَيْثُ تَشاءُ فيما عَدا ما وَراءَ ٱلأَبْوابِ ٱلْمُوصَدَةِ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّكَ ، بِٱلطَّبْعِ ، لَنْ تَرْغَبَ في دُخولِها . إِنَّ هُناكَ مِنَ ٱلأَسْبابِ ما يَدْعو إِلى هٰذِهِ ٱلإِجْراءاتِ ، فَنَحْنُ في ترانسيلْفانيا ، وَترانسيلْفانيا لَيْسَتْ إِنْجِلْترا . »

وَبَيْنَما كانَ يَقولُ ذٰلِكَ تَكَشَّفَتْ أَسْنانُهُ عَنِ ٱبْتِسامَةٍ أَشْبَهَ بِٱبْتِسامَةِ ٱلذِّئْبِ ، وَٱسْتَمَرَّ يَقولُ : « وَٱلآنَ ، زَوِّدْني بِمَعْلوماتٍ عَنِ ٱلْمَنْزِلِ ٱلَّذي ٱشْتَراهُ لي صاحِبُكَ ٱلسَّيِّدُ هَوْكِينز ، وَأَحْسَبُ أَنَّ هُناكَ بَعْضَ أَوْراقٍ لِأُوَقِّعَ عَلَيْها بِٱسْمي ، وَطَبيعِيٌّ أَنْ تَكونَ لَدَيَّ رَغْبَةٌ في مَعْرِفَةِ كُلِّ شَيْءٍ . »

فَرَدَّ جوناثان : « أَوَّلًا ، آمُلُ أَنْ تَجِدَ أَنَّ ٱلْمَنْزِلَ ٱلَّذي ٱشْتَرَيْناهُ لَكَ هُوَ ما كُنْتَ تَرْغَبُ فيهِ فِعْلًا ، وَأَصْدُقُكَ ٱلقَوْلَ : إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ ٱلنَّوْعِ ٱلَّذي يَرْغَبُ فيهِ أَغْلَبُ ٱلنّاسِ ، وَلٰكِنَّهُ

يُطابِقُ ما طَلَبْتَهُ . إنَّهُ يُسَمَّى كارْفاكْس ، وَمُلْحَقٌ بِهِ أَرْضٌ واسِعةٌ تُغَطِّي مُعْظَمَها ٱلْأَشْجارُ بِما يُضْفِي عَلَيْها بَعْضَ ٱلظُّلْمةِ . أَمَّا ٱلْمَنْزِلُ ذاتُهُ فَواسِعٌ قَديمٌ قَليلُ ٱلنَّوافِذِ ، وَأَخْشَى أَنَّكَ لَنْ تَجِدَ صُحْبَةً كَثيرَةً في كارْفاكْس ، إذْ إنَّهُ لا توجَدُ مَنازِلُ كَثيرَةٌ مُجاوِرَةٌ . أَمّا جارُكَ ٱلْوَحيدُ في ٱلْمِنْطَقَةِ فَهُوَ طَبيبٌ يَتَوَلَّى إدارَةَ مُسْتَشْفَى لِلْمَجانينِ . »

فَرَدَّ ٱلكونْت : « إنَّني مَسْرورٌ لِأَنَّ ٱلْمَنْزِلَ قَديمٌ ، فَلَقَدْ نَشَأْتُ في أُسْرَةٍ عَريقَةٍ ، وَلا أُحِبُّ أَنْ أُقيمَ في مَنْزِلٍ لَيْسَ لَهُ تاريخٌ ، ثُمَّ إنَّني لا أُبالي ٱلظَّلامَ . فَرَجُلٌ مُسِنٌّ مِثْلي ، يَعيشُ وَحيدًا وَيُفَكِّرُ كَثيرًا في ٱلْمَوْتِ ، لا يُمْكِنُ أَنْ يَخْشَى ٱلظَّلامَ . »

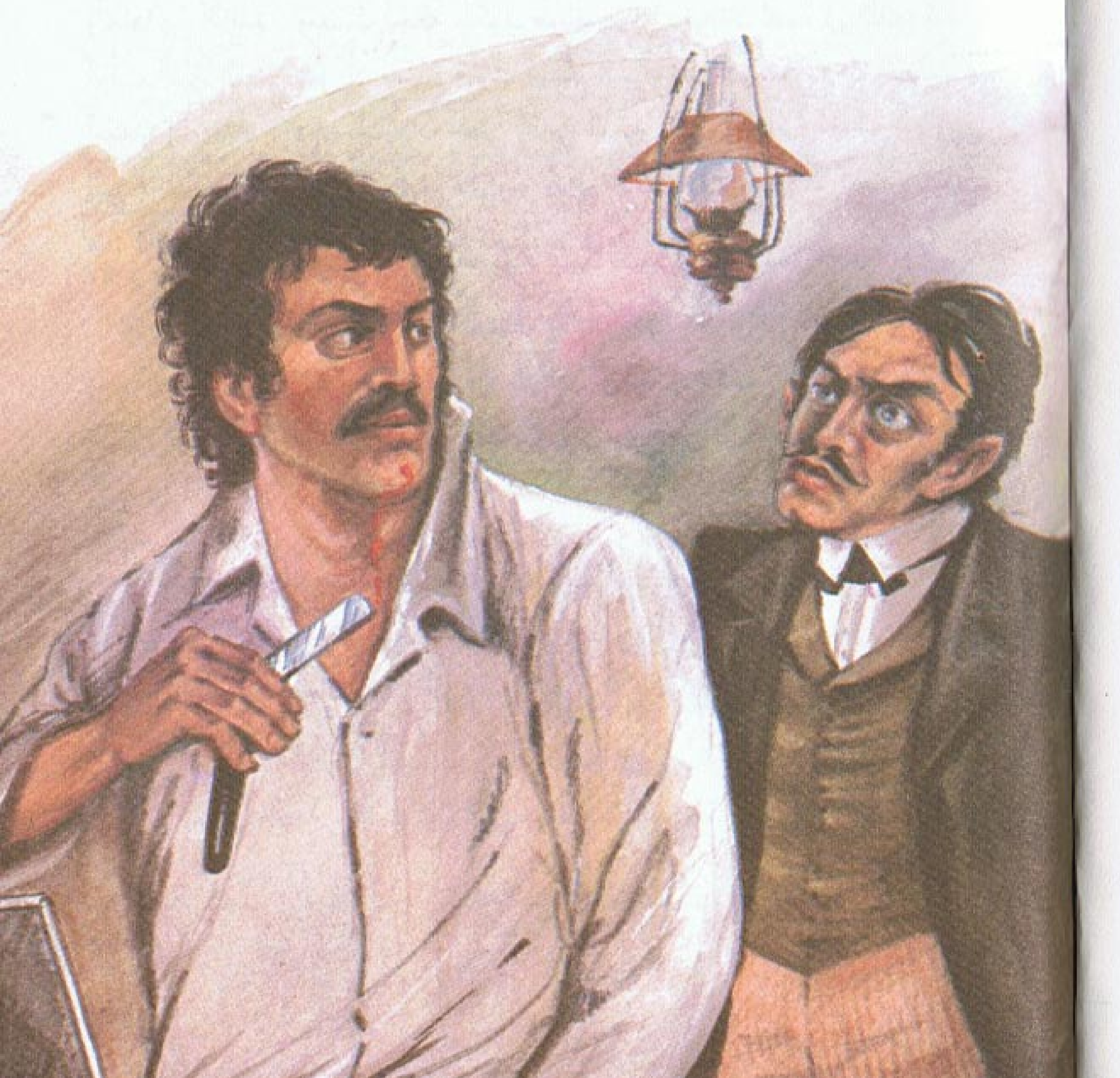
ثُمَّ وَقَّعَ ٱلكونْت بِٱسْمِهِ عَلى ٱلْأَوْراقِ ، وَسارَ يَتْبَعُهُ جوناثان إلى حُجْرَةِ ٱلْمائِدَةِ حَيْثُ كانَ ٱلطَّعامُ في ٱنْتِظارِهِما . وَمَرَّةً ثانِيَةً ٱعْتَذَرَ ٱلكونت عَنْ عَدَمِ تَناوُلِ ٱلطَّعامِ عَلى زَعْمِ أَنَّهُ تَناوَلَهُ خارِجَ ٱلْمَنْزِلِ .

اِنْقَضَتْ هٰذِهِ ٱلْأُمْسِيَةُ وَٱلْأَماسِيُّ ٱلتّالِيَةُ بِنَفْسِ ٱلنَّمَطِ ، وَمَعَ أَنَّهُ كانَ يَبْدو غَريبًا ، في نَظَرِ جوناثان ، أَنْ يَقْضِيَ ٱلْوَقْتَ بِٱلحَديثِ في ٱللَّيْلِ ، وَٱلنَّوْمِ في ٱلنَّهارِ ، فَقَدْ بَدا لَهُ أَنَّ هٰذا هُوَ ٱلْأُسْلوبُ ٱلَّذي تَعَوَّدَهُ ٱلكونْت ، وَأَحَسَّ أَنَّ مِنَ ٱلواجِبِ عَلَيْهِ أَنْ يُرْضِيَهُ . أَمّا ٱلكونْت فَقَدْ كانَ مَسْلَكُهُ دَمِثًا لَطيفًا ، وَكانَ حَديثُهُ دائِمًا شائِقًا وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ كانَ جوناثان ، لِسَبَبٍ غامِضٍ لا يَعْلَمُهُ ، مُتَوَجِّسًا خيفَةً مِنْهُ . وَلَمْ يَكُنْ مَصْدَرُ ذٰلِكَ هُوَ ، فَقَطْ ، تِلْكَ ٱلنَّظْرَةَ ٱلَّتي كانَ يَلْمَحُها أَحْيانًا في عَيْنَيْهِ ٱلغَريبَتَيْنِ بِسَبَبِ حُمْرَتِهِما ، وَإِنَّما هُوَ ، كَذٰلِكَ ، إحْساسُهُ أَنَّ ٱلكونْت لَيْسَ رَجُلًا عادِيًّا ، وَأَنَّ فيهِ قُوًى غَيْرَ طَبيعِيَّةٍ . وَحانَتْ فُرْصَةٌ وَجَدَ فيها جوناثان بُرْهانًا يُؤَيِّدُ هٰذا ٱلإحْساسَ ، وَكانَ ذٰلِكَ عَقِبَ قُدومِهِ بِحَوالَى أُسْبوعٍ . كانَ جوناثان يَقِفُ بِجِوارِ ٱلنّافِذَةِ يَحْلِقُ ذَقَنَهُ وَقَدْ وَضَعَ أَمامَهُ مِرْآةً صَغيرَةً كانَتْ صَديقَتُهُ مينا ، لِحُسْنِ ٱلحَظِّ ، قَدْ أَهْدَتْها إلَيْهِ . وَنَقولُ « لِحُسْنِ ٱلحَظِّ » لِأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ هُناكَ مِرْآةٌ في غُرْفَتِهِ ، وَلا في أَيٍّ مِنْ غُرَفِ ٱلقَلْعَةِ ٱلْأُخْرَى .

وَفَجْأَةً أَحَسَّ بِمَلْمَسِ يَدٍ ، وَسَمِعَ صَوْتًا يُحَيِّيهِ تَحِيَّةَ ٱلصَّباحِ ، فَقَفَزَ مِنَ ٱلْمُفاجَأَةِ ،

وَنَظَرَ فَإذا ٱلكونْت واقِفٌ بِجانِبِهِ . كانَ ٱلكونْت مِمَّنْ يَمْشونَ بِهُدوءٍ ، وَمِنَ ٱلْمُمْكِنِ أَنْ يَكونَ قَدْ دَخَلَ ٱلحُجْرَةَ فَلَمْ يَسْمَعْ وَقْعَ أَقْدامِهِ ، أَمّا غَيْرُ ٱلْمُمْكِنِ فَهُوَ أَنْ يَدْخُلَ ٱلحُجْرَةَ وَلا يُرى ، وَقالَ جوناثان في نَفْسِهِ : « كَيْفَ لَمْ أَرَهُ في ٱلْمِرْآةِ وَهُوَ يَدْخُلُ ٱلحُجْرَةَ ، ثُمَّ إنَّهُ يَقِفُ ٱلْآنَ أَمامَ ٱلْمِرْآةِ ، وَمَعَ أَنَّني أَرى نَفْسي فيها فَإنَّني لا أَراهُ . »

وَبَيْنَما كانَ جوناثان لا يَزالُ يُحَدِّقُ في ٱلْمِرْآةِ لَحَظَ أَنَّهُ جَرَحَ ذَقَنَهُ وَأَنَّ ٱلدَّمَ أَخَذَ يَسيلُ عَلى عُنُقِهِ ، فَٱلْتَفَتَ نَحْوَ ٱلكونْت مَرَّةً ثانِيَةً لِيَتَأَكَّدَ ما إذا كانَ في ٱلحُجْرَةِ حَقيقَةً ، فَأَصابَهُ



الفزعُ وتجمَّدَ في مكانِهِ . كانَ دراكولا يُراقِبُهُ وكأنَّه حيوانٌ جائعٌ . وبدا وكأنَّهُ يتأهَّبُ لِمُهاجمتِهِ .

كانَ الدَّمُ في هٰذِهِ اللَّحظةِ قدْ وصلَ حتّى الصَّليبِ الَّذي قدَّمتْهُ لهُ سيِّدةُ الفندقِ ، وبدونِ تفكيرٍ مسحَ جوناثان الدَّمَ بظهرِ يدِهِ . وفي أثناءِ ذٰلكَ رفعتْ يدُهُ الصَّليبَ ، وإذا بوجهِ الكونتِ يتغيَّرُ ويبدو كالمجنونِ ، ووقفَ يرتعشُ فترةً منَ الزَّمنِ كأنَّما تُغالبُهُ الرَّغبةُ في الهجومِ على جوناثان ، ولٰكنَّهُ ، لِأمرٍ ما ، غيرُ قادرٍ . وفجأةً تناولَ المرآةَ الصَّغيرةَ وألقاها منَ النَّافذةِ . ومضتْ لحظةُ سكونٍ طويلةٌ ، وجدَ جوناثان نفسَهُ في أثنائِها يحسبُ الوقتَ الَّذي انقضى قبلَ أنْ يسمعَ صوتَ تهشُّمِ المرآةِ على الصُّخورِ . أمّا الكونتُ فقدِ استدارَ إليهِ قائلًا : « إنَّ الشَّيطانَ أعطى النَّاسَ المرايا لِكيْ يجعلَهُمْ متعالينَ متكبِّرينَ . إنَّني لا أسمحُ بها في منزلي . » ثمَّ قالَ وهوَ يغادرُ الحجرةَ : « حاوِلْ ألّا تجرحَ نفسَكَ ، فإنَّ ذٰلكَ في بلدِنا أكثرُ خطورةً ممّا تتصوَّرُ . »

وفي البدايةِ ، لمْ يكنْ في وسعِ جوناثان إلّا أنْ يظلَّ واقفًا ورغوةُ الصّابونِ تجفُّ على وجهِهِ . كانَ عاجزًا عنْ أنْ يفعلَ أيَّ شيْءٍ . وتدافعتِ التَّساؤلاتُ في ذهنِهِ : لِماذا استثيرَ الرَّجلُ هٰذهِ الاستثارةَ بمنظرِ الدِّماءِ ؟ وأيُّ نوعٍ منَ الرِّجالِ هٰذا الَّذي لا تُمكِنُ رؤيتُهُ في المرآةِ ؟

ثمَّ نظرَ منَ النَّافذةِ متطلِّعًا إلى أسفلَ . إنَّ المرآةَ لابُدَّ أنْ تكونَ قدْ هوتْ مئةَ مترٍ قبلَ أنْ تصطدمَ بالأرضِ . ما أصعبَ الهروبَ منْ هٰذهِ القلعةِ ! ومرَّتْ بخاطرِهِ أفكارٌ عنِ الأبوابِ الموصدةِ ، وأخذَ يتساءلُ : ترى أهوَ زائرٌ للكونتِ دراكولا ، أمْ هوَ سجينٌ لديْهِ ؟ أهوَ ضيفُهُ أمْ أسيرُهُ ؟

الفصلُ الثّالثُ

كانَ جوناثان محاميًا درسَ القانونَ ، وقدْ علَّمتْهُ هٰذهِ الدِّراسةُ كيفَ يواجهُ الحقائقَ . ومنَ الحقائقِ الَّتي كانَ عليْهِ أنْ يواجهَها آنذاكَ أنَّهُ سجينٌ منْ نوعٍ ما . ولٰكنَّ المؤكَّدَ أنَّهُ سجنٌ مؤقَّتٌ لِبضعةِ أيّامٍ أخرى ، وأنَّهُ إذا كانَ دراكولا قدْ أفزعَهُ فهٰذا لا يعني بالضَّرورةِ أنَّهُ في خطرٍ ، فعليْهِ أنْ يخفيَ ما يجولُ في ذهنِهِ منْ أفكارٍ ، ويحاولَ أنْ يعرفَ المزيدَ منَ المعلوماتِ .

وفي هٰذا المساءِ سمعَ خطواتِ الكونتِ وهوَ يدخلُ بعدَ عودتِهِ منْ خارجِ المنزلِ ، ولاحظَ أنَّهُ لمْ يأتِ مباشرةً إلى حجرةِ الجلوسِ . فمشى جوناثان بخطًى خفيفةٍ نحوَ بابِ حجرةِ الكونتِ وشاهدَهُ يرتِّبُ فراشَهُ . وفيما بعدُ ، حينَ رآهُ وهوَ يعدُّ بنفسِهِ المائدةَ في حجرةِ الطَّعامِ ، اتَّضحَ لهُ — على الأقلِّ — أمرٌ منَ الأمورِ : اتَّضحَ لهُ أنَّهُ ليسَ هناكَ خدمٌ في القلعةِ . لقدْ كانَ الكونتُ نفسُهُ هوَ الَّذي يقومُ بكلِّ أعمالِ المنزلِ ، وهوَ الَّذي يسوقُ العربةَ . إذًا ، فإنَّ جوناثان وحدَهُ في القلعةِ معَ دراكولا . وحدَهُ ؟ لٰكنْ لا ، ليسَ وحدَهُ تمامًا كما اكتشفَ بعدَ أيّامٍ قليلةٍ .

* * *

ومضتِ الأيّامُ على وتيرةٍ واحدةٍ . يستيقظُ جوناثان منْ نومِهِ في وقتٍ متأخِّرٍ فيتناولُ إفطارَهُ ، ثمَّ يطالعُ في حجرةِ الجلوسِ ، وفي اللَّيلِ يستمعُ إلى الكونتِ وهوَ يتحدَّثُ عنْ تاريخِ أسرتِهِ وعنْ بلدِهِ . وكانَ حديثُهُ عنْ أسرتِهِ أوْ عنْ بلدِهِ شيئًا واحدًا تقريبًا ، ذٰلكَ أنَّ أعضاءَ أسرةِ دراكولا كانوا همُ المحورَ لجميعِ الأحداثِ الَّتي تمثِّلُ تاريخَ ترانسيلفانيا وهنا كانَ حديثُهُ شائقًا . وكانَ يروي قصصَهُ بأسلوبٍ يفيضُ بالعاطفةِ والمشاعرِ ، حتّى لقدْ يُخيَّلُ إلى السّامعِ أنَّهُ كانَ مشتركًا بنفسِهِ في المعاركِ الَّتي يتحدَّثُ عنها .

وفي بعضِ الأحيانِ كانَ يتحدَّثُ عنْ أشياءَ عاديَّةٍ .. عنْ إنجلترا .. عنِ القانونِ ..

عَنِ السُّفُنِ وَالْقِطاراتِ . وَكانَ جوناثان يَأْخُذُهُ الْعَجَبُ مِنْ كَثْرَةِ الْمَعْلوماتِ الَّتي يُلِمُّ بِها . وَكانَ مِنْ بَيْنِ الاهْتِماماتِ الَّتي أَبْداها رَغْبَتُهُ في تَصْديرِ بَضائِعَ إِلى إِنْجِلْتِرا ، وَلِذٰلِكَ كانَ يُريدُ اخْتِيارَ مَدينَةٍ ساحِلِيَّةٍ حَيْثُ يُمْكِنُهُ شَحْنُ الْبَضائِعِ إِلَيْها مُباشَرَةً .

قالَ الْكونْتُ : « لا أُريدُ مَدينَةً كَبيرَةً . فَقَدْ يَكونُ في ذٰلِكَ مَشَقَّةٌ وَمَضْيَعَةٌ لِلْوَقْتِ ، فَماذا تَرى ياسَيِّدُ هارْكَر ؟ »

فَقالَ جوناثان : « لِماذا لا تَكونُ هُويتْبي ؟ »

* * *

كانَ جوناثان يُفَكِّرُ في مينا وَصَديقَتِها الْجَميلَةِ لوسي ، إِذْ كانَتا تَعْتَزِمانِ الذَّهابَ لِقَضاءِ الْعُطْلَةِ في تِلْكَ الْمَدينَةِ الْقَديمَةِ الرّائِعَةِ الَّتي تَقَعُ في الشَّمالِ الشَّرْقِيِّ ، وَالَّتي تَشْتَهِرُ بِصَيْدِ الأَسْماكِ . حَدَّثَهُ جوناثان عَنِ الْمَدينَةِ وَعَنْ صاحِبَتِهِ مينا . وَبَدا عَلى الْكونْتِ الاهْتِمامُ وَالرِّضا ، فَقَدْ كانَتْ هُويتْبي مُلائِمَةً لَهُ ، وَأَعْرَبَ كَذٰلِكَ عَنْ سَعادَتِهِ الْبالِغَةِ بِعَزْمِ جوناثان عَلى الزَّواجِ . وَتَمَنّى لَهُ أَطْيَبَ الأُمْنِيّاتِ .

وَقَدْ سَرَّ جوناثان ما رَآهُ مِنِ اهْتِمامِهِ بِزَواجِهِ ، فَأَخْرَجَ صُوَرًا فوتوغْرافِيَّةً لِمينا وَلوسي ، وَابْتَسَمَ الْكونْتُ حينَ شاهَدَ الصُّوَرَ ، وَقالَ : « يالَهُما مِنْ فَتاتَيْنِ جَميلَتَيْنِ ! »

وَقَدْ نَطَقَ الْعِبارَةَ بِطَريقَةٍ جَعَلَتْ جوناثان يَأْسَفُ لِتَسَرُّعِهِ في إِطْلاعِهِ عَلى الصُّوَرِ ، ثُمَّ قالَ الْكونْتُ :

« صَديقَتُكَ الآنِسَةُ مينا ! مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّها تَرْغَبُ في مَعْرِفَةِ أَخْبارِكَ ، وَكَذٰلِكَ السَّيِّدُ هَوْكينْز . هَلْ كَتَبْتَ إِلَيْهِما مُنْذُ قُدومِكَ ؟ »

فَأَجابَ جوناثان : « لا .. لَمْ تُتَحْ لِيَ الْفُرْصَةُ ، لِكَيْ أَبْعَثَ بِأَيَّةِ رَسائِلَ . »

قالَ الْكونْتُ : « إِذًا فَاكْتُبِ الآنَ ياصَديقِيَ الْعَزيزَ . اكْتُبْ إِلى السَّيِّدِ هَوْكينْز وَأَخْبِرْهُ أَنَّكَ

سَوْفَ تُقيمُ مَعي شَهْرًا آخَرَ . »

وَما إِنْ سَمِعَ جوناثان كَلامَهُ حَتّى جَمَدَ الدَّمُ في عُروقِهِ ، وَقالَ : « أَتُريدُني أَنْ أُقيمَ هُنا هٰذِهِ الْفَتْرَةَ الطَّويلَةَ ؟

فَأَجابَ الْكونْتُ : « آمُلُ ذٰلِكَ . لَقَدْ بُعِثْتَ لِتَرْعَى أَعْمالي ، وَأَعْمالي تَتَطَلَّبُ مِنْكَ أَنْ تَكونَ هُنا لِفَتْرَةٍ طَويلَةٍ . »

وَهُنا ، أَحَسَّ جوناثان ــ أَكْثَرَ مِمّا كانَ يُحِسُّ مِنْ قَبْلُ ــ أَنَّهُ أَشْبَهُ بِالسَّجينِ . قالَ لِنَفْسِهِ : « كَيْفَ أَسْتَطيعُ أَنْ أُواصِلَ الْحَياةَ في هٰذِهِ الْقَلْعَةِ لِمُدَّةِ شَهْرٍ آخَرَ ؟ وَمَعَ هٰذا فَماذا أَسْتَطيعُ أَنْ أَفْعَلَ ؟ إِنَّني أَعْمَلُ لَدى السَّيِّدِ هَوْكينْز ، وَالْكونْتُ دراكولا يَدْفَعُ أَجْرًا في مُقابِلِ خِدْماتي . »

وَاسْتَمَرَّ الْكونْتُ يَقولُ : « إِنَّني أَطْلُبُ إِلَيْكَ أَلّا تَكْتُبَ في رَسائِلِكَ إِلّا ما يَمَسُّ الْعَمَلَ . مَعَ اسْتِثْناءِ ما تَقولُهُ مِنْ إِنَّكَ بِخَيْرٍ . »

ثُمَّ ناوَلَ جوناثان أَوْراقًا وَظُروفًا لِكِتابَةِ الرَّسائِلِ . وَكانَتِ الظُّروفُ مِنَ الرِّقَّةِ وَالشَّفافِيَةِ بِحَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يَقْرَأَ ما هُوَ مَكْتوبٌ في الرِّسالَةِ مِنْ خِلالِ الظَّرْفِ .

* * *

وَهٰكَذا جَلَسَ جوناثان ، وَكَتَبَ بِضْعَ رَسائِلَ لا تَتَضَمَّنُ أَيَّ أَمْرٍ مِنَ الأُمورِ الَّتي كانَ يَوَدُّ لَوِ اسْتَطاعَ أَنْ يَكْتُبَ عَنْها . وَأَخَذَ الْكونْتُ الرَّسائِلَ ، وَقَبْلَ أَنْ يَذْهَبَ قالَ : « دَعْني أُحَذِّرْكَ ياصَديقِيَ الشّابَّ ، إِذا غادَرْتَ هٰذِهِ الْحُجُراتِ وَذَهَبْتَ إِلى أَيِّ جُزْءٍ آخَرَ مِنَ الْقَلْعَةِ ، فَلا تَسْتَسْلِمْ لِلنَّوْمِ هُناكَ . إِنَّ الْقَلْعَةَ قَديمَةٌ ، وَقَدْ وَقَعَتْ أَحْداثٌ غَريبَةٌ هُنا ، وَمِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ تَرى أَحْلامًا مُزْعِجَةً ، أَمّا في حُجْرَتِكَ فَإِنَّكَ في مَأْمَنٍ . »

فَقالَ جوناثان في نَفْسِهِ : « في مَأْمَنٍ ؟! كَيْفَ أَسْتَطيعُ أَنْ أَكونَ آمِنًا وَأَنْتَ هُنا ؟ »

* * *

هَبَطَ جوناثان إلى حَيْثُ ٱلبابُ ٱلكَبيرُ ٱلَّذي يُؤَدّي إلى ساحةِ ٱلدّارِ . كانَ ٱلبابُ مُوصدًا كَٱلعادةِ ، وَلابُدَّ أَنْ يَكونَ ٱلمِفْتاحُ في حُجْرةِ ٱلكونْت . وَكانَتْ هُناكَ حُجْرةٌ صَغيرةٌ أَوِ ٱثْنَتانِ غَيْرَ مُوصَدَتَيْنِ ، وَلٰكِنَّ أَيًّا مِنْهُما لَمْ تَكُنْ تُؤَدّي إلى أَيِّ مَكانٍ . ثُمَّ لاحَظَ أَنَّ هُناكَ بابًا في نِهايَةِ دِهْليزٍ قَصيرٍ . وَقَدْ بَدا في بادِئِ ٱلأَمْرِ أَنَّهُ موصَدٌ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ في ٱلحَقيقَةِ ساقِطًا وَمُسْتَنِدًا إلى ٱلأَرْضِ ، فَاسْتَطاعَ جوناثانُ أَنْ يَرْفَعَهُ ثُمَّ يَدْفَعَهُ لِيَنْفَتِحَ قَليلًا بِما يَكْفي لِكَيْ يَعْبُرَ مِنْ خِلالِ ٱلفُتْحةِ . ثُمَّ أَخَذَ يَتَحَسَّسُ طَريقَهُ وَيَصْعَدُ سُلَّمًا مُظْلِمًا حَتّى وَجَدَ نَفْسَهُ في حُجْرةٍ بَهيجةٍ تُضيئُها أَشِعَّةُ ٱلقَمَرِ ، وَتَوَقَّعَ أَنْ تَكونَ مُجاوِرةً لِحُجْرةِ نَوْمِهِ . وَبَدا مِمّا فيها مِنْ أَثاثٍ أَنَّها رُبَّما كانَتْ تَسْتَخْدِمُها سَيِّداتُ ٱلقَلْعةِ مُنْذُ زَمانٍ طَويلٍ .

وَمَدَّ جوناثانُ رَأْسَهُ مِنَ ٱلنّافِذةِ مُتَمَتِّعًا بِٱسْتِنْشاقِ هَواءِ ٱللَّيْلِ . وَكانَ وُجودُهُ في جُزْءٍ آخَرَ مِنْ أَجْزاءِ ٱلقَلْعةِ يُشْعِرُهُ أَنَّهُ قَدِ ٱنْتَصَرَ عَلى دراكولا بَعْضَ ٱلانْتِصارِ . وَفي هٰذِهِ ٱللَّحْظةِ سَمِعَ صَوْتًا مِنْ أَسْفَلَ . وَأَدْرَكَ مِنْهُ أَنَّ هُناكَ شَخْصًا ما يُطِلُّ مِنْ نافِذةٍ . وَتَطَلَّعَ صَوْبَهُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرى ٱلوَجْهَ ، وَلٰكِنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّهُ لابُدَّ أَنْ يَكونَ ٱلكونْت دراكولا . وَسَرَّهُ أَنَّ دراكولا لَمْ يَكْتَشِفْ وُجودَهُ ، وَلٰكِنْ سَرْعانَ ما تَحَوَّلَ ٱلسُّرورُ إلى خَوْفٍ ، فَبِحَرَكةٍ فُجائيّةٍ كانَ جِسْمُ دراكولا كُلُّهُ يَبْرُزُ خارِجَ ٱلنّافِذةِ ، وَبَدَأَ يَهْبِطُ عَلى ٱلجِدارِ وَرَأْسُهُ إلى أَسْفَلَ كَمَثَلِ ذُبابةٍ تَدِبُّ هابِطةً عَلى جِدارٍ . وَكانَتْ أَصابِعُ يَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ تَتَشَبَّثُ بِكُلِّ فَراغٍ بَيْنَ ٱلأَحْجارِ ، وَجَوانِبُ ثَوْبِهِ تَرْتَفِعُ حَوْلَ جَسَدِهِ إلى أَعْلى كَأَنَّها أَجْنِحةٌ . وَهٰكَذا أَخَذَ يَهْبِطُ حَتّى ٱخْتَفى خِلالَ ٱلظِّلالِ عِنْدَ أَسْفَلِ جُدْرانِ ٱلقَلْعةِ .

كادَ جوناثانُ يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ ٱلفَزَعِ ، وَلَمْ يَكُنْ في أَوَّلِ ٱلأَمْرِ قادِرًا عَلى ٱلتَّفْكيرِ أَوِ ٱلتَّصَرُّفِ بِأَيَّةِ صورةٍ . ما هٰذا ٱلدّراكولا ؟!

وَأَخيرًا تَنَبَّهَ إلى أَنَّ الد ّا بَ الَّذي كانَ يَلْبَسُهُ حَوْلَ عُنُقِهِ قَدِ ٱشْتَبَكَ بِقِطْعةٍ مِنْ حَديدِ ٱلنّافِذةِ فَسَقَطَ خارِجَها . وَجالَ في خاطِرِهِ أَنَّ لِهٰذا ٱلصَّليبِ قُوَّةً تَقْهَرُ دراكولا . أَمّا ٱلآنَ وَقَدْ فَقَدَ ٱلصَّليبَ ، فَقَدْ شَعَرَ بِٱلضَّعْفِ وَٱلوَهَنِ ، فَتَمَدَّدَ فَوْقَ سَريرٍ في مُواجَهةِ ٱلنّافِذةِ مُنْتَظِرًا أَنْ تَعودَ إلَيْهِ قُوَّتُهُ .

أَمّا ٱلَّذي حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَقَدْ كانَ مِنَ ٱلغَرابةِ بِحَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ حُلْمًا مِنَ ٱلأَحْلامِ . ذٰلِكَ أَنَّهُ — مَعَ أَنَّ عَيْنَيْهِ مُغْمَضَتانِ — كانَ عَلى يَقينٍ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ وَحيدًا في ٱلحُجْرةِ . كانَتْ هُناكَ ثَلاثُ فَتَياتٍ يَرْقُبْنَهُ مِنْ خِلالِ ٱلظِّلالِ ، وَيَتَحَدَّثْنَ في هَمْسٍ ، وَحينَما تَحَرَّكْنَ خارِجَ ٱلظِّلالِ إلى حَيْثُ ضَوْءُ ٱلقَمَرِ رَأى ، مِنْ خِلالِ عَيْنَيْهِ نِصْفِ ٱلمَفْتوحَتَيْنِ ، أَنَّ ٱلثَّلاثَ جَميعَهُنَّ كُنَّ جَميلاتٍ فاتِناتٍ . وَعِنْدَما ضَحِكْنَ كَشَفَ ضَوْءُ ٱلقَمَرِ عَنْ أَسْنانٍ طَويلةٍ بيضٍ .

وَعِنْدَما ٱزْدَدْنَ مِنْهُ قُرْبًا ٱسْتَطاعَ أَنْ يَرى ٱلانْبِهارَ في عُيونِهِنَّ ٱلحُمْرِ . وَأَنْ يَسْمَعَهُ في تَنَفُّسِهِنَّ ، وَفي ٱلطَّريقةِ ٱلَّتي أَطْلَقْنَ بِها ضَحِكاتِهِنَّ . لَقَدْ كُنَّ شِرّيراتٍ فَٱعْتَراهُ ٱلذُّعْرُ مِنْهُنَّ ، وَلٰكِنَّ شَيْئًا ما — في نَفْسِ ٱلوَقْتِ — جَعَلَهُ يُشارِكُهُنَّ في ٱلانْبِهارِ وَيَرْغَبُ في أَنْ يَتَقَدَّمْنَ مِنْهُ .

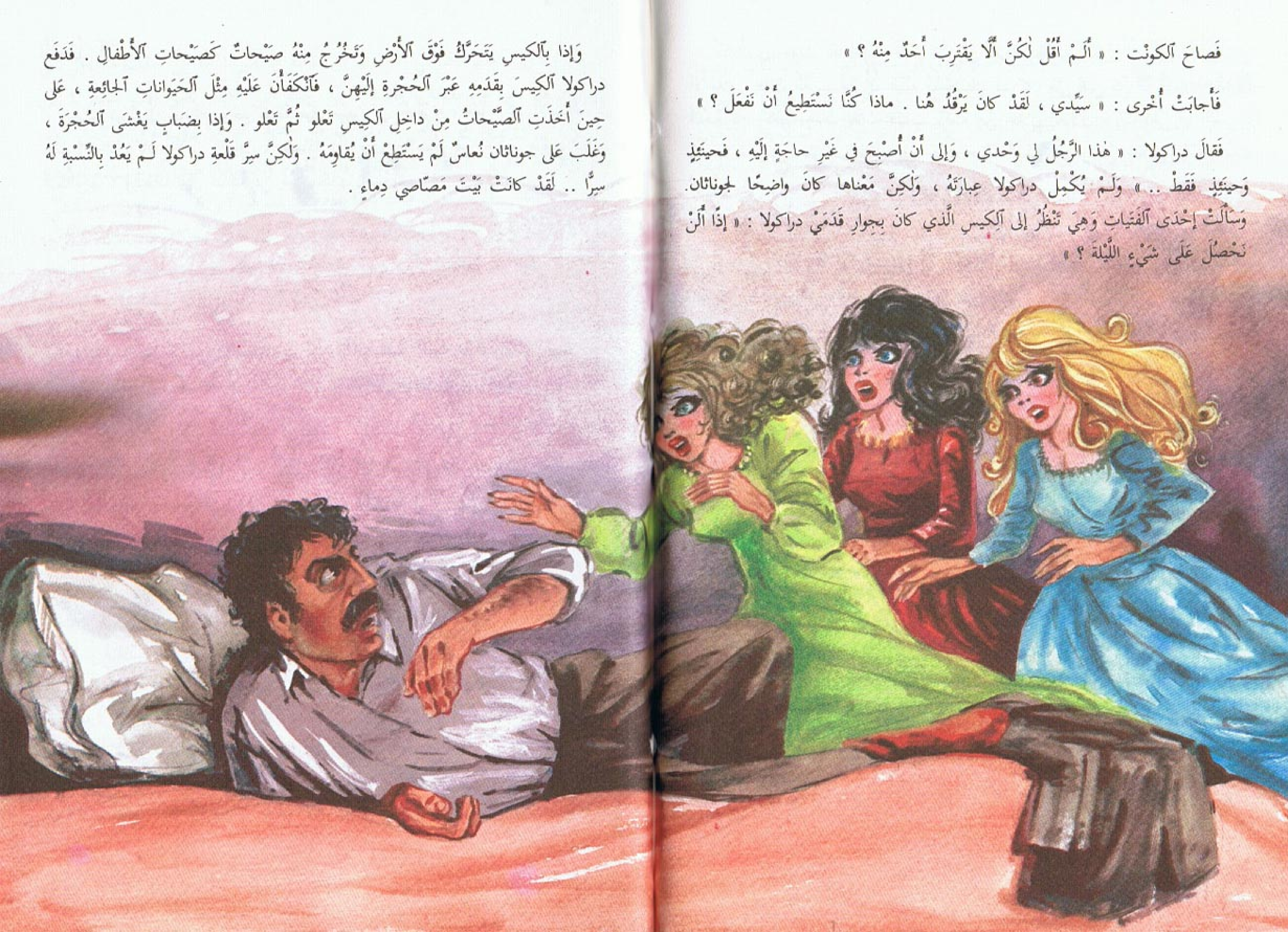
وَإذا بِٱثْنَتَيْنِ مِنْهُنَّ أَخيرًا تَدْفَعانِ ٱلثّالِثةَ ٱلشَّقْراءَ نَحْوَهُ ، فَتَقَدَّمَتْ وَٱنْحَنَتْ بِجِوارِ ٱلسَّريرِ وَوَضَعَتْ خَدَّها مُلاصِقًا لِخَدِّهِ . وَأَحَسَّ جوناثان أَنْفاسَها في عُنُقِهِ كَما أَحَسَّ أَنَّ سِنَّتَيْنِ حادَّتَيْنِ مِنْ أَسْنانِها تَلْمِسانِ بَشَرَتَهُ وَتَسْتَقِرّانِ بِلُطْفٍ فَوْقَها . فَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ ، وَٱنْتَظَرَ ما يَحْدُثُ وَهُوَ غَيْرُ قادِرٍ عَلى ٱلحَرَكةِ ، بَلْ غَيْرُ راغِبٍ فيها .

* * *

وَكانَ ما حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ أَشْبَهَ بِما يَحْدُثُ وَسْطَ عاصِفةٍ هَوْجاءَ . فَقَدْ أَحَسَّ أَنَّ ٱلكونْت مَوْجودٌ في ٱلحُجْرةِ . أَحَسَّ بِهِ حَتّى قَبْلَ أَنْ يَرى يَدَهُ وَهِيَ تُطْبِقُ عَلى عُنُقِ ٱلفَتاةِ ٱلَّتي بِجِوارِ سَريرِهِ وَيَقْذِفُ بِها عَبْرَ ٱلحُجْرةِ . كانَ غَضْبانَ غَضَبًا لَمْ يَشْهَدْهُ مِنْ قَبْلُ . كانَ وَجْهُهُ في صُفْرةِ ٱلمَوْتِ . كانَتْ عَيْناهُ يَنْبَعِثُ مِنْهُما ٱلشَّرَرُ ، وَكانَ جَسَدُهُ كُلُّهُ يَرْتَجِفُ ٱرْتِجافًا .

صاحَ ٱلكونْت : « كَيْفَ تَجْرُؤْنَ عَلى لَمْسِهِ ؟ كَيْفَ تَجْرُؤْنَ عَلى عِصْيانِ أَوامِري ؟ »

فَقالَتْ إحْداهُنَّ : « إنَّكَ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَفْهَمَ . إنَّكَ لَسْتَ ٱمْرَأةً . » ثُمَّ أَخَذْنَ جَميعًا يَضْحَكْنَ .



فَصاحَ ٱلكونْت : « أَلَـمْ أَقُلْ لَكُنَّ أَلَّا يَقْتَرِبَ أَحَدٌ مِنْهُ ؟ »

فَأَجابَتْ أُخْرى : « سَيِّدي ، لَقَدْ كانَ يَرْقُدُ هُنا . ماذا كُنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْعَلَ ؟ »

فَقالَ دراكولا : « هٰذا الرَّجُلُ لِي وَحْدي ، وَإِلى أَنْ أُصْبِحَ فِي غَيْرِ حاجَةٍ إِلَيْهِ ، فَحينَئِذٍ وَحينَئِذٍ فَقَطْ .. » وَلَـمْ يُكْمِلْ دراكولا عِبارَتَهُ ، وَلٰكِنَّ مَعْناها كانَ واضِحًا لِجوناثان. وَسَأَلَتْ إِحْدَى ٱلفَتَياتِ وَهِيَ تَنْظُرُ إِلى ٱلكِيسِ الَّذي كانَ بِجِوارِ قَدَمَيْ دراكولا : « إِذًا أَلَنْ نَحْصُلَ عَلَى شَيْءٍ اللَّيْلَةَ ؟ »

وَإِذا بِٱلكيسِ يَتَحَرَّكُ فَوْقَ ٱلأَرْضِ وَتَخْرُجُ مِنْهُ صَيْحاتٌ كَصَيْحاتِ ٱلأَطْفالِ . فَدَفَعَ دراكولا ٱلكِيسَ بِقَدَمِهِ عَبْرَ ٱلحُجْرَةِ إِلَيْهِنَّ ، فَٱنْكَفَأْنَ عَلَيْهِ مِثْلَ ٱلحَيَواناتِ ٱلجائِعَةِ ، عَلى حِينَ أَخَذَتِ ٱلصَّيْحاتُ مِنْ داخِلِ ٱلكِيسِ تَعْلو ثُمَّ تَعْلو . وَإِذا بِضَبابٍ يَغْشَى ٱلحُجْرَةَ ، وَغَلَبَ عَلى جوناثان نُعاسٌ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُقاوِمَهُ . وَلٰكِنَّ سِرَّ قَلْعَةِ دراكولا لَـمْ يَعُدْ بِالنِّسْبَةِ لَهُ سِرًّا .. لَقَدْ كانَتْ بَيْتَ مَصّاصي دِماءٍ .

ٱلْفَصْلُ ٱلرّابِعُ

حينَما ٱسْتَيْقَظَ جُوناثان وَجَدَ نَفْسَهُ فَوْقَ سَريرِهِ في حُجْرَتِهِ ، فَهَلْ كانَ ٱلأمْرُ مُجَرَّدَ حُلْمٍ ؟ وَإذا كانَ ٱلأمْرُ كَذٰلِكَ ، فَلِماذا إذًا يَرى مَلابِسَهُ غَيْرَ مُرَتَّبةٍ طِبْقًا لِلنِّظامِ ٱلمَأْلوفِ ؟ وَلِماذا يَرى ساعَتَهُ في غَيْرِ مَكانِها ٱلمَعْهودِ ؟!

اِرْتَدى جوناثان ملابِسَهُ وَنَزَلَ إلى ٱلبابِ ٱلمُؤَدّي إلى ٱلجُزْءِ ٱلآخَرِ مِنَ ٱلقَلْعةِ فَوَجَدَهُ مُوصَدًا ، لا بِطَريقةٍ عادِيَّةٍ ، وَإنَّما قَدْ أوصِدَ في غَضَبٍ وَعُنْفٍ حَتّى إنَّ بَعْضَ قِطَعٍ مِنَ الجِدارِ قَدْ تَساقَطَتْ . إذًا ، فَإنَّهُ لَمْ يَكُنْ حُلْمًا .

وَفي ٱلمَساءِ لَمْ يُشِرِ ٱلكونت بِأيِّ كَلِمةٍ إلى اللَّيْلةِ ٱلماضِيةِ ، وَلٰكِنَّهُ أخْرَجَ وَرَقًا لِلْكِتابةِ ، وَطَلَبَ مِنْ جُوناثان أنْ يَكْتُبَ ثَلاثَ رَسائِلَ إلى مِينا ؛ يَقولُ في أوَّلِها إنَّ عَمَلَهُ كادَ يَنْتَهي ، وَإنَّهُ سَوْفَ يَعودُ في خِلالِ أيّامٍ قَليلةٍ ؛ وَيَقولُ في ٱلثّانيةِ إنَّهُ سَيَعودُ في صَباحِ ٱليَوْمِ التّالي ؛ وَيَقولُ في ٱلثّالِثةِ إنَّهُ غادَرَ ٱلقَلْعةَ وَوَصَلَ إلى بِيسْترِيتْز .

قالَ ٱلكونت : « إنَّ ٱلبَريدَ بَطيءٌ ، وَلا أُريدُ لِأصْدِقائِكَ أنْ يَظُنُّوا أنَّ شَيْئًا قَدْ حَدَثَ لَكَ ، وَسَوْفَ أبْعَثُ بِهٰذِهِ ٱلرَّسائِلِ في ٱلوَقْتِ ٱلمُناسِبِ ، وَبِذٰلِكَ يَعْرِفونَ مَتى يَتَوَقَّعونَ مِيعادَ وُصولِكَ . »

قالَ جوناثان في نَفْسِهِ : « هَلْ أمْلِكُ إلّا الطّاعةَ ؟ إنَّني تَحْتَ رَحْمَتِهِ تَمامًا . »

وَبَدَأَ ٱليَوْمُ ٱلتّالي بِدايةً طَيِّبةً ، فَقَدِ ٱسْتَيْقَظَ عَلى ضَجيجِ أصْواتٍ .. أصْواتِ رِجالٍ عادِيِّينَ ، فَجَرى إلى نافِذةِ حُجْرةِ ٱلمائِدةِ وَأطَلَّ مِنْها ، فَشاهَدَ بَعْضَ ٱلغَجَرِ في رُكْنٍ مِنْ أرْكانِ ساحةِ ٱلدّارِ وَهُمْ يُنْزِلونَ مِنْ عَرَبةِ نَقْلٍ صَناديقَ خَشَبِيَّةً طَويلةً . وَكانَ وُقوعُ بَصَرِهِ عَلى أُناسٍ عادِيِّينَ ــ حَتّى وَلَوْ كانوا مِنْ أُولٰئِكَ ٱلغَجَرِ التِّرانْسيلْفانِيِّينَ ٱلجُفاةِ ــ مِمّا يَبْعَثُ في النَّفْسِ ٱلأمَلَ . فَهاهُنا ــ في ساحةِ ٱلدّارِ ــ رِجالٌ طُلَقاءُ رُبَّما يَسْتَطيعونَ أنْ يَحْمِلوا

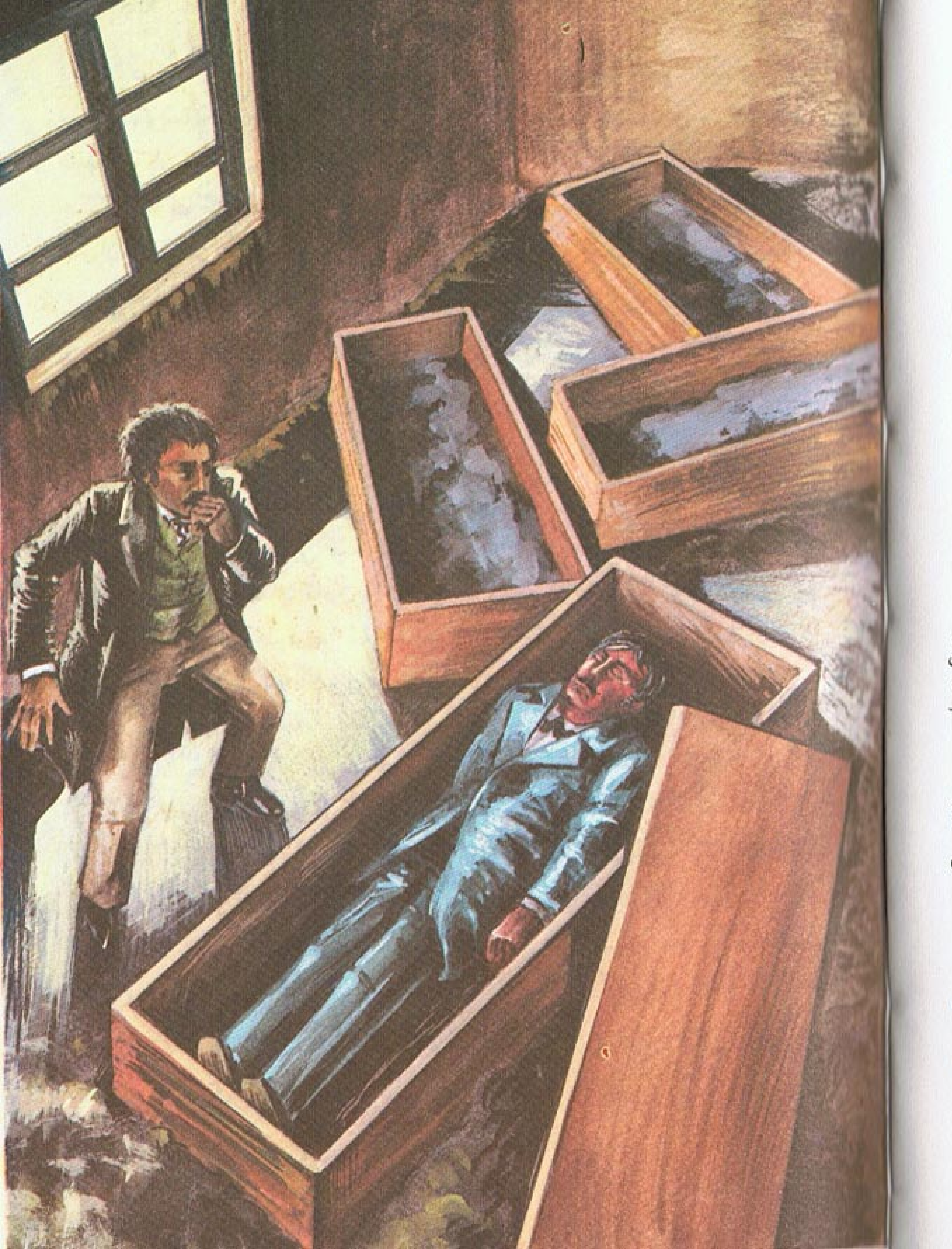
رِسالةً مِنْهُ إلى العالَمِ ٱلخارِجِيِّ . وَجَرى إلى غُرْفَتِهِ لِيُحْضِرَ أوْراقًا مِنْ حَقيبَتِهِ ، وَلٰكِنْ أيْنَ حَقيبَتُهُ بِما فيها مِنْ بِطاقاتٍ وَنُقودٍ ؟ أيْنَ حُلَّتُهُ الَّتي كانَ يَرْتَديها وَقْتَ السَّفَرِ ؟ أيْنَ مِعْطَفُهُ ؟ كُلُّ ذٰلِكَ قَدِ ٱخْتَفى . تُرى أيُّ شَرٍّ جَديدٍ كانَ دراكولا يُدَبِّرُهُ لَهُ ؟

وَعِنْدَما عادَ إلى النّافِذةِ كانَ ٱلغَجَرُ قَدْ رَحَلوا ، وَلٰكِنَّهُ ظَلَّ طَوالَ ٱليَوْمِ يَسْمَعُ أصْواتَ حَفْرٍ في ٱلقَلْعةِ . وَتَأكَّدَ لَهُ أنَّ هُناكَ شَيْئًا يَحْدُثُ ، فَما هُوَ ؟ وَلِكَيْ يَهْتَدِيَ إلى هٰذا ٱلشَّيْءِ لَمْ يَكُنْ أمامَهُ إلّا أنْ يُراقِبَ ٱلكونت . وَفي ٱلمَساءِ جَلَسَ بِجِوارِ نافِذةِ غُرْفةِ نَوْمِهِ في ٱنْتِظارِ سَماعِ صَوْتِ أصابِعِ ٱليَدَيْنِ وَأصابِعِ ٱلقَدَمَيْنِ وَهِيَ تَتَشَبَّثُ بِالجِدارِ .

وَما كادَتِ الشَّمْسُ تَغيبُ حَتّى سَمِعَ هٰذا الصَّوْتَ ، وَكانَ دراكولا قَدْ خَرَجَ مِنَ النّافِذةِ ، وَبَدَأَ يَتَحَرَّكُ إلى أسْفَلِ ٱلجِدارِ كَما فَعَلَ في اللَّيْلةِ السّابِقةِ ، مَعَ فارِقٍ واحِدٍ ، فَقَدْ كانَ في هٰذِهِ ٱلمَرَّةِ يَلْبَسُ مَلابِسَ جوناثان .

وَبَدا كُلُّ شَيْءٍ واضِحًا أمامَ جوناثان ، فَٱلكونت يَنْوي أنْ يَدَعَ النّاسَ يَرَوْنَهُ في بِيسْترِيتْز فَيَظُنُّونَ أنَّهُ جوناثان ، وَيَقومَ بِإرْسالِ الرَّسائِلِ مِنْها ، وَمِنْ ثَمَّ يَعْتَقِدُ الَّذينَ يَتَلَقَّوْنَها أنَّ جوناثان في طَريقِهِ إلى بِلادِهِ . وَكانَ لابُدَّ لِجوناثان أنْ يَهْرُبَ ، وَلابُدَّ أنْ يَحْصُلَ عَلى مِفْتاحِ ٱلبابِ ، وَلِكَيْ يَفْعَلَ ذٰلِكَ فَلابُدَّ أنْ يَجِدَ وَسيلةً لِدُخولِ حُجْرةِ ٱلكونت .

وَكانَتْ هٰذِهِ ٱلحُجْرةُ تَقَعُ تَحْتَ حُجْرَتِهِ تَمامًا ، وَهُوَ يَسْتَطيعُ أنْ يَتَدَلّى بِحَبْلٍ إلَيْها ، وَلٰكِنْ أيْنَ ٱلحَبْلُ ؟ لَمْ يَكُنِ ٱلكونت لِيَتْرُكَ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلأشْياءِ في مُتَناوَلِ زائِريهِ ، فَأخَذَ يُجيلُ النَّظَرَ فيما حَوْلَهُ . وَكانَتِ ٱلحُجْرةُ ذاتَ سَتائِرَ طَويلةٍ ، فَفَكَّرَ أنَّهُ يَسْتَطيعُ أنْ يَنْزِعَ ٱلقَضيبَ النُّحاسِيَّ ٱلمَتينَ الَّذي تَتَدَلّى مِنْهُ السَّتائِرُ ، ثُمَّ يُثَبِّتُ طَرَفَيْهِ في ٱلجِدارِ عَلى جانِبَيِ النّافِذةِ ، وَمِنْ ثَمَّ تُصْبِحُ السِّتارةُ مُدَلّاةً حَتّى نافِذةِ ٱلكونت . وَيَسْتَطيعُ ــ بَعْدَ أنْ يَتَسَلَّقَ النّافِذةَ ــ أنْ يَتَشَبَّثَ بِأطْرافِ أصابِعِ رِجْلَيْهِ فيما بَيْنَ أحْجارِ ٱلجِدارِ مِنْ فَراغاتٍ واسِعةٍ ، وَمِنْ ثَمَّ يَهْبِطُ إلى حُجْرةِ ٱلكونت . وَقَدْ يَكونُ في هٰذِهِ ٱلمُغامَرةِ شَيْءٌ مِنَ ٱلخَطَرِ ، وَلٰكِنَّهُ أمْرٌ لابُدَّ مِنْهُ .



لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ ما يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلَهُ في هٰذِهِ ٱللَّيْلَةِ ، فَلِلَّيْلِ مَخاطِرُهُ في هٰذِهِ ٱلْقَلْعَةِ . وَفَوْقَ ذٰلِكَ ، فَمِنَ ٱلْمُحْتَمَلِ أَنْ يَكونَ ٱلكونْتُ قَدْ أَخَذَ ٱلْمِفْتاحَ مَعَهُ ، وَلِذٰلِكَ قالَ في نَفْسِهِ : « لابُدَّ أَنْ أَنْتَظِرَ حَتَّى ٱلغَدِ . فَٱلكونْت دراكولا لا يَظْهَرُ كَثيرًا في الصَّباحِ ، وَيَبْدو أَنَّهُ يَنامُ هٰذِهِ ٱلفَتْرَةَ ، وَلِذٰلِكَ فَالصَّباحُ هُوَ ٱلوَقْتُ ٱلْمُناسِبُ . »

عِنْدَما جَلَسَ جوناثان عَلى حافَةِ النّافِذَةِ مُمْسِكًا بالسِّتارةِ كانَ يَتَمَنّى لو أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ في هٰذا ٱلْمَكانِ (وَلَمْ تَكُنْ هٰذِهِ هِيَ ٱلْمَرَّةَ ٱلأُولى ٱلَّتي تَمَنّى فيها هٰذِهِ ٱلأُمْنِيَةَ مُنْذُ وَفَدَ إلى قَلْعةِ دراكولا) وَلٰكِنَّ ٱلأُمورَ سارَتْ كَما يَشْتَهي . وَلَمْ يَمْضِ إلّا قَليلٌ حَتّى كانَ قَدِ ٱسْتَقَرَّ واقِفًا في حُجْرةِ ٱلكونْت .

وَتَساءَلَ جوناثان في نَفْسِهِ : « أَهٰذِهِ حُجْرَةُ ٱلكونْت حَقًّا ؟ إنَّها تَبْدو كَأَنْ لَمْ تُسْتَخْدَمْ مُنْذُ سَنَواتٍ ، فَٱلغُبارُ ٱلكَثيفُ يُغَطّي كُلَّ ما فيها حَتّى مَجْموعةً مِنَ ٱلنُّقودِ ٱلذَّهَبِيَّةِ كانَتْ في أَحَدِ ٱلأَرْكانِ . وَمِنَ ٱلْمُؤَكَّدِ أَنَّ ٱلْمَفاتيحَ لَيْسَتْ هُنا . فَيا تُرى هَلِ ٱلنُّزولُ عَلى هٰذِهِ السَّلالِمِ ٱلحَجَرِيَّةِ يُؤَدّي إلى غُرْفَةِ ٱلكونْت ٱلحَقيقِيَّةِ ؟ »

وَشَرَعَ يَهْبِطُ السُّلَّمَ ، فَإِذا بِهٰذِهِ ٱلرّائِحةِ ٱلتُّرابِيَّةِ ٱلغريبَةِ ٱلَّتي كانَتْ .قَدِ ٱنْبَعَثَتْ مِنْ أَنْفاسِ دراكولا تَزْكُمُ أَنْفَهُ ، وَكُلَّما ٱزْدادَ تَقَدُّمًا ، ٱزْدادَتِ ٱلرّائِحةُ قُوَّةً وَخُبْثًا كَما لَوْ كانَتْ تَنْبَعِثُ مِنْ جُحْرِ ثَعْلَبٍ .

وَأَخيرًا ٱنْتَهى إلى غُرْفَةٍ ذاتِ أَرْضِيَّةٍ تُرابِيَّةٍ ، يَتَسَرَّبُ إلَيْها الضَّوْءُ مِنْ نافِذَةٍ صَغيرةٍ عالِيَةٍ . وَهُناكَ في أَقْصى ٱلغُرْفَةِ كانَتْ تُوجَدُ الصَّناديقُ ٱلَّتي أَحْضَرَها ٱلغَجَرُ ، وَٱلَّتي تَبْلُغُ ٱلخَمْسينَ صُنْدوقًا . وَكانَتْ كُلُّها مَمْلوءَةً بِالتُّرابِ ، وَعَلى مَقْرُبَةٍ مِنْها صُنْدوقٌ آخَرُ أَقْدَمُ مِنْ بَقِيَّةِ ٱلصَّناديقِ .

كانَتْ أَشِعَّةُ شَمْسِ الصَّباحِ ، ٱلَّتي بَدَأَتْ تَتَسَرَّبُ عِنْدَئِذٍ مِنَ ٱلنّافِذةِ ، تَقَعُ عَلى هٰذا الصُّنْدُوقِ . وَكَأَنَّما كانَتِ ٱلشَّمْسُ تُرْشِدُ جوناثان إلى الصُّنْدوقِ فَٱتَّجَهَ إلَيْهِ ، وَنَظَرَ في داخِلِهِ . وَكانَتْ نَظْرَةٌ واحِدةٌ فيها ٱلكِفايَةُ ، لِكَيْ يَنْدَفِعَ إلى ٱلوَراءِ وَيُطْلِقَ صَيْحةً مُدَوِّيَةً .

كانَ دراكولا يَنامُ مُمَدَّدًا عَلى سَريرٍ مِنْ تُرابٍ ، وَلَمْ يَكُنْ وَجْهُهُ شاحِبًا باهِتًا كَما كانَ مِنْ قَبْلُ ، وَإِنَّما كانَ أَحْمَرَ داكِنًا ، وَلَمْ يَكُنْ شَعْرُهُ أَسْوَدَ كَما عَهِدَهُ ، وَإِنَّما كانَ رَمادِيًّا غامِقًا . وَكانَ الدَّمُ يَسيلُ مِنْ جانِبَيْ فَمِهِ مُنْحَدِرًا إِلى عُنُقِهِ وَمِنْ ثَمَّ إِلى مَلابِسِهِ . كانَ جِسْمُهُ كُلُّهُ مُتَوَرِّمًا بِالدِّماءِ الَّتي تَنْبَعِثُ رائِحَتُها ، أَمّا وَجْهُهُ فَقَدْ كانَتْ تَبْدو عَلَيْهِ نَظْرَةُ الحَيَوانِ الْمُتَوَحِّشِ الَّذي قَتَلَ فَريسَتَهُ ثُمَّ أَكَلَ مِنْها حَتّى بَشِمَ وَلَمْ يَعُدْ يَسْتَطيعُ الْمَزيدَ .

كانَ عَلى جوناثان أَنْ يُرْغِمَ نَفْسَهُ إِرْغامًا عَلى أَنْ يَلْمِسَ هٰذِهِ الحَقيبَةَ الدَّمَوِيَّةَ الَّتي هِيَ جِسْمُ دراكولا . وَإِذْ فَعَلَ ذٰلِكَ ، لَمْ يَكُنْ في وُسْعِهِ أَنْ يُغادِرَ الْمَكانَ إِلّا بَعْدَ أَنْ يُفَتِّشَ في جُيوبِهِ بَحْثًا عَنِ الْمِفْتاحِ ، وَلٰكِنَّ جُيوبَهُ كانَتْ خالِيَةً . لَقَدْ كانَ دراكولا مِنَ الذَّكاءِ بِحَيْثُ لا يَدَعُ نَفْسَهُ تَقَعُ في مِثْلِ هٰذِهِ الْمِصْيَدَةِ .

لَقَدْ أَرادَ جوناثان ـــ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ في حَياتِهِ ـــ أَنْ يَرْتَكِبَ جَريمَةَ قَتْلٍ لِكَيْ يَقْضِيَ عَلى هٰذا الشَّيْءِ البَغيضِ الَّذي يَرْقُدُ في صُنْدوقِهِ . وَنَظَرَ حَوْلَهُ فَرَأى حَجَرًا ثَقيلًا كانَ قَدْ سَقَطَ مِنَ الجِدارِ ، فَأَخَذَهُ وَرَفَعَهُ إِلى مافَوْقَ رَأْسِهِ ، وَلٰكِنَّهُ تَراجَعَ فَتَرَكَهُ يَسْقُطُ عَلى الأَرْضِ . لَقَدْ رَأى أَنَّهُ لَيْسَتْ هُناكَ جَدْوى مِنْ مُحاوَلَةِ قَتْلِ شَيْءٍ لا يُمْكِنُ أَنْ يُقْتَلَ . لَقَدْ كانَ واثِقًا أَنَّ مَصّاصي الدِّماءِ لا يَموتونَ كَما يَموتُ النّاسُ العادِيّونَ .

عادَ جوناثان إِلى حُجْرَتِهِ ، وَارْتَمى فَوْقَ سَريرِهِ في حالَةٍ مِنَ اليَأْسِ الْمَريرِ . ها هُوَذا الآنَ في مَوْقِفٍ غَريبٍ . لَيْسَ مَوْقِفَ سَجينِ مَصّاصِ الدِّماءِ ـــ حَيْثُ لا حَوْلَ لَهُ وَلا طَوْلَ ـــ فَحَسْبُ ، وَلٰكِنْ هُناكَ ما هُوَ أَسْوَأُ مِنْ ذٰلِكَ . لَقَدْ كانَ يُقَدِّمُ مُساعَدَةً جَمَّةً لِمَصّاصِ الدِّماءِ لِكَيْ يَجِدَ دَمًا جَديدًا في بَلَدٍ آخَرَ .

وَفي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ ظَهَرَ الكونْت في الوَقْتِ الَّذي تَعَوَّدَ أَنْ يَظْهَرَ فيهِ . وَلَمْ يَكُنْ أَحْمَرَ اللَّوْنِ أَوْ مُتَوَرِّمَ الجِسْمِ كَما كانَ يَبْدو في أَوَّلِ النَّهارِ . قالَ الكونْتُ :

« اللَّيْلَةَ ياصَديقي لابُدَّ أَنْ يُوَدِّعَ كُلٌّ مِنّا صاحِبَهُ ، فَسَوْفَ تَعودُ غَدًا إِلى بَلَدِكَ ، وَأَنا أَيْضًا سَأَقومُ بِرِحْلَةٍ . وَفي الصَّباحِ سَوْفَ تَأْخُذُكَ عَرَبَتي إِلى طَريقِ بِيسْتريتز حَيْثُ تَصِلُ إِلَيْها

في مَساءِ الغَدِ . وَآمُلُ أَنْ أَراكَ مَرَّةً ثانِيَةً في قَلْعَةِ دراكولا . »

فَسَأَلَ جوناثان : « لِماذا لا أَذْهَبُ اللَّيْلَةَ ؟ »

فَأَجابَ الكونْت : « لِأَنَّ عَرَبَتي مَشْغولَةٌ اللَّيْلَةَ ياسَيِّدي العَزيزَ . »

قالَ جوناثان : « وَلٰكِنَّني أَسْتَطيعُ السَّيْرَ عَلى قَدَمَيَّ . إِنَّني أَرْغَبُ في الرَّحيلِ الآنَ . »

قالَ الكونْت : « وَحَقائِبُكَ ؟ »

قالَ جوناثان : « لا يُهِمُّني أَمْرُ حَقائِبي ، وَأَسْتَطيعُ أَنْ أُرْسِلَ فيما بَعْدُ مَنْ يَأْخُذُها . »

فَابْتَسَمَ الكونْت قائِلًا : « تَعالَ مَعي . إِنَّكَ لَنْ تَبْقى في مَنْزِلي ساعَةً أَكْثَرَ مِمّا تُريدُ ، وَلَوْ أَنَّني حَزينٌ لِرَحيلِكَ وَحَزينٌ لِرَغْبَتِكَ في التَّعْجيلِ بِالرَّحيلِ . »

وَمَضى الكونْت وَجوناثانُ يَتْبَعُهُ إِلى أَسْفَلِ السُّلَّمِ حَيْثُ البابُ الكَبيرُ . قالَ لِجوناثان : « أَصْغِ . »

وَإِذا بِأَصْواتِ ذِئابٍ كَثيرَةٍ تَنْبَعِثُ مِنْ مَكانٍ قَريبٍ مِنْهُما . وَكَأَنَّما انْبَعَثَتْ هٰذِهِ الأَصْواتُ بِمُجَرَّدِ أَنْ رَفَعَ دراكولا يَدَهُ ، ثُمَّ شَرَعَ يَفْتَحُ البابَ الَّذي لَمْ يَكُنْ مُوصَدًا بِالقُفْلِ . وَلَمْ يَكَدْ يَنْفَتِحُ قَليلًا حَتّى عَلَتْ أَصْواتُ الذِّئابِ . وَاسْتَطاعَ جوناثان أَنْ يَراها وَهِيَ تَثِبُ هُنا وَهُناكَ وَأَفْواهُها الْمُتَعَطِّشَةُ الحَمْراءُ مَفْغورَةٌ عَلى آخِرِها ، وَاسْتَمَرَّ البابُ يَنْفَتِحُ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَأَدْرَكَ جوناثان أَنَّهُ لا يَقِفُ فاصِلًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الذِّئابِ الشَّرِسَةِ الجائِعَةِ إِلّا الكونْت . وَبَدَأَتِ الهَواجِسُ في نَفْسِهِ : أَهٰذا هُوَ الَّذي كانَ الكونْتُ يُدَبِّرُهُ ؟ أَنْ يُقَدِّمَهُ طَعامًا سائِغًا لِهٰذِهِ الحَيَواناتِ الَّتي كانَتْ تَذْهَبُ وَتَجيءُ كَأَنَّها خَدَمٌ ، وَالَّتي يُسَمّيها الكونْت « أَوْلادَهُ » ؟

وَأَخيرًا صاحَ جوناثان : « أَغْلِقِ البابَ . سَأَنْتَظِرُ حَتّى الصَّباحِ . »

نَطَقَ بِالعِبارَةِ وَهُوَ يُديرُ رَأْسَهُ لِكَيْلا يَرى دراكولا دُموعَهُ الَّتي لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَمْنَعَها .

أَمّا دراكولا فَقَدْ صَفَقَ ٱلبابَ بِشِدَّةٍ ، وَأُخَذَتْ أَصْواتُ ٱلذِّئابِ تَخْفُتُ بَعيدًا . وَحانَتِ ٱلْتِفاتَةٌ مِنْ جوناثان إِلى ٱلْوَراءِ وَهُوَ يَصْعَدُ السُّلَّمَ عائِدًا ، فَإِذا ٱلكونْت يَضْحَكُ بِلا صَوْتٍ .

بَعْدَ نِصْفِ ساعَةٍ سَمِعَ جوناثان أَصْواتَ خُيولٍ ، وَغِناءَ ٱلغَجَرِ في ساحَةِ الدّارِ . وَتَطَلَّعَ مِنْ نافِذَتِهِ فَرَأى عَرَبَةَ النَّقْلِ مُحَمَّلَةً بِالصَّناديقِ ٱلخَشَبِيَّةِ ، وَأَدْرَكَ أَنَّ دراكولا كانَ في واحِدٍ مِنْها .. في طَريقِهِ إِلى إِنْجِلْترا .

وَٱطْمَأَنَّ جوناثان إِلى أَنَّهُ سَوْفَ يَكونُ في صَبيحَةِ ٱليَوْمِ التّالي حُرًّا في مُغادَرَتِهِ ٱلقَلْعَة . وَكانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ تَكونَ هُناكَ عَرَبَةٌ تُقِلُّهُ ، وَلٰكِنَّهُ يَسْتَطيعُ ٱلْمَشْيَ عَلى أَيَّةِ حالٍ . وَلَمْ يَكُنْ يَخْشَى الذِّئابَ ، لِأَنَّ ٱلوَقْتَ سَيَكونُ نَهارًا ، وَدراكولا غائِبٌ ، وَلٰكِنْ بَقِيَتْ هُناكَ مُشْكِلَةٌ . صَحيحٌ أَنَّ دراكولا قَدْ ذَهَبَ ، وَهٰذا جَميلٌ ، وَلٰكِنَّ ٱلوَقْتَ لَيْلٌ ، وَمَخاطِرُ اللَّيْلِ لَمْ تَذْهَبْ مَعَ دراكولا . لَقَدْ كانَ وُجودُ ٱلكونْت في ٱلقَلْعَةِ يَجْعَلُهُ بِمَأْمَنٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَخاطِرِ . وَتَساءَلَ في نَفْسِهِ : « وَٱلآنَ ، وَقَدْ ذَهَبَ ، فَمَنِ ٱلَّذي يَحْميني مِنْها ؟ » وَقَفَزَتْ إِلى خاطِرِهِ ٱلكَلِماتُ ٱلَّتي قالَها دراكولا لِلْفَتَياتِ الثَّلاثِ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ اللَّيْلاءِ : « وَإِلى أَنْ أُصْبِحَ في غَيْرِ حاجَةٍ إِلَيْهِ . » وَٱلآنَ .. لَقَدْ حانَتْ هٰذِهِ اللَّحْظَةُ .

وَأَخَذَ يُصْغي . في ٱلبِدايَةِ كانَ كُلُّ شَيْءٍ هادِئًا كُلَّ ٱلهُدوءِ . ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ بَدَأَ يَسْمَعُ ضَحِكاتٍ ، ثُمَّ حَفيفَ أَثْوابٍ حَريرِيَّةٍ في ٱلأَرْكانِ ، فَتَجَمَّدَ الدَّمُ في عُروقِهِ ، وَتَأَكَّدَ أَنَّهُ أَصْبَحَ تَحْتَ رَحْمَةِ هٰؤُلاءِ النِّسْوَةِ ، وَفَكَّرَ في نَفْسِهِ : « تُرى هَلْ يُقَدَّرُ لي أَنْ أَرى إِنْجِلْترا ، وَمينا ، مَرَّةً أُخْرى ؟ »

ٱلْقِسْمُ ٱلثّاني

هُويِتْبي

ٱلْفَصْلُ ٱلْخامِسُ

كانَتْ مينا مُوراي تَجْلِسُ في مَقْعَدِها تَتَطَلَّعُ إِلى ٱلبَحْرِ وَقَدْ أَمْسَكَتْ بِرِسالَةٍ في يَدِها . وَكانَتْ صَديقَتُها لُوسي وِسْتِنْرا تَجْلِسُ بِجِوارِها وَهِيَ تَقْرَأُ كِتابًا . وَلَمْ تَكُنْ تَلْحَظُ نَظْرَةَ ٱلقَلَقِ ٱلَّتي في عَيْنَيْ مينا .

كانَتْ مينا فَتاةً جَميلَةً ، وَلٰكِنَّ لُوسي كانَتْ أَكْثَرَ جَمالًا . كانَتْ ذاتَ جَمالٍ فَتّانٍ ، رَشيقَةَ ٱلقَوامِ ، ذاتَ شَعْرٍ طَويلٍ أَشْقَرَ ، وَبَشَرَةٍ صافِيَةٍ مَلْساءَ . وَلِذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ غَريبًا أَنْ يَقَعَ كَثيرٌ مِنَ الشُّبّانِ في غَرامِها ، وَلَوْ أَنَّها لَمْ تَكُنْ تَميلُ حَقًّا إِلّا إِلى ٱثْنَيْنِ فَقَطْ ، أَحَدُهُما طَبيبٌ شابٌّ ماهِرٌ يُدْعَى جاك سيوارْد ، كانَ يَتَوَلَّى ٱلإِشْرافَ عَلى مُسْتَشْفى لِلْمَجانينِ عَلى مَقْرَبَةٍ مِنَ ٱلْمَنْزِلِ ٱلَّذي تُقيمُ فيهِ في مَشارِفِ لَنْدَن . وَٱلآخَرُ يُدْعَى أَرْثَر هُولْموود ، وَهُوَ ٱبْنُ أَحَدِ اللّوردات . وَأَخيرًا ٱسْتَقَرَّ ٱخْتِيارُ لُوسي عَلى آرْثَر ، وَمَعَ أَنَّها كانَتْ تُحِبُّ جاك سيوارْد كَثيرًا فَإِنَّها رَأَتْ أَنَّ ما يَتَّصِفُ بِهِ مِنْ جِدِّيَّةٍ وَوَقارٍ لا يَتَّفِقُ مَعَ ما تَتَّصِفُ هِيَ بِهِ مِنْ حُبٍّ لِلْمَرَحِ وَالدُّعابَةِ . ثُمَّ إِنَّها لَمْ تَشَأْ أَنْ تَقْضِيَ بَقِيَّةَ حَياتِها في دارٍ لِلْمَجانينِ . وَفَوْقَ هٰذا فَإِنَّ آرْثَر هُوَ ٱلَّذي كانَ يَسْتَأْثِرُ بِحُبِّها ٱلحَقيقِيِّ . وَكانَ مِنَ الطَّبيعِيِّ أَنْ يَشْعُرَ الدُّكْتور سيوارد بِٱلحُزْنِ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ يُحِبُّ آرْثَر هُولْموود ، وَلِذٰلِكَ فَقَدِ ٱسْتَقَرَّ رَأْيُهُ في النِّهايَةِ عَلى أَنَّهُ إِذا لَمْ يَكُنْ قَدِ ٱسْتَطاعَ أَنْ يَظْفَرَ بِلُوسي زَوْجَةً لَهُ فَإِنَّهُ ــ عَلى ٱلأَقَلِّ ــ يَسْتَطيعُ أَنْ يَظَلَّ صَديقًا لَها . وَقالَ في نَفْسِهِ : « مَنْ يَدْري ، رُبَّما تَحْتاجُ يَوْمًا ما إِلى صَديقٍ يُحِبُّكَ . »

وَإِذا كانَتْ لُوسي جَميلَةً مُسَلِّيَةً تَفيضُ بِٱلحَيَوِيَّةِ ، فَإِنَّ مينا هِيَ ٱلَّتي كانَتْ تُدَبِّرُ كُلَّ شَيْءٍ دائِمًا . فَهِيَ ٱلَّتي تَوَلَّتْ حَجْزَ ٱلغُرَفِ ٱلَّتي سَوْفَ تُقيمانِ فيها في هُويِتْبي ، وَٱشْتَرَتِ التَّذاكِرَ لِلرِّحْلَةِ ، وَٱتَّخَذَتْ كَذٰلِكَ التَّرْتيباتِ لِأُمِّ لُوسي لِكَيْ تَلْحَقَ بِهِما فيما بَعْدُ ، فَقَدْ كانَتِ السَّيِّدَةُ وِسْتِنْرا ــ والِدَةُ لُوسي ــ مَريضَةً بِٱلقَلْبِ ، وَرَأَتْ مينا أَنَّ قَضاءَ أَيّامٍ عَلى

شاطِئِ الْبَحْرِ قَدْ يَعودُ عَلى صِحَّتِها بِالْخَيْرِ .

كانَتْ هُوِيْتبي مَدينةً مَأْهولَةً ، فَهُناكَ دائِمًا زَوارِقُ لِلصَّيْدِ تَغْدو مِنْها وَتَروحُ . وَطُيورُ الْبَحْرِ الصّاخِبَةُ تُحَلِّقُ ثُمَّ تَنْقَضُّ مِنَ السَّماءِ لِتَلْتَقِطَ الْأَسْماكَ الَّتي يُلْقي بِها الصَّيّادونَ . وَفي النّاحِيَةِ الْجَنوبيَّةِ لِلنَّهْرِ الَّذي يَجْري في وادٍ عَميقٍ مُخْتَرِقًا الْمَدينةَ ، كانَ الْمَرْءُ يَسْتَطيعُ أَنْ يَتَسَلَّقَ إِلى الْكَنيسَةِ الْقَديمَةِ حَيْثُ يَلْتَمِسُ الْهُدوءَ وَالسَّكينةَ ، وَحَيْثُ كانَتْ عِظامُ الْكَثيرينَ مِنَ الْبَحّارَةِ الَّذينَ غَرِقوا في الْبَحْرِ مُلْقاةً في ساحَةِ الْكَنيسَةِ . وَكانَ أَهْلُ الْمَدينَةِ يُحِبّونَ أَنْ يَجْلِسوا عَلى الْمَقاعِدِ الَّتي وُضِعَتْ عَلى طولِ الْمَمارِّ بَيْنَ الْقُبورِ حَيْثُ يَسْتَطيعُ الْمَرْءُ مِنْ ساحَةِ الْكَنيسَةِ أَنْ يُشاهِدَ الْمَدينَةَ كُلَّها ، وَأَنْ يَمْتَدَّ بَصَرُهُ إِلى مَسافَةٍ بَعيدَةٍ فَوْقَ الْبَحْرِ .

وَكَثيرًا ما كانَتْ مينا وَلوسي تَجْلِسانِ هُناكَ تَسْتَمِعانِ إِلى قُدامى الصَّيّادينَ الَّذينَ اعْتَزَلوا الْعَمَلَ ، وَكانوا يَقْضونَ وَقْتَهُمْ بَيْنَ رِوايَةِ الْقِصَصِ ، وَبَيْنَ الِاسْتِمْتاعِ بِالتَّحَدُّثِ إِلى الْفَتَياتِ الْحَسْناواتِ .

قالَتْ مينا وَهِيَ تُقَلِّبُ بَيْنَ أَصابِعِها الْوَرَقَةَ الرَّقيقَةَ الَّتي كُتِبَتْ فيها الرِّسالَةُ : « إِنَّها رِسالَةٌ غَريبَةٌ .. تَمامًا كَالرِّسالَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ . كُلُّ ما يَقولُهُ فيها إِنَّهُ بِخَيْرٍ ، وَإِنَّهُ في طَريقِهِ إِلى الْوَطَنِ . قَطْعًا كانَ يَسْتَطيعُ أَنْ يَكْتُبَ أَكْثَرَ مِنْ هٰذا . إِنَّهُ لَمْ يَخُطَّ كَلِمَةً واحِدَةً عَنْ رِحْلَتِهِ ، أَوْ عَنِ السَّيِّدِ الَّذي يُقيمُ مَعَهُ . الْواقِعُ أَنَّها لَيْسَتْ رِسالَةً وُدِّيَّةً . »

فَضَحِكَتْ لوسي وَقالَتْ : « أَعْتَقِدُ أَنَّ الرِّجالَ لَيْسوا كَالنِّساءِ في كِتابَةِ الرَّسائِلِ ، فَهُمْ يَجِدونَ مَشَقَّةً في تَسْجيلِ مَشاعِرِهِمْ بِالْكِتابَةِ . »

فَرَدَّتْ مينا : « لَعَلَّكِ عَلى حَقٍّ ياعَزيزَتي لوسي ، وَلٰكِنَّني سَأَكونُ مَسْرورَةً أَنْ أَراهُ ثانِيَةً ، وَأَنْ أَتَأَكَّدَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ . لَقَدْ كانَ الْمَفْروضُ أَنْ يَعودَ إِلى لَنْدَن مُنْذُ أُسْبوعَيْنِ . »

لَمْ تَكُنْ مينا سَعيدَةً ، وَالْعُطْلَةُ الَّتي بَدَأَتْ بِدايَةً سارَّةً بِالنِّسْبَةِ لَها انْقَلَبَتْ إِلى تَعاسَةٍ بِسَبَبِ قَلَقِها عَلى جوناثان . لَقَدْ كانَ لَدَيْها إِحْساسٌ — لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُعَبِّرَ عَنْهُ بِالْكَلِماتِ — أَنَّ هُناكَ أُمورًا لا تَسيرُ في مَسارِها الصَّحيحِ ، وَهِيَ تَشْعُرُ أَنَّ الْأُمورَ لَنْ تَعودَ إِلى نِصابِها إِلّا إِذا رَجَعَ جوناثان إِلى الْوَطَنِ . كَذٰلِكَ لَمْ تَكُنْ لوسي عَلى عادَتِها ، وَحينَما رَأَتْها مينا كَذٰلِكَ

قالَتْ لِنَفْسِها : « أَتُراها الْهُمومُ الَّتي أُعاني مِنْها هِيَ الَّتي جَعَلَتْ لوسي قَلِقَةً ؟ أَمْ أَنَّ هُناكَ سَبَبًا آخَرَ ؟ » وَالْحَقيقَةُ أَنَّ لوسي كانَتْ قَدْ بَدَأَتْ تُمارِسُ أَمْرًا لَمْ تُمارِسْهُ مُنْذُ كانَتْ طِفْلَةً صَغيرَةً ؛ بَدَأَتْ تَمْشي في أَثْناءِ نَوْمِها . وَفي أَثْناءِ اللَّيْلَتَيْنِ الْماضِيَتَيْنِ كانَتْ مينا تَسْتَيْقِظُ مِنْ نَوْمِها فَتَجِدُ صَديقَتَها تَمْشي حَوْلَ الْحُجْرَةِ عَلى غَيْرِ هُدًى ، كَأَنَّها تُريدُ شَيْئًا وَلٰكِنَّها لا تَدْري ما هُوَ . أَوْ رُبَّما كانَ الطَّقْسُ هُوَ السَّبَبَ ، فَطَوالَ الْيَوْمِ كانَ الْجَوُّ يَبْدو وَكَأَنَّما يُنْذِرُ بِعاصِفَةٍ شَديدَةٍ ، وَكانَ الْهَواءُ ساخِنًا مُثْقَلًا بِالسُّحُبِ ، وَالضَّبابُ يَكادُ يَحْجُبُ الشَّمْسَ .

وَقَضَتِ الْفَتاتانِ فَتْرَةَ ما بَعْدَ الظُّهْرِ في هُدوءٍ ، ثُمَّ خَرَجَتا تَتَمَشَّيانِ نَحْوَ ساحَةِ الْكَنيسَةِ ثانِيَةً . وَحينَما اجْتازَتا الْجِسْرَ الَّذي يَقَعُ في وَسَطِ الْمَدينَةِ كانَتا تَرَيانِ زَوارِقَ الصَّيْدِ وَهِيَ آتِيَةٌ . وَمَعَ أَنَّ الرّيحَ لَمْ تَكُنْ شَديدَةً ، وَالْبَحْرَ لَمْ يَكُنْ هائِجًا فَإِنَّ الصَّيّادينَ كانوا يَتَوَقَّعونَ طَقْسًا سَيِّئًا ، وَلَمْ يَشاءوا أَنْ يُبْحِروا خَشْيَةَ أَنْ تَدْهَمَهُمُ الْعاصِفَةُ .

عِنْدَما وَصَلَتِ الْفَتاتانِ إِلى الْكَنيسَةِ وَجَدَتا أَنَّ أَحَدَ أَصْدِقائِهِما الصَّيّادينَ الْمُسِنّينَ يَجْلِسُ عَلى مَقْعَدِهِما الْمُفَضَّلِ يَتَطَلَّعُ إِلى الْبَحْرِ . كانَ هٰذا الصَّيّادُ هُوَ السَّيِّدُ سْويلز ، الشَّيْخُ الَّذي كانَ يَزْعُمُ أَنَّ عُمْرَهُ قارَبَ الْمِئَةَ عامٍ ، وَلَوْ أَنَّهُ كانَ مِنَ الصَّعْبِ تَصْديقُ مِثْلِ هٰذا الزَّعْمِ . وَسَأَلَتْهُ لوسي وَهِيَ تَجْلِسُ بِجانِبِهِ : « أَتَظُنُّ أَنَّ عاصِفَةً سَتَهُبُّ ياسَيِّدُ سْويلز ؟ »

فَأَجابَ الْبَحّارُ الشَّيْخُ : « نَعَمْ ياعَزيزَتي ، وَهُوَ أَمْرٌ غَريبٌ ، لِأَنَّ هٰذا الْوَقْتَ مِنَ السَّنَةِ لَيْسَ وَقْتَ عَواصِفَ ، أَنا ما رَأَيْتُ طَقْسًا كَهٰذا قَطُّ . وَمَعَ هٰذا فَإِنَّ الطَّقْسَ لَيْسَ هُوَ الشَّيْءَ الْغَريبَ الْوَحيدَ في هٰذِهِ الْأَيّامِ . »

قالَ هٰذا وَهُوَ يُشيرُ إِلى الْبَحْرِ ، ثُمَّ أَضافَ : « اُنْظُرا إِلى السَّفينَةِ . »

وَتَطَلَّعَتِ الْفَتاتانِ فَشاهَدَتا سَفينَةً شِراعِيَّةً لَيْسَتْ كَبيرَةَ الْحَجْمِ عَلى بُعْدِ حَوالَى كيلومِتْرٍ مِنَ الشّاطِئِ .

وَقالَتْ لوسي : « عَفْوًا ياسَيِّدُ سْويلز إِنَّنا كَما تَرى — لَسْنا مِنَ الْبَحّارَةِ ، وَالسَّفينَةُ تَبْدو لَنا عادِيَّةً جِدًّا ، تُرى هَلِ الْعَلَمُ الَّذي تَرْفَعُهُ هُوَ الْعَلَمُ الرّوسِيُّ ؟ »



فَأَجابَ ٱلبَحّارُ ٱلشَّيْخُ : « نَعَمْ ، إِنَّها سَفينَةٌ روسِيَّةٌ .. هٰذا صَحيحٌ ، وَلٰكِنْ لَيْسَ هٰذا هُوَ ٱلمُهِمّ ؛ إِنَّها سَفينَةٌ عادِيَّةٌ ما في ذٰلِكَ شَكٌّ ، وَلٰكِنَّ ٱلأَمْرَ ٱلشّاذَّ هُوَ أَنَّها مُسَيَّرَةٌ بِطَريقَةٍ غَيْرِ عادِيَّةٍ . فَهُناكَ رَجُلٌ عِنْدَ عَجَلَةِ ٱلقِيادَةِ ، وَلٰكِنَّ ٱلسَّفينَةَ تَتَحَرَّكُ عَلى غَيْرِ هُدًى ، كَأَنَّما ٱلرَّجُلُ لا يَدْري أَيْنَ يُوَجِّهُها . ٱنْظُرا ! إِنَّها تَمْضي ثانِيَةً . إِنَّها تَتَحَرَّكُ حَيْثُما تَدْفَعُها ٱلرّيحُ . إِنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلَّذي يَقِفُ عَلى عَجَلَةِ ٱلقِيادَةِ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَحْزِمَ أَمْرَهُ ، أَيَأْتي إِلى هُويتْبي أَمْ يَسْتَديرُ إِلى ٱلبَحْرِ وَيُواجِهُ ٱلعاصِفَةَ . وَلٰكِنْ إِذا لَمْ يَحْزِمْ أَمْرَهُ عَلى عَجَلٍ فَسَوْفَ تَرْتَطِمُ ٱلسَّفينَةُ بِالصُّخورِ . »

الفَصْلُ ٱلسّادِسُ

عِنْدَما ثارَتِ ٱلعاصِفَةُ كانَتْ هَوْجاءَ عَلى غَيْرِ ٱلعادَةِ ؛ فَقَبْلَ ٱلسّاعَةِ ٱلثّامِنَةِ مَساءً بِقَليلٍ هَبَّتِ ٱلرّيحُ . وَما إِنْ حَلَّتِ ٱلسّاعَةُ ٱلعاشِرَةُ حَتّى أَخَذَتِ ٱلأَشْجارُ تَتَمايَلُ بِعُنْفٍ ، وَسُطوحُ ٱلمَنازِلِ تَتَطايَرُ ، وَٱلأَمْواجُ ٱلعاتِيَةُ تَتَكَسَّرُ فَوْقَ ٱلسّورِ ٱلبَحْرِيِّ ٱلَّذي يَحْمي مَرْسى زَوارِقِ ٱلصَّيْدِ . لَقَدْ كانَتْ عاصِفَةً مِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ ٱلَّذي لا يَتَكَرَّرُ حُدوثُهُ إِلّا مَرَّةً واحِدَةً كُلَّ خَمْسينَ عامًا ، وَٱلَّذي يَرْوي عَنْهُ ٱلأَجْدادُ لِلْأَحْفادِ .

وَمِنْ حُسْنِ ٱلحَظِّ أَنَّ مُعْظَمَ ٱلزَّوارِقِ كانَتْ قَدْ عادَتْ إِلى هُويتْبي بَعْدَ ٱلظُّهْرِ ، أَمّا ٱلقِلَّةُ ٱلَّتي تَأَخَّرَتْ في ٱلعَوْدَةِ فَقَدْ لَقِيَتْ بَعْضَ ٱلمَشَقَّةِ في ٱلدُّخولِ . وَعِنْدَما وَصَلَ آخِرُ زَوْرَقٍ مِنْ زَوارِقِ هُويتْبي كانَتِ ٱلجَماهيرُ ٱلَّتي تَجَمَّعَتْ لِلْمُراقَبَةِ قَدْ عادَتْ إِلى بُيوتِها ، فيما عَدا ٱلقَليلينَ ٱلَّذينَ ٱسْتَثارَهُمُ ٱلمَوْقِفُ فَفَضَّلوا ٱلبَقاءَ عَلى ٱلنَّوْمِ ، لَعَلَّ بَعْضَ ٱلقَوارِبِ تَأْتي بَعْدَ ذٰلِكَ . وَلٰكِنَّ ٱلَّذي أَتى كانَ شَيْئًا آخَرَ .

لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ في أَوَّلِ ٱلأَمْرِ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ يَنْبَعِثُ مِنْهُ أَيُّ ضَوْءٍ ، وَمِنْ ثَمَّ كانَ ظُهورُهُ مُفاجَأَةً مُفْزِعَةً تَمامًا . فَبَيْنَما لَمْ يَكُنْ هُناكَ في دَقيقَةٍ مِنَ ٱلدَّقائِقِ شَيْءٌ عَلى ٱلإِطْلاقِ ، فَإِذا هُناكَ في ٱلدَّقيقَةِ ٱلتّالِيَةِ سَفينَةٌ رَفَعَتْ جَميعَ أَشْرِعَتِها ، وَٱلرّيحُ تَدْفَعُها مِنَ ٱلخَلْفِ . وَعِنْدَما مَرَّتْ مِنْ خِلالِ ٱلفَتْحَةِ ٱلَّتي في ٱلسّورِ ٱلبَحْرِيِّ تَبَيَّنَ أَنَّها ٱلسَّفينَةُ ٱلرّوسِيَّةُ ٱلَّتي جَذَبَتِ ٱهْتِمامَ ٱلسَّيِّدِ سْوِيلْز .

لِماذا قَضى ٱلرُّبّانُ هٰذا ٱلوَقْتَ ٱلطَّويلَ لِكَيْ يَتَّخِذَ قَرارَهُ بِالرُّسُوِّ في هُويتْبي ؟ وَأَيُّ نَوْعٍ مِنَ ٱلرَّبابِنَةِ هٰذا ٱلَّذي يُبْحِرُ بِغَيْرِ ضَوْءٍ ، وَفي لَيْلَةٍ عاصِفَةٍ مِثْلِ هٰذِهِ ٱللَّيْلَةِ ؟

وَعِنْدَما أَصْبَحَتِ ٱلسَّفينَةُ أَقْرَبَ شاهَدَ ٱلمُحْتَشِدونَ عَلى ٱلشّاطِئِ ، رَجُلًا بِجِوارِ عَجَلَةِ ٱلقِيادَةِ فَتَصايَحوا وَأَخَذوا يُلَوِّحونَ بِالتَّحِيَّةِ ، وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ جَوابٌ . وَحينَما صارَتْ أَكْثَرَ قُرْبًا بَدَأَ واحِدٌ مِنْهُم يَتَوَقَّفُ عَنِ ٱلصِّياحِ ، ثُمَّ تَلاهُ آخَرُ .. وَخَيَّمَ سُكونٌ . كانَ ٱلرَّجُلُ مُقَيَّدًا إِلى ٱلعَجَلَةِ ، وَكانَ يُحَدِّقُ نَحْوَهُمْ بِعَيْنَيْنِ لا تُبْصِرانِ . وَتَكَشَّفَ ٱلأَمْرُ ، فَالسَّفينَةُ قَدْ شَقَّتْ أَعْتى ٱلأَمْواجِ وَدَخَلَتِ ٱلمَرْفَأَ بِقِيادَةِ رَجُلٍ مَيِّتٍ .

وَتحرَّكَتِ السَّفينةُ نَحْوَ ٱلجِسْرِ ، وَأَخذَ ٱلرُّكّابُ ٱلقليلُونَ ٱلَّذين كانُوا يقِفون فَوْقَ ظَهْرِها يَجْرون طَلَبًا لِلنَّجاةِ . وَلَوْ أَنَّ السَّفينةَ ٱسْتَمرَّتْ في سَيْرِها لَحَطَّمَتِ ٱلجِسْرَ وَحَمَلَتْهُ بَعيدًا . وَلٰكِنَّها لَمْ تَسْتَمِرَّ ، فَقَدْ حَدَثَ في آخِرِ لَحْظَةٍ أَنْ تَغَيَّرَ مَجْرى ٱلرِّيحِ فَدَفَعَتِ السَّفينةَ نَحْوَ الشّاطِئِ الرَّمْليِّ ٱلجَنوبيِّ لِلنَّهْرِ . وَكانَتِ الدَّفْعةُ قَوِيَّةً حَتّى إِنَّ ٱلأَشْرِعَةَ وَٱلحِبالَ وَقِطَعَ ٱلخَشَبِ هَوَتْ بِشِدَّةٍ مُحْدِثَةً دَوِيًّا عاليًا . وَحينَئِذٍ ، وَبَيْنَما كانَ ٱلحَشْدُ ٱلَّذي عَلَى الشّاطِئِ ٱلمُقابِلِ يُراقِبُ ما يَحْدُثُ ، إِذا بِكَلْبٍ ضَخْمٍ أَسْوَدَ يَنْدَفِعُ فَجْأَةً مِنْ وَسَطِ السَّفينةِ ، كَما لَوْ كانَتْ قُوَّةُ الصَّدْمةِ ٱلَّتي جَعَلَتِ السَّفينةَ تَرْتَطِمُ بِٱلأَرْضِ هِيَ ٱلَّتي دَفَعَتْهُ . وَقَفَزَ ٱلكَلْبُ عاليًا فَوْقَ الرِّجالِ ، ثُمَّ أَخَذَ يَعْدُو مُتَّجِهًا إِلى الشَّوارِعِ الضَّيِّقةِ ٱلَّتي تَعْلُوها ٱلكَنيسةُ .

وَفي الصَّباحِ التّالي كانَتِ ٱلعاصِفةُ قَدْ هَدَأَتْ ، وَبَكَّرَتْ مِينا بِٱلخُروجِ إِلى ٱلمَدينةِ حَتّى قَبْلَ أَنْ تَتَناوَلَ ٱلإِفْطارَ . وَقَدْ شَجَّعَها عَلى هٰذا ٱلبُكورِ أَنَّ الشَّمْسَ مُشْرِقةٌ ، وَالسَّماءَ زَرْقاءُ صافِيةٌ ، ثُمَّ أَخْبارُ هٰذا ٱلوُصولِ ٱلغَريبِ لِلسَّفينةِ الرُّوسِيَّةِ في اللَّيْلةِ ٱلماضِيةِ . وَلَمْ تَكُنْ لُوسي قَدْ نامَتْ في اللَّيْلِ نَوْمًا هادِئًا ، وَلِذٰلِكَ رَأَتْ مِينا أَنَّهُ خَيْرٌ لَها أَنْ تَتْرُكَها في فِراشِها .

كانَتِ ٱلمَدينةُ كُلُّها تَتَحَدَّثُ عَنِ السَّفينةِ الرُّوسِيَّةِ ، وَسَرْعانَ ما عَرَفَتْ مِينا كُلَّ شَيْءٍ مِنَ السَّيِّدِ سْوِيلْز . عَرَفَتْ أَنَّ الطَّبيبَ ٱلَّذي فَحَصَ جُثَّةَ رُبّانِ السَّفينةِ يَرى أَنَّ ٱلوَفاةَ حَدَثَتْ مُنْذُ أَيّامٍ ، وَأَنَّ الرُّبّانَ هُوَ ٱلَّذي قَيَّدَ نَفْسَهُ إِلى ٱلعَجَلةِ ، وَأَنَّ ٱلحَبْلَ ٱلَّذي قَيَّدَ نَفْسَهُ بِهِ قَدْ شَقَّ جِلْدَهُ وَتَغَلْغَلَ حَتّى ٱلعَظْمِ . وَيَبْدو أَنَّ السَّفينةَ دِيمِيتِر لَمْ تَتَّخِذْ طَريقَها إِلى هُوِيتْبي مُصادَفةً ، فَقَدْ كانَ أَحَدُ تُجّارِ ٱلمَدينةِ يَتَوَقَّعُ وُصولَها ؛ إِذْ كانَ قَدْ تَلَقّى تَفْويضًا بِتَسَلُّمِ صَناديقَ خَشَبِيَّةٍ مُعَيَّنةٍ تَحْمِلُها السَّفينةُ ، عَلى أَنْ يَشْحَنَها بَعْدَ ذٰلِكَ إِلى لَنْدَن بِٱلقِطارِ .

أَمّا ٱلكَلْبُ ٱلأَسْوَدُ فَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ بَعْدَ ذٰلِكَ ، وَكانَ مِنَ ٱلغَريبِ أَنَّ حَيَوانًا ضَخْمًا مِثْلَ هٰذا يُمْكِنُ أَنْ يَخْتَفِيَ نِهائِيًّا . وَلٰكِنَّ مَدينةَ هُوِيتْبي كانَتْ أَكْثَرَ أَمْنًا بِدُونِهِ . وَقَدْ عَثَرَ ٱلأَهالي عَلى كَلْبٍ قَوِيٍّ ضَخْمٍ مِنْ كِلابِ ٱلمَدينةِ مَيِّتًا وَقَدْ مُزِّقَ نِصْفُ عُنُقِهِ تَمْزيقًا . وَسادَ ٱلاعْتِقادُ أَنَّ كَلْبَ السَّفينةِ دِيمِيتِر هُوَ ٱلَّذي فَعَلَ بِهِ هٰذا .

عادَتْ مِينا إِلى ٱلمَنْزِلِ ، وَأَنْبَأَتْ لُوسي في أَثْناءِ تَناوُلِ ٱلإِفْطارِ ما عَرَفَتْهُ مِنْ أَخْبارٍ . وَمَعَ أَنَّ لُوسي أَبْدَتِ ٱهْتِمامًا بِما سَمِعَتْ فَإِنَّ مِينا لَمْ يَرُقْها حالُها ، فَقَدْ كانَتْ تَبْدُو في وَجْهِها نَظْرَةٌ ناعِسةٌ حالِمةٌ . وَرَأَتْ مِينا أَنَّها في حاجةٍ إِلى ٱسْتِنْشاقِ ٱلهَواءِ النَّقِيِّ ، فَأَخَذَتْها لِتَقْضِيَ ٱليَوْمَ مَعَها خارِجَ ٱلمَنْزِلِ . وَحينَما رَجَعَتا في ٱلمَساءِ عَرَفَتا مَزيدًا مِنَ ٱلأَخْبارِ عَنِ السَّفينةِ دِيمِيتِر مِمّا نَشَرَتْهُ صُحُفُ ٱلمَساءِ . فَقَدْ عَثَروا عَلى السِّجِلِّ ٱلَّذي يُدَوِّنُ فيهِ رُبّانُ السَّفينةِ مُلاحَظاتِهِ ٱليَوْمِيَّةَ عَنِ الرِّحْلةِ وَٱسْتَطاعَ أَحَدُ رَبابِنةِ هُوِيتْبي ٱلقُدامى مِمَّنْ يَعْرِفُونَ اللُّغةَ الرُّوسِيَّةَ أَنْ يُتَرْجِمَ ما فيهِ إِلى ٱلإِنْجِليزِيَّةِ . وَهٰذا ما قَرَأَتْهُ مِينا وَلُوسي في صَحيفةِ هُوِيتْبي بوسْت ٱلمَسائِيَّةِ :

« أَبْحَرَتِ السَّفينةُ دِيمِيتِر مِنْ قارَّتِنا ٱلَّتي تَقَعُ عَلى ٱلبَحْرِ ٱلأَسْوَدِ وَعَلى ظَهْرِها رُبّانٌ وَضابِطانِ وَخَمْسةٌ مِنَ ٱلبَحّارةِ وَطاهٍ . وَفي ٱلبِدايةِ كانَ كُلُّ شَيْءٍ يَسيرُ سَيْرًا حَسَنًا ، وَلٰكِنْ بَعْدَ ٱنْقِضاءِ نَحْوِ أُسْبوعٍ لاحَظَ الرُّبّانُ أَنَّ رِجالَهُ يَبْدو عَلَيْهِمُ ٱلقَلَقُ وَٱلانْزِعاجُ . وَحاوَلَ الضّابِطُ ٱلأَوَّلُ أَنْ يَهْتَدِيَ إِلى السَّبَبِ ، فَلَمّا ٱسْتَمَعَ إِلَيْهِمُ ٱعْتَقَدَ أَنَّ ما يَتَحَدَّثونَ بِهِ هُراءٌ ، بَلْ إِنَّهُ قابَلَهُ بِغَضَبٍ . وَبَعْدَ مُضِيِّ يَوْمَيْنِ عَلى هٰذا ٱخْتَفى أَحَدُ الرِّجالِ ، وَكانَ قَدِ ٱنْتَهى مِنْ نَوْبةِ ٱلمُراقَبةِ ٱلَّتي يَقومُ بِها . وَشوهِدَ يُغادِرُ مَكانَهُ لِيَهْبِطَ مِنْ سَطْحِ السَّفينةِ إِلى مَخْدَعِهِ . وَلٰكِنَّهُ في ٱلحَقيقةِ لَمْ يَذْهَبْ إِلى سَريرِهِ قَطُّ . وَشاعَ بَيْنَ الرِّجالِ جَميعًا أَنَّ هُناكَ أَمْرًا غَيْرَ طَبيعِيٍّ في السَّفينةِ . وَبَعْدَ مُضِيِّ يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ رَوى أَحَدُ الرِّجالِ لِلرُّبّانِ أَنَّهُ بَيْنَما كانَ في نَوْبَتِهِ لِلْمُراقَبةِ في اللَّيْلةِ ٱلماضِيةِ شاهَدَ رَجُلًا غَريبًا يَصْعَدُ إِلى ظَهْرِ السَّفينةِ وَيَمْشي مُتَّجِهًا إِلى ٱلجُزْءِ ٱلخَلْفِيِّ مِنْها ، وَهُناكَ ٱخْتَفى تَمامًا .

« وَحينَئِذٍ أَمَرَ الرُّبّانُ بِتَفْتيشِ السَّفينةِ كُلِّها ، وَكانَتْ جَميعُ الصَّناديقِ ٱلَّتي في ٱلقاعِ مُحْكَمةَ ٱلإِغْلاقِ بِحَيْثُ لا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ — إِنْ كانَ مُخْتَبِئًا فيها — أَنْ يَخْرُجَ مِنْها عَلى ٱلإِطْلاقِ . وَكانَتِ ٱلأَرْبِطةُ بَيْنَها مُحْكَمةً بِحَيْثُ لا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ أَنْ يَخْتَبِئَ فيما بَيْنَها . وَلَمْ يُسْفِرِ ٱلبَحْثُ عَنْ وُجودِ أَحَدٍ ، وَلِذٰلِكَ عادَتْ إِلى رِجالِ السَّفينةِ الطُّمَأْنينةُ ، وَلَمْ يَحْدُثْ ما يُعَكِّرُ صَفْوَهُمْ ، إِلى أَنْ واجَهوا جَوًّا عاصِفًا في خَليجِ بِسْكاي . هُناكَ فُقِدَ رَجُلٌ

آخَرُ مِنَ ٱلبَحّارةِ ، وَبَعْدَ ذٰلِكَ فُقِدَ ٱثْنانِ آخَرانِ ، وَكانَ ٱخْتِفاؤُهُمْ جَميعًا يَتِمُّ بِنَفْسِ ٱلطَّريقَةِ ٱلَّتي حَدَثَتْ مَعَ ٱلأَوَّلِ . وَكانَتْ نَتيجَةُ ذٰلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَرْضَ أَحَدٌ بَعْدَ ذٰلِكَ بِٱلمُراقَبَةِ وَحْدَهُ .

وَعِنْدَما بَلَغوا ٱلقَنالَ ٱلإِنْكليزيَّ ٱسْتَمَرَّ ٱلجَوُّ ٱلعاصِفُ ، وَٱسْتَمَرَّ ٱخْتِفاءُ ٱلرِّجالِ حَتّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمُ ٱلعَدَدُ ٱلكافي لِرَفْعِ أَشْرِعَةِ ٱلسَّفينَةِ وَإِنْزالِها . وَفي ٱلنِّهايَةِ لَمْ يَكُنْ باقِيًا عَلى ظَهْرِ ٱلسَّفينَةِ إِلّا ٱلرُّبّانُ ، وَٱلضّابِطُ ٱلأَوَّلُ .

« وَإِلى هُنا كانَ مِنَ ٱلصَّعْبِ قِراءَةُ ٱلمُلاحَظاتِ ٱلمُدَوَّنَةِ بِٱلسِّجِلِّ ، وَلٰكِن يَبْدو أَنَّ ٱلضّابِطَ ٱلأَوَّلَ جُنَّ جُنونُهُ فَراحَ يَفْتَحُ ٱلصَّناديقَ ٱلَّتي في قاعِ ٱلسَّفينَةِ . وَلَمْ يَكَدْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ حَتّى صاحَ صَيْحَةً ثُمَّ جَرى إِلى ظَهْرِ ٱلسَّفينَةِ وَقَفَزَ إِلى أَعْماقِ ٱلبَحْرِ . وَبَعْدَ هٰذا أَصْبَحَتْ كَلِماتُ ٱلسِّجِلِّ مُسْتَعْصِيَةً عَلى ٱلقِراءَةِ . »

وَفي ٱليَوْمِ ٱلتّالي شُيِّعَتْ جِنازَةُ رُبّانِ ٱلسَّفينَةِ ٱلَّذي ٱعْتَقَدَ صَيّادو هُويتْبي أَنَّهُ كانَ بَحّارًا شُجاعًا ، وَأَنَّهُ أَدّى واجِبَهُ خَيْرَ ما يَكونُ ٱلأَداءُ . وَقَدْ سارَ في جِنازَتِهِ جَمْعٌ غَفيرٌ مِنَ ٱلنّاسِ ، وَسارَتْ مَعَهُمْ مِينا وَلُوسي ، وَلٰكِنَّ مِينا ــ بَعْدَ ذٰلِكَ ــ تَمَنَّتْ لَوْ أَنَّها لَمْ تَكُنْ صَحِبَتْ مَعَها لُوسي ، وَذٰلِكَ لِأَنَّهُما سَمِعَتا في ٱلجِنازَةِ أَخْبارًا سَيِّئَةً .

كانَتا تَتَوَقَّعانِ أَنْ تَرَيا صَديقَهُما ٱلمُسِنَّ ٱلسَّيِّدَ سْويلز . لَمْ يَكُنْ هُناكَ وَجاءَ إِلَيْهِما أَحَدُ رِفاقِهِ ٱلصَّيّادينَ ٱلمُسِنّينَ وَأَخْبَرَهُما أَنَّ ٱلسَّيِّدَ سْويلز قَدْ وُجِدَ مَيِّتًا وَهُوَ جالِسٌ عَلى مَقْعَدِهِ ٱلمُعْتادِ في ساحَةِ ٱلكَنيسَةِ ، وَٱلسَّبَبُ أَزْمَةٌ قَلْبِيَّةٌ . صَحيحٌ أَنَّ ٱلرَّجُلَ كانَ شَيْخًا كَبيرًا ، وَلٰكِنَّ مِينا كانَتْ تَرى أَنَّهُ في غايَةِ ٱلقُوَّةِ . وَقَدْ قَرَّرَ ٱلطَّبيبُ ٱلَّذي فَحَصَهُ أَنَّهُ يَبْدو مِنَ ٱلنَّظْرَةِ ٱلَّتي كانَتْ في عَيْنَيْهِ أَنَّ شَيْئًا مّا قَدْ أَفْزَعَهُ . وَلٰكِنْ ما ٱلَّذي يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ في ساحَةِ ٱلكَنيسَةِ ٱلهادِئَةِ هٰذِهِ لِكَيْ يُفْزِعَ رَجُلًا مُسِنًّا فَيَقْضي عَلَيْهِ ؟!

ٱلفَصْلُ ٱلسّابِعُ

في هٰذِهِ ٱللَّيْلَةِ ٱسْتَيْقَظَتْ مِينا مِنْ نَوْمِها وَقَدِ ٱنْتابَها شُعورٌ غَريبٌ . كانَ هُناكَ فَراغٌ في ٱلحُجْرَةِ ، وَحَتّى قَبْلَ أَنْ تَنْهَضَ مِنْ فِراشِها وَتَنْظُرَ ، كانَتْ تُحِسُّ أَنَّ لُوسي لَيْسَتْ بِٱلحُجْرَةِ . ٱتَّجَهَتْ إِلى ٱلبابِ فَوَجَدَتْهُ مُغْلَقًا وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُوصَدًا بِٱلمِزْلاجِ كَما تَرَكَتْهُ . ٱرْتَدَتْ مِعْطَفًا وَحِذاءً ، وَسارَعَتْ بِٱلنُّزولِ إِلى ٱلقاعَةِ ٱلسُّفْلى ، فَإِذا بِها تَجِدُ ٱلبابَ ٱلأَمامِيَّ لِلْمَنْزِلِ نِصْفَ مَفْتوحٍ ، فَتَأَكَّدَتْ أَنَّ لُوسي لابُدَّ قَدْ خَرَجَتْ . وَلَمْ تَكُنْ لَدى مِينا فِكْرَةٌ واضِحَةٌ عَنِ ٱلمَكانِ ٱلَّذي قَصَدَتْهُ . وَلٰكِنَّها ما كادَتْ تَخْطو خارِجَ ٱلمَنْزِلِ حَتّى سَمِعَتِ ٱلسّاعَةَ تَدُقُّ ٱلواحِدَةَ . لَقَدْ كانَتْ ساعَةُ ٱلكَنيسَةِ مِمّا جَعَلَ فِكْرَها يَنْساقُ إِلى هُناكَ . لَقَدْ كانَتا تَذْهَبانِ إِلى ساحَتِها كُلَّ يَوْمٍ تَقْريبًا ، فَلَعَلَّ لُوسي قادَتْها قَدَماها إِلى هُناكَ وَهِيَ نائِمَةٌ .

كانَتِ ٱللَّيْلَةُ حالِكَةَ ٱلظَّلامِ ، وَلٰكِن كانَ هُناكَ ضَوْءٌ فُجائِيٌّ يَنْبَعِثُ بَيْنَ ٱلحينِ وَٱلحينِ كُلَّما دَفَعَتِ ٱلرّيحُ تَجَمُّعاتِ ٱلسُّحُبِ ٱلمُتَكَسِّرَةِ لِتَجْتازَ وَجْهَ ٱلقَمَرِ . وَحينَما وَصَلَتْ مِينا إِلى طَرَفِ ساحَةِ ٱلكَنيسَةِ كانَ هُناكَ مِنَ ٱلظَّلامِ أَكْثَرَ مِمّا كانَ مِنَ ٱلضَّوْءِ . وَلٰكِنْ ، في هٰذِهِ ٱللَّحْظَةِ ذاتِها ٱنْبَعَثَ ضَوْءُ ٱلقَمَرِ ٱلسّاطِعُ ، وَتَمَلَّكَتْها ٱلفَرْحَةُ حينَ رَأَتْ صَديقَتَها مُضْطَجِعَةً فَوْقَ مَقْعَدِها ٱلمُعْتادِ ، ٱلمَقْعَدِ نَفْسِهِ ٱلَّذي ماتَ فَوْقَهُ ٱلسَّيِّدُ سْويلز ٱلمِسْكينُ . وَفي نَفْسِ ٱللَّحْظَةِ تَقْريبًا جاءَتِ ٱلسَّحابَةُ ٱلتّالِيَةُ لِتُغَطِّيَ ٱلقَمَرَ ثانِيَةً ، وَلٰكِنَّ مِينا ٱعْتَراها إِحْساسٌ ــ في خِلالِ ٱللَّحْظَةِ ٱلَّتي ٱنْبَعَثَ فيها ضَوْءُ ٱلقَمَرِ ــ أَنَّ لُوسي لَمْ تَكُنْ وَحْدَها ، فَلَقَدْ شاهَدَتْ في ظِلِّ ٱلمَقْبَرَةِ ٱلكائِنَةِ خَلْفَ ٱلمَقْعَدِ شَكْلًا مّا ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُحَدِّدَ ما إِذا كانَ شَكْلَ إِنْسانٍ أَوْ حَيَوانٍ . وَلٰكِنْ هُناكَ شَيْءٌ طَويلٌ يَجْثُمُ فَوْقَ جِسْمِ لُوسي .

وَصاحَتْ مِينا : « لُوسي ! لُوسي ! »

ثُمَّ جَرَتْ نَحْوَها ، وَلٰكِنْ عِنْدَما وَصَلَتْ إِلى ٱلمَقْعَدِ كانَتْ لُوسي وَحْدَها . كانَتْ لا تَزالُ نِصْفَ مُضْطَجِعَةٍ ، وَرَأْسُها فَوْقَ ظَهْرِ ٱلمَقْعَدِ ، أَمّا عُنُقُها فَكانَ مَكْشوفًا . وَتَوَقَّفَتْ

مِينا وَهِيَ تَسْأَلُ نَفْسَها : « تُرَى ، أَلُوسِي الَّتِي تَحْلُمُ ، أَمْ إِنَّنِي أَنا الحالِمةُ ؟ إِنَّ ضَوْءَ القَمَرِ — عادَةً — يَجْعَلُ الْمَرْءَ يَتَصَوَّرُ أَشْياءَ غَيْرَ مَوْجودةٍ ، وَمَعَ هٰذا فَإِنَّنِي أُحِسُّ إِحْساسًا أَكيدًا أَنَّهُ كانَ مَعَها شَيْءٌ مَا ، أَوْ شَخْصٌ مَّا . »

كانَتْ لُوسِي مُسْتَغْرِقَةً في نَوْمٍ عَميقٍ ، وَلٰكِنَّها كانَتْ تَتَنَفَّسُ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ طَبيعِيَّةٍ تَنَفُّسًا سَريعًا مُضْطَرِبًا . وَجَلَسَتْ مِينا عَلَى الْمَقْعَدِ بِجِوارِها لَحَظاتٍ وَهِيَ حَيْرَى ؛ ماذا تَفْعَلُ بَعْدَ هٰذا ؟ قَدْ يَكونُ مِنَ الخَطَرِ أَنْ تُوقِظَها دَفْعَةً واحِدَةً ، وَلٰكِنْ — في نَفْسِ الوَقْتِ — قَدْ تُصابُ بِالبَرْدِ إِذا تُرِكَتْ عَلَى حالِها هٰذِهِ فَتْرَةً طَويلَةً . خَلَعَتْ مِينا مِعْطَفَها وَطَوَّقَتْها بِهِ ، وَفي أَثْناءِ ذٰلِكَ سَقَطَ الزِّرُّ العُلْوِيُّ مِنَ الْمِعْطَفِ ، فَأَخَذَتِ الْمِشْبَكَ الْمُرَصَّعَ الَّذي كانَتْ تَلْبَسُهُ ثُمَّ شَبَكَتْ بِهِ الفُتْحَةَ مِنْ ناحِيَةِ عُنُقِها . وَيَبْدو أَنَّ الْمِشْبَكَ انْغَرَزَ في جِلْدِها ، إِذْ إِنَّ لُوسِي صَرَخَتْ صَرْخَةَ أَلَمٍ وَوَضَعَتْ يَدَها عَلَى عُنُقِها . ثُمَّ خَلَعَتْ مِينا حِذاءَها وَوَضَعَتْهُ في قَدَمَي لُوسِي ، وَساعَدَتْها عَلَى الْمَشْيِ بِبُطْءٍ . وَشَيْئًا فَشَيْئًا عادَتْ إِلَيْها الحَياةُ مِنْ جَديدٍ ، وَعادَتا إِلَى الْمَنْزِلِ حَيْثُ كانَتِ الشَّوارِعُ خالِيَةً .

وَفي صَبيحَةِ اليَوْمِ التّالي تَرَكَتْ مِينا صَديقَتَها تَنامُ حَتّى وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ ، وَحِينَما اسْتَيْقَظَتْ ، كانَ يَبْدو عَلَى وَجْهِها الشُّحوبُ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تُصَبْ بِالبَرْدِ . أَمّا العاقِبَةُ السَّيِّئَةُ الَّتي خَرَجَتْ بِها مِنْ تَجْرِبَةِ اللَّيْلَةِ الْماضِيَةِ فَهِيَ بُقْعَتانِ صَغيرَتانِ حَمْراوانِ في عُنُقِها . وَأَخَذَتْ مِينا تَلومُ نَفْسَها إِذْ لَمْ تَكُنْ حَريصَةً حِينَما اسْتَخْدَمَتِ الْمِشْبَكَ ، وَلٰكِنَّ لُوسِي طَمْأَنَتْها وَقالَتْ إِنَّها لا تُحِسُّ بِأَلَمٍ فيهِما ، وَكانَ يَبْدو عَلَيْها أَنَّها لا تَرْغَبُ في الخَوْضِ في هٰذا الْمَوْضوعِ .

في تِلْكَ اللَّيْلَةِ كانَتْ مِينا تَأْمُلُ أَنْ تَنامَ لُوسِي نَوْمًا أَهْدَأَ مِمّا كانَ في اللَّيْلَةِ الْماضِيَةِ ، وَلٰكِنَّ الأَمْرَ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ . فَحِينَما حانَ وَقْتُ النَّوْمِ ، لَمْ تَكْتَفِ مِينا بِإِيصادِ البابِ بِالْمِفْتاحِ فَحَسْبُ ، بَلْ إِنَّها أَخَذَتِ الْمِفْتاحَ مَعَها في فِراشِها أَيْضًا ، وَكانَ هٰذا مِنْ حُسْنِ الحَظِّ . لِأَنَّها سَمِعَتْ لُوسِي وَهِيَ تَنْهَضُ مِنْ فِراشِها وَتُحاوِلُ فَتْحَ البابِ مَرَّةً أُولَى وَثانِيَةً . وَفي الْمَرَّةِ الثّالِثَةِ اسْتَيْقَظَتْ مِينا لِتَجِدَ لُوسِي تَسْحَبُ السَّتائِرَ إِلَى الخَلْفِ ، وَخَشِيَتْ أَنْ

تَسْقُطَ مِنَ النّافِذَةِ فَأَخَذَتْها إِلَى فِراشِها ، ثُمَّ أَعادَتِ السَّتائِرَ إِلَى حَيْثُ كانَتْ .

كانَ القَمَرُ لا يَزالُ بَدْرًا كامِلًا . وَكانَ كُلُّ شَيْءٍ في الخارِجِ يَبْدو جَميلًا أَخّاذًا . وَكانَ الهُدوءُ مُخَيِّمًا فيما عَدا خُفّاشًا ضَخْمًا كانَ يَحومُ في دَوائِرَ واسِعَةٍ ، وَيَقْتَرِبُ حَتّى يَكادَ يَلْتَصِقُ بِالنّافِذَةِ . وَلٰكِنْ يَبْدو أَنَّ ظُهورَ مِينا قَدْ أَفْزَعَهُ ، فَأَخَذَ يَطيرُ عَبْرَ الوادي في اتِّجاهِ الكَنيسَةِ .

كانَتْ صِحَّةُ لُوسِي تَزْدادُ سُوءًا ، وَكانَ ذٰلِكَ مَبْعَثَ قَلَقٍ لِمِينا . وَكانَتْ تَصَرُّفاتُ لُوسِي في مُعْظَمِ الأَوْقاتِ هِيَ تَصَرُّفاتِ الصَّديقَةِ الوَدودِ الَّتي عَرَفَتْ مِينا مُنْذُ زَمانٍ طَويلٍ وَأَحَبَّتْها . وَلٰكِنْ — في أَوْقاتٍ أُخْرَى — كانَتْ تَبْدو وَكَأَنَّها شَخْصٌ غَريبٌ ، وَكانَتْ لُوسِي دائِمَةَ الشُّحوبِ وَالإِرْهاقِ في الأَيّامِ الأَخيرَةِ . وَلِذٰلِكَ كَتَبَتْ مِينا إِلَى والِدَةِ لُوسِي تَطْلُبُ مِنْها أَنْ تُعَجِّلَ بِالحُضورِ إِلَى هُويِتْبي . صَحيحٌ أَنَّهُ كانَتْ هُناكَ خُطورَةٌ في تَحْميلِ السَّيِّدَةِ وِسْتِنْرا مَشَقّاتِ السَّفَرِ بِسَبَبِ قَلْبِها الضَّعيفِ . وَلٰكِنْ إِذا كانَتْ لُوسِي مَريضَةً فَإِنَّ مِنْ حَقِّ أُمِّها أَنْ تَعْرِفَ . كَذٰلِكَ طَلَبَتْ مِينا مِنْ لُوسِي أَنْ تَعْرِضَ نَفْسَها عَلَى طَبيبٍ ، فَاسْتَجابَتْ لَها وَهِيَ غَيْرُ راضِيَةٍ كُلَّ الرِّضا . وَقَدْ قَرَّرَ الطَّبيبُ أَنَّها لا تُعاني مِنْ أَيِّ مَرَضٍ ، وَإِنَّما هِيَ في حاجَةٍ إِلَى الرّاحَةِ وَالهُدوءِ .

وَلَمْ تَشَأْ مِينا أَنْ تَسْأَلَ لُوسِي عَنْ مَوْضوعِ مَشْيِها في أَثْناءِ النَّوْمِ ، إِذْ وَجَدَتْ أَنَّهُ مِنَ الخَيْرِ أَلّا تُقْلِقَها بِالحَديثِ الْمُباشِرِ فيهِ عَقِبَ وُقوعِهِ . وَلٰكِنْ ، بَعْدَ ظُهْرِ أَحَدِ الأَيّامِ ، وَحِينَما كانَتا تَجْتازانِ ساحَةَ الكَنيسَةِ وَجَدَتْ مِينا أَنَّ الوَقْتَ مُناسِبٌ لِكَيْ تَطْرُقَ الْمَوْضوعَ . وَفَكَّرَتْ أَنَّهُ إِذا كانَ هُناكَ ما يُقْلِقُ لُوسِي فَإِنَّ التَّحَدُّثَ فيهِ رُبَّما يُساعِدُها وَيَكونُ خَيْرًا لَها ، وَلِذٰلِكَ سَأَلَتْها : « بِمَ كُنْتِ تَحْلُمينَ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ حِينَما جِئْتِ إِلَى هُنا وَحْدَكِ ؟ »

فَأَجابَتْ لُوسِي مُتَسائِلَةً : « هَلْ كُنْتُ أَحْلُمُ ؟ نَعَمْ ، لابُدَّ أَنَّهُ كانَ حُلْمًا ، وَلٰكِنَّهُ يَبْدو كَالحَقيقَةِ تَمامًا . لَقَدْ أَحْسَسْتُ بِرَغْبَةٍ شَديدَةٍ في أَنْ أَكونَ في ساحَةِ الكَنيسَةِ . وَمَعَ هٰذا ، فَلَسْتُ أَدْري لِماذا ؟ ذٰلِكَ لِأَنَّني أَذْكُرُ أَنَّني كُنْتُ خائِفَةً مِنْ شَيْءٍ ما أَيْضًا . وَمَعَ

أنّي لابُدَّ كُنْتُ نائِمةً ، فَإنَّني أتَذَكَّرُ سَيْرِي في الشَّوارِعِ ، وَخُيِّلَ إليَّ أنَّ آلمَدينَةَ مُمْتَلِئَةٌ بِالكِلابِ . كانَتِ الضَّوْضاءُ عَلى أشُدِّها ، وَعِنْدَما كُنْتُ أعْبُرُ الجِسْرَ إذا بِسَمَكَةٍ تَقْفِزُ ، فَتَوَقَّفْتُ كَيْ أُجيلَ بَصَرِي في آلماءِ . ثُمَّ صَعِدْتُ إلى آلكَنيسةِ وَبَدا لي كأنَّني لا أزالُ أُحَدِّقُ في آلماءِ ، وَأنَّني أغوصُ فِيهِ ، في ماءٍ عَميقٍ أخْضَرَ ، وَكانَ هُناكَ شَيْءٌ طَوِيلٌ قاتِمٌ ذو عَيْنَيْنِ حَمْراوَيْنِ ، وَانْتابَتْني مَشاعِرٌ مِنَ اللَّذةِ وَالخَوْفِ وَالألَمِ جميعًا ، ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ أذْكُرُ أنَّكِ كُنْتِ بِجانِبي عَلى آلمَقْعَدِ . هَلْ كُنْتِ أنْتِ ؟ أمْرٌ عَجيبٌ حَقًّا . »

قالَتْ هٰذا ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ في الضَّحِكِ .

لَمْ يَرُقْ مينا أنْ تَرى لُوسي تَضْحَكُ بِهٰذِهِ الطَّرِيقةِ ، فَلَقَدْ كانَتْ ضَحِكاتُها غَيْرَ طَبيعيَّةٍ . كَما أحَسَّتْ أنَّ لُوسي لَمْ تُخْبِرْها بِكُلِّ ما كانَتْ تَذْكُرُهُ عَنْ هٰذِهِ اللَّيْلةِ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تُحاوِلْ أنْ تُلِحَّ عَلَيْها لِكَيْ تُخْبِرَها بِالمَزيدِ . ذٰلِكَ لِأنَّ لُوسي قالَتْ إنَّها تَشْكو مِنْ صُداعٍ ، وَقَدْ أوَتْ إلى فِراشِها عَقِبَ عَوْدَتِها إلى آلمَنْزِلِ مُباشَرةً . أمّا مينا فَقَدْ جَلَسَتْ تَكْتُبُ بَعْضَ الرَّسائِلِ حَتّى العاشِرةِ . وَأحَسَّتْ أنَّها في حاجةٍ إلى الهَواءِ الطَّلْقِ فَخَرَجَتْ تَمْشي حَتّى مَكْتَبِ البَريدِ في آلمَدينةِ . وَفي طَريقِ العَوْدةِ مَرَّتْ بِبُقْعةٍ تَسْتَطيعُ أنْ تَرى مِنْها ظَهْرَ آلمَنْزِلِ الَّذي تُقيمانِ فيهِ ، وَلَمْ يَكُنِ القَمَرُ بَدْرًا كَما كانَ في اللَّيْلةِ السّابِقةِ ، وَلٰكِنَّه كانَ لا يَزالُ ساطِعًا . وَحينَما رَفَعَتْ بَصَرَها إلى نافِذةِ حُجْرةِ نَوْمِها أخَذَتْها الدَّهْشةُ إذْ شاهَدَتْ لُوسي فَلَوَّحَتْ لَها بِيَدِها ، وَلٰكِنَّ لُوسي لَمْ تُبادِلْها التَّحيَّةَ ، وَإنَّما كانَتْ تَسْتَنِدُ عَلى حافَةِ النّافِذةِ كَما لَوْ كانَتْ نائِمةً . وَفي التَّوِّ خَطَرَ عَلى بالِ مينا ما حَدَثَ في لَيْلةِ ساحةِ الكَنيسةِ ، وَالشَّكْلُ الغَريبُ الَّذي خُيِّلَ إلَيْها وَقْتَئِذٍ أنَّهُ جاثِمٌ فَوْقَ صَديقَتِها . وَهٰكَذا لِلْمَرَّةِ الثّانِيةِ ، بَدا كَما لَوْ أنَّ شَيْئًا ما مُتَمَدِّدٌ أمامَ وَجْهِها عَلى حافَةِ النّافِذةِ ، وَبَدا أشْبَهُ بِجَناحِ طائِرٍ أوْ خُفّاشٍ . هَرْوَلَتْ مينا إلى آلمَنْزِلِ ، وَسارَعَتْ إلى ارْتِقاءِ السُّلَّمِ وَثْبًا . وَحينَما دَخَلَتِ الحُجْرةَ ، كانَتْ لُوسي في فِراشِها مُسْتَغْرِقةً في نَوْمٍ عَميقٍ . كانَتْ تَتَنَفَّسُ تَنَفُّسًا سَريعًا مُضْطَرِبًا كَما فَعَلَتْ في ساحةِ الكَنيسةِ ، وَكانَتْ تَشُدُّ مِفْرَشَ السَّريرِ بِقُوَّةٍ حَوْلَ عُنُقِها . اِتَّجَهَتْ مينا إلى النّافِذةِ ، وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ أيُّ شَيْءٍ .



لَمْ تَكُنِ الأيّامُ القَليلةُ التّاليةُ سَعيدةً بِالنِّسْبةِ لِمينا . كانَتْ لُوسي تَأكُلُ وَتَنامُ ، وَكانَتْ تَسْتَنْشِقُ الهَواءَ الطَّلْقَ كَثيرًا ، وَمَعَ ذٰلِكَ كانَتْ تَزْدادُ شُحوبًا وَضَعْفًا . وَأيًّا كانَ رَأيُ الطَّبيبِ فَلَيْسَ هُناكَ شَكٌّ في أنَّها كانَتْ مَريضةً . أمّا الجُرْحانِ الصَّغيرانِ في عُنُقِها فَإنَّهُما لَمْ يَتَحَسَّنا . كانا لا يَزالانِ مَفْتوحَيْنِ ، بَلْ لَقَدْ زادا اتِّساعًا ، وَكانَتْ مينا تَرْجو ألّا يَكونَ عَدَمُ حِرْصِها هُوَ السَّبَبَ في مَرَضِ لُوسي .

وَأخيرًا قالَتْ مينا : « لابُدَّ أنْ تَسْتَشيري طَبيبًا آخَرَ يالُوسي ، سَوْفَ أكْتُبُ إلى دُكْتور سيوارْد . »

الفصل الثامن

حينما نزلت مينا لتتناول طعام الإفطار في صباح اليوم التالي وجدت خطابًا لها قرب مكان جلوسها إلى المائدة. وإذ وقع بصرها على خاتم بودابست على طابع البريد صاحت: « أخيرًا! لابد أن يكون من جوناثان. »

ولكن حينما رأت أن الكتابة على الظرف ليست بخط جوناثان عادت إليها أسوأ مخاوفها.

« السيدة العزيزة

أكتب إليك بناءً على رغبة السيد جوناثان هاركر الذي لا يملك القوة الكافية لكي يكتب بنفسه، ولو أنه يتحسن يومًا بعد يوم، وشكرًا لله ولسانت جوزيف. لقد كان تحت رعايتنا طوال الأسابيع الأربعة الماضية، وقد طلب مني أن أبعث إليك بحبه، كما طلب أن أكتب إلى السيد بيتر هوكينز في إكستر بإنجلترا لأخبره أن عمله قد أنجز، وأنه يأسف لتأخره في العودة. إنه في حاجة إلى بضعة أسابيع أخرى من الراحة في دارنا التي تقع فوق التلال، ثم يعود بعدها إلى إنجلترا. كما طلب أن أخبرك أنه في حاجة إلى نقود، إذ يرغب في سداد نفقات إقامته هنا، وذلك لكي تتمكن دارنا من تقديم العون لأولئك الذين يحتاجون إليه.

المخلصة

الأخت أغاثا

مستشفى سانت جوزيف »

وقد ذيلت بعبارات أخرى كتبتها الأخت أغاثا:

« السيد هاركر نائم الآن، وقد وجدت من الأفضل أن أفتح الرسالة لأضيف المزيد. حينما جاء إلينا كان يتحدث في هياج عن الذئاب والدماء ومصاصي الدماء، ويبدو أنه قد حدث له شيء غريب مفزع — وربما شرير — حتى لقد صارت الأمور كلها مختلطة في عقله. ولقد وجدنا من الأفضل ألا نوجه إليه أي سؤال. لقد وصل إلى بودابست

بالقطار قادمًا من بيستريتز دون تذكرة سفر، وفي حالة شديدة من الاضطراب. وكنا نود أن نكتب إليك من قبل، ولكن حالته لم تكن تسمح بذلك. أما الآن فقد أصبح قادرًا على أن يتحدث إلينا، وأن يكون لكلامه معنى. »

وحينما ظهرت لوسي صاحت مينا: « أوه يالوسي! إنه بخير. لقد جاءتني الأخبار أخيرًا. لم أكن أظن قط أن السعادة سوف تغمرني حين أعلم أنه يرقد في مستشفى، ولكنه — على الأقل — لم يختف. إنه — على الأقل — لم يمت. لابد أن أذهب إليه بقدر ما أستطيع من سرعة. »

وهكذا، اتخذت مينا الإجراءات اللازمة: أرسلت الخطابات والبرقيات إلى السيد هوكينز، وإلى الأخت أغاثا، واشترت تذاكر السفر بالسفينة والقطار. وقد رد عليها السيد هوكينز برسالة رقيقة، وكان من رأيه أنها سوف تكون فكرة طيبة بالنسبة لمينا وجوناثان أن يعقدا قرانهما في بودابست، وتعهد أن يتولى هو اتخاذ الإجراءات اللازمة.

أما لوسي — وقد استشعرت ما غمر مينا من سعادة — فقد بدأت حالها تتحسن قليلًا. ولكنها كانت لا تزال بعيدة عن الشفاء، وكانت مينا تضع أملها في وصول السيدة وستنرا، وما يترتب عليه من أثر طيب.

وقالت مينا، للمرة العشرين منذ وصول رسالة الأخت أغاثا: « أوه يالوسي! إنني لا أستطيع الانتظار لكي أراه ثانية! »

كانت الفتاتان في محطة هويتبي تنتظران القطار الذي يقل السيدة وستنرا. وقالت لوسي، للمرة الحادية والعشرين على الأقل خلال هذا الأسبوع:

« كم أتمنى لو استطعت أن أتزوج بسرعة مثلك. إنك لفتاة سعيدة حقًا يامينا، ولو لم يكن اللورد غودا لمينغ والد آرثر مريضًا لاستطعنا — آرثر وأنا — أن نتزوج أيضًا في هذا الصيف. عزيزي المسكين، إنه لا يستطيع أن يبتعد عن المنزل. »

ولم تكن لوسي تتحدث كثيرًا عن آرثر في أثناء الأسابيع القليلة الماضية، ولذلك

سُرَّتْ مينا حِينَما سَمِعَتْها تَتَحدَّثُ ثانيةً ، وَتَمَنَّتْ هِيَ كَذٰلِكَ لَوْ أَنَّ آرثَر كانَ يَمْلِكُ ٱلْحُرِّيَّةَ لِكَيْ يَأْتِيَ إِلى هُوِيتْبِي . إِنَّ لُوسِي في حاجةٍ إِلى عَوْنٍ مِنْ رَجُلٍ يَقِفُ بِجانِبِها .

وَفي هٰذِهِ اللَّحْظةِ لاحَظَتْ مينا أَنَّ هُناكَ قِطارَ بَضائِعَ يَتَحَرَّكُ بِبُطْءٍ لِيُغادِرَ ٱلْمَحَطَّةَ ، وَكانَتْ مُعْظَمُ أَحْمالِ ٱلْقِطارِ مِنَ ٱلسَّمَكِ ٱلَّذي يَنْقُلُهُ إِلى لَنْدَن ، وَلٰكِنَّهُ كانَ يَحْمِلُ شَيْئًا آخَرَ كَذٰلِكَ .

صاحَتْ مينا : « ما هٰذِهِ الصَّناديقُ ٱلْمَحْمولَةُ في عَرَباتِ ٱلْقِطارِ ٱلْمَكْشوفَةِ ؟ لَقَدْ رَأَيْتُها مِنْ قَبْلُ . عَجَبًا ! مِنَ ٱلْمُؤَكَّدِ أَنَّها الصَّناديقُ ٱلَّتي كانَتْ في السَّفينةِ دِيمِيتر . »

وَعادَتْ بِها ٱلْخَواطِرُ إِلى العاصِفةِ ، وَإِلى السَّفينةِ ، وَإِلى الرُّبّانِ ٱلْمَيِّتِ . كَمْ هُوَ مُؤْسِفٌ أَنْ يَموتَ رِجالٌ كَثيرونَ في سَبيلِ إِحْضارِ قَليلٍ مِنَ الصَّناديقِ إِلى إِنْجِلْترا . قالَتْ لُوسِي حِينَما مَرَّتْ بِها ٱلْعَرَباتُ ٱلْمَكْشوفَةُ : « إِنَّني أَشْعُرُ بِٱلْبُرودَةِ . »

وَٱلْواقِعُ أَنَّها بَدَتْ فَجْأَةً وَقَدْ كَساها الشُّحوبُ الشَّديدُ ، وَٱنْتابَها ٱلْمَرَضُ . وَكانَ قِطارُ ٱلْبَضائِعِ قَدْ خَرَجَ مِنَ ٱلْمَحَطَّةِ في نَفْسِ اللَّحْظَةِ ٱلَّتي ظَهَرَ فيها ٱلْقِطارُ ٱلَّذي يُقِلُّ السَّيِّدَةَ وِسْتِنْرا قادِمًا ، فَقالَتْ مينا وَقَدْ طَوَّقَتْ صَديقَتَها بِذِراعَيْها : « كُلُّ شَيْءٍ سَوْفَ يَكونُ أَحْسَنَ ٱلْآنَ . »

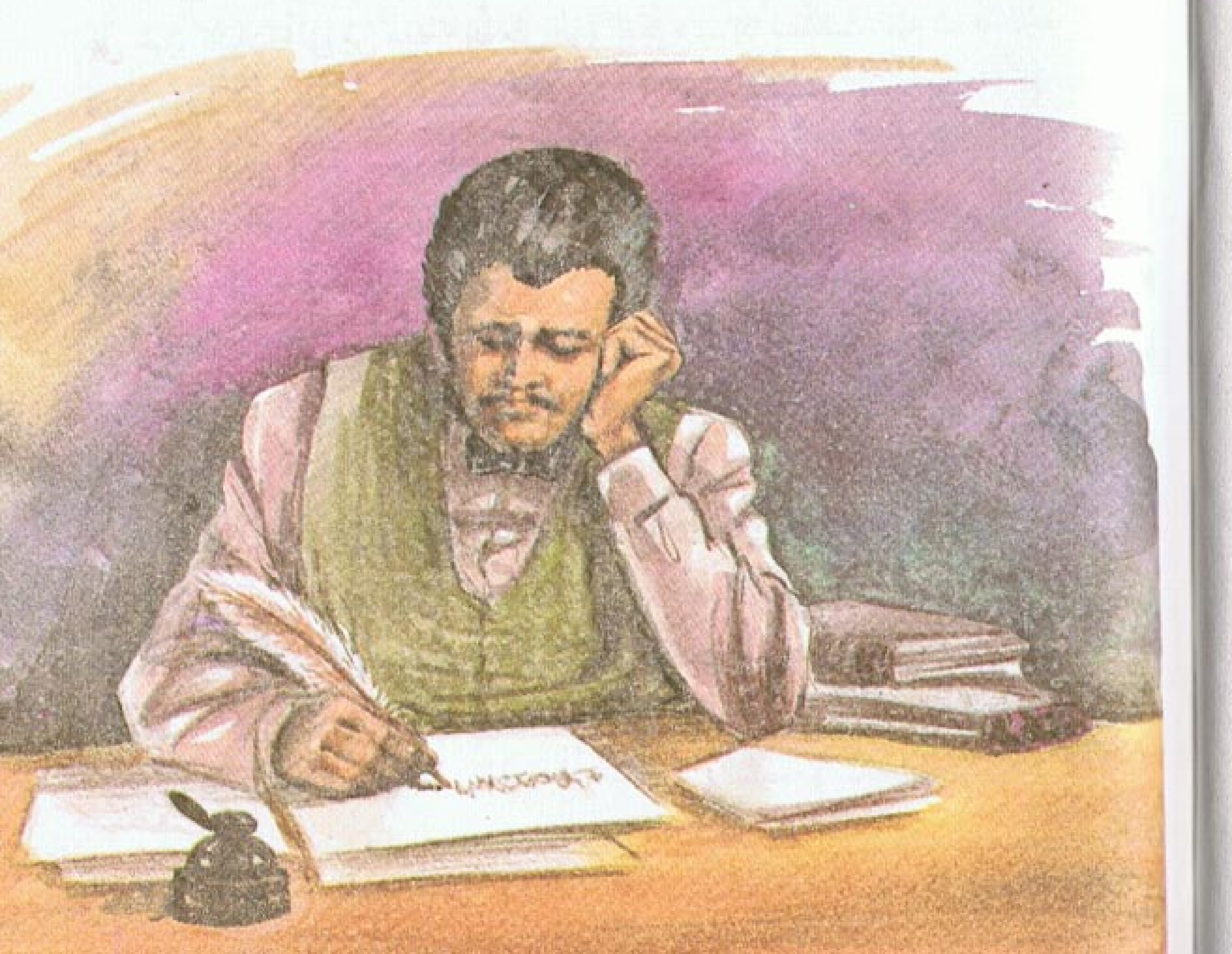
تَنَفَّسَتْ لُوسِي نَفَسًا عَميقًا وَقالَتْ : « آهٍ يامِينا ! عَزيزَتي مِينا ! إِنَّني آمُلُ أَنْ يَكونَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ . إِنَّني لا أَشْعُرُ بِالسَّعادةِ ٱلَّتي كُنْتُ أَشْعُرُ بِها مِنْ قَبْلُ . »

ٱلْقِسْمُ ٱلثّالِثُ

دُكْتور سِيوارْد

ٱلْفَصْلُ ٱلتّاسِعُ

جَلَسَ الدُّكْتور سِيوارْد يَكْتُبُ تَقارِيرَهُ ٱلْأُسْبوعِيَّةَ عَنْ دارِ ٱلْمَجانِينِ ٱلَّتي يَتَوَلَّى ٱلْإِشْرافَ عَلَيْها . وَكانَ مِنْ بَيْنِ ٱلْحالاتِ ٱلَّتي يُعالِجُها حالَةُ رِينْفِيلْد ٱلَّتي كانَتْ مَحَطَّ ٱهْتِمامِهِ ، فَهاهُنا رَجُلٌ مَوْفُورُ ٱلْقُوَّةِ ، في أَواسِطِ ٱلْعُمْرِ ، يَقْضي كُلَّ وَقْتِهِ في ٱلْقَبْضِ عَلى الذُّبابِ وَٱلْإِبْقاءِ عَلَيْهِ حَيًّا في وِعاءٍ زُجاجِيٍّ . مِثْلُ هٰذا الصَّنيعِ — عَلى ٱلْأَقَلِّ — لَمْ يَكُنْ يُسَبِّبُ أَيَّ ضَرَرٍ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ — كَذٰلِكَ — يُمْسِكُ ٱلْعَناكِبَ وَيُقَدِّمُ لَها الذُّبابَ طَعامًا . وَتَطَوَّر



ٱلْأَمْرَ فَأَصْبَحَ يُمْسِكُ زَوْجًا مِنَ الطُّيورِ الصَّغيرةِ وَيُقَدِّمُ لَها ٱلعَناكِبَ غِذاءً . وَسَأَلَ الرَّجُلُ عَمّا إذا كانَ مِنَ ٱلـمُمْكِنِ أَنْ يَقْتَنِيَ قِطًّا صَغيرًا ، فَرَفَضَ ٱلدُّكْتور سيوارْد طَلَبَهُ . وفي ٱليَوْمِ التّالي أَبْلَغَ مُمَرِّضُ رِينْفيلْد أَنَّ الطّائِرَيْنِ ٱخْتَفَيا ، وَأَنَّ هُناكَ دَمًا وَريشًا في أَحَدِ أَرْكانِ ٱلحُجْرةِ وَلِذٰلِكَ حَمِدَ الدُّكْتور سيوارْد الله لِأَنَّهُ لَمْ يُعْطِ رِينْفيلْد قِطًّا .

وَكانَ مِنَ ٱلواضِحِ أَنَّ رِينْفيلْد يَتْبَعُ خُطَّةً ، وَأَنَّ هٰذِهِ ٱلخُطَّةَ كانَتْ ـــ بِمَنْطِقِها ٱلجُنونِيِّ مَعْقولَةً . فَقَدْ كانَ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ ـــ إِذْ يَلْتَهِمُ الطّائِرَيْنِ ـــ فَهُوَ لا يَقْضي عَلى حَياتِهِما فَحَسْبُ ، وَإِنَّما يَقْضي في نَفْسِ ٱلوَقْتِ عَلى حَياةِ ٱلعَناكِبِ وَالذُّبابِ ، وَكُلُّ ذٰلِكَ يَبْعَثُ فيهِ شُعورًا بالسَّطْوةِ وَٱلقُوَّةِ . وَلٰكِنَّ ٱلـمَسْأَلَةَ هِيَ : ما الَّذي يُمْكِنُ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْهِ كُلُّ هٰذا ؟

إِنَّ قَتْلَ ٱلعَناكِبِ وَالذُّبابِ لَيْسَ أَمْرًا ذا شَأْنٍ ، وَلٰكِنْ لِنَفْرِضْ أَنَّهُ بَدَأَ يُفَكِّرُ في ٱلقَضاءِ عَلى حَياةِ كائِناتٍ أَعْلى مِنْ هٰذِهِ ؟ إِنَّ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلفِكْرةِ ـــ إِذا تَسَلَّطَتْ عَلَيْهِ ـــ قَدْ تَجْعَلُ مِنْهُ قاتِلًا . وَلَمْ تَكُنْ هٰذِهِ هِيَ ٱلـمُشْكِلَةَ ٱلوَحيدةَ في حالَةِ رِينْفيلْد . فَمُنْذُ بِضْعَةِ أَيّامٍ بَدَأَتْ تَنْتابُهُ حالَةُ هِياجٍ بِدونِ سَبَبٍ مَلْحوظٍ ، وَظَلَّ يُرَدِّدُ قَوْلَهُ : « إِنَّ السَّيِّدَ قَريبٌ » ، فَهَلْ كانَ هٰذا نَوْعًا مِنَ ٱلهَوَسِ الدّينِيِّ ياتُرى ؟ وإذا صَحَّ ذٰلِكَ ، وَٱقْتَرَنَ ٱلأَمْرُ بِرَغْبَتِهِ في ٱلقَتْلِ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ يُشيرُ إلى حالَةٍ خَطيرةٍ .

أَزاحَ الدُّكْتور سيوارْد السِّجِلَّ الَّذي يُدَوِّنُ فيهِ مُلاحَظاتِهِ بَعيدًا ، وَأَراحَ رَأْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَكانَ اللَّيْلُ قَدِ ٱنْتَصَفَ ، وَغَلَبَهُ التَّعَبُ وَالإِعْياءُ . كانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَكِدُّ في عَمَلِهِ كَثيرًا ، وَلٰكِنَّ هٰذا كانَ يُساعِدُهُ عَلى التَّفْكيرِ في لُوسي .

وَعِنْدَما ذَهَبَ إلى فِراشِهِ أَخيرًا أَصابَهُ أَرَقٌ . وَكانَ لا يَزالُ مُسْتَيْقِظًا حينَما دَخَلَ الحارِسُ اللَّيْلِيُّ حُجْرَتَهُ في السّاعةِ الثّانِيةِ صَباحًا ، وَقالَ : « لَقَدْ أَرْسَلَني إِلَيْكَ ٱلـمُمَرِّضُ ٱلـمَنوطُ بِهِ ٱلعَمَلُ اللَّيْلَةَ لِأُبْلِغَكَ أَنَّ رِينْفيلْد قَدْ هَرَبَ . » فَٱرْتَدى سيوارْد ثِيابَهُ عَلى عَجَلٍ ، وَنَزَلَ عَلى السُّلَّمِ وَثْبًا إلى حُجْرةِ رِينْفيلْد ، وَكانَ ٱلـمُمَرِّضُ قَدْ أَيْقَظَ ٱثْنَيْنِ مِنْ زُمَلائِهِ ، وَوَقَفَ الثَّلاثَةُ يَنْتَظِرونَ تَوْجيهاتِ الطَّبيبِ .

وَقالَ ٱلـمُمَرِّضُ شارِحًا : « لَقَدْ حَدَثَ ٱلأَمْرُ عَلى هٰذِهِ الصّورةِ ياسَيِّدي : كُنْتُ قَدْ نَظَرْتُ مِنْ خِلالِ النّافِذةِ الَّتي في بابِهِ مُنْذُ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقيقةً ، وبَدا لي أَنَّهُ نائِمٌ ، ثُمَّ نَظَرْتُ ثانِيةً مُنْذُ لَحَظاتٍ فَرَأَيْتُهُ يَتَسَلَّقُ إلى خارِجِ النّافِذةِ . إِنَّهُ قَوِيٌّ جِدًّا ياسَيِّدي ، فَلَقَدْ ثَنى قُضْبانَ النّافِذةِ بِيَدَيْهِ وَفَرَّ هارِبًا ، وَأَظُنُّ أَنَّهُ ٱتَّجَهَ نَحْوَ كارْفاكْس . »

قالَ الدُّكْتور سيوارْد : « اتْبَعوني ، فَسَوْفَ نَسْلُكُ نَفْسَ الطَّريقِ الَّذي سَلَكَهُ مِنْ خِلالِ النّافِذةِ . »

وَبَيْنَما كانَ الطَّبيبُ يَتَسَلَّقُ النّافِذةَ كانَ يَعْجَبُ مِنْ قُوَّةِ الرَّجُلِ ٱلـمَجْنونِ الَّذي ٱسْتَطاعَ أَنْ يَثْنِيَ ٱلقُضْبانَ ٱلحَديدِيَّةَ ٱلغَليظةَ كَأَنَّما هِيَ أَسْلاكٌ . ما الَّذي جَعَلَهُ يَفْعَلُ ذٰلِكَ ياتُرى ؟ إِنَّهُ لَمْ يُحاوِلِ ٱلهُروبَ قَطُّ مِنْ قَبْلُ !

وَحينَما أَصْبَحَ الرِّجالُ ٱلخَمْسةُ في ٱلخارِجِ جَرَوْا نَحْوَ السّورِ ٱلـمُرْتَفِعِ الَّذي يَقِفُ حاجِزًا بَيْنَ ٱلـمُسْتَشْفى وَأَراضي كارْفاكْس ٱلـمُشْجِرةِ الَّتي يَغْشيها الظَّلامُ ، وَتَساءَلَ الطَّبيبُ : « إذا كانَ رِينْفيلْد يُريدُ مُجَرَّدَ ٱلهُروبِ ، فَلِماذا لَمْ يَنْطَلِقْ نَحْوَ الطَّريقِ ؟ »

وَكانَ في ٱلجانِبِ ٱلآخَرِ مِنَ السّورِ مَمَرٌّ تَكْسوهُ ٱلأَعْشابُ الطَّويلةُ . سَلَكوا ذٰلِكَ ٱلـمَمَرَّ حَتّى لاحَ أَمامَهُم في عَتْمةِ اللَّيْلِ هَيْكَلُ ٱلـمَنْزِلِ وَٱلكَنيسةُ . وَلَمْ يَصْعُبْ عَلَيْهِمُ ٱلعُثورُ عَلى رِينْفيلْد الَّذي يَلْبَسُ جِلْبابَ النَّوْمِ ٱلأَبْيَضَ ، وَالَّذي لَمْ يَكُنْ يُحاوِلُ أَنْ يُخْفِيَ نَفْسَهُ ، وَإِنَّما كانَ مُتَشَبِّثًا بِجِسْمِهِ بِبابِ ٱلكَنيسةِ ، وَذِراعاهُ مَمْدودَتانِ إلى أَعْلى . وَكانَ يَقولُ : « سَيِّدي ! إِنَّ خادِمَكَ هُنا ، فَمُرْهُ بِما تَرى . »

فَقالَ الطَّبيبُ : « تَمامًا كَما قَدَّرْنا . إِنَّهُ نَوْعٌ مِنَ ٱلهَوَسِ الدّينِيِّ ، وَلَقَدْ جاءَ إلى هُنا لِأَنَّهُ يَظُنُّ أَنَّها أَقْرَبُ كَنيسةٍ . »

وَلابُدَّ أَنَّ رِينْفيلْد سَمِعَ صَوْتَهُ ، فَقَدِ ٱلْتَفَتَ فَجْأَةً وَواجَهَهُمْ وَهُوَ يُزَمْجِرُ كَما تُزَمْجِرُ ٱلحَيَواناتُ الضّارِيةُ . أَمّا الطَّبيبُ وَرِجالُهُ فَقَدْ أَحْكَموا ٱلحَلْقةَ حَوْلَهُ حَتّى أَصْبَحوا عَلى مَقْرُبةٍ مِنْهُ بِحَيْثُ يَسْتَطيعونَ ٱلإِمْساكَ بِهِ ، وَلٰكِنَّهُ أَخَذَ يُقاتِلُ قِتالَ ٱلـمُسْتَميتِ . وَكانَ الرِّجالُ

الخَمْسةُ أشَدَّ قُوَّةً فحَمَلوهُ وَعادوا بِهِ وَهُوَ يَرْفُسُ وَيُقاوِمُ . وَكانَ هُناكَ خُفّاشٌ يَطيرُ حائِمًا بَيْنَ الأَشْجارِ وَخارِجَها ، وَبَدا كَأَنَّما تَحَرُّكاتُ الخُفّاشِ تَزيدُهُ آسْتِثارَةً وَصِياحًا ، حَتّى إنَّ كُلَّ مَنْ في المُسْتَشْفى اسْتَيْقَظوا عَلى صَيْحاتِهِ وَصَرَخاتِهِ .

وَفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي جاءَ زائِرٌ إلى الدُّكْتور سيوارْد ، وَلَمْ يَكُنِ الطَّبيبُ راغِبًا في آسْتِقْبالِ أيِّ زائِرٍ بَعْدَ ما حَدَثَ في اللَّيْلَةِ الماضِيَةِ . وَلٰكِنَّهُ كانَ آرْثَر هولْموود وَهُوَ صَديقٌ لابُدَّ أنْ يَراهُ . وَلَمْ يَكُنِ الشّابُّ الفارِعُ — القَوامِ ، الأَنيقُ الثِّيابِ ، البَهِيُّ المَنْظَرِ — سَعيدًا كَما كانَ يَبْدو عادةً ، وَإنَّما كانَ قَلِقًا بِسَبَبِ تَدَهْوُرِ صِحَّةِ لوسي .

قالَ آرْثَر : « لَقَدْ كانَتْ تَبْدو في أحْسَنِ حالٍ حينَما عادَتْ مِنْ هُوِيتْبي ياجاك ، مَعَ أنَّ مينا مُوراي قالَتْ إنَّها كانَتْ مَريضَةً جِدًّا . »

قالَ الطَّبيبُ : « لَقَدْ كَتَبَتْ مينا إلَيَّ بِذٰلِكَ ، وَكانَ يَبْدو مِنْ رِسالَتِها أنَّها شَديدَةُ القَلَقِ عَلَيْها . »

قالَ آرْثَر : « حَسَنًا ، لَقَدْ ظَنَنْتُ في البِدايَةِ أنَّ مينا آخْتَرَعَتْ قِصَّةَ مَرَضِها . وَلٰكِنْ ما إنِ آنْقَضَتْ أيّامٌ قَليلَةٌ بَعْدَ عَوْدَتِها حَتّى تَغَيَّرَتْ ، وَأدْرَكْتُ تَمامًا ماذا كانَتْ مينا تَقْصِدُ . إنَّها الآنَ في غايَةِ الضَّعْفِ حَتّى إنَّها لا تَكادُ تَتَحَرَّكُ هُنا وهُناكَ إلّا بِصُعوبَةٍ ، ثُمَّ إنَّها تَزْدادُ سوءًا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ . إنَّني لابُدَّ أنْ أعودَ إلى لَنْدن اليَوْمَ ، وَلٰكِنّي أُريدُكَ أنْ تَذْهَبَ لِتَناوُلِ الغَداءِ مَعَ آلِ وِسْتِنْرا . وَلاحِظْ أنَّ لوسي لَنْ تَتَحَدَّثَ عَنْ مَرَضِها عَلى مَسْمَعٍ مِنْ أُمِّها ، وَلٰكِنْ يُمْكِنُكَ بَعْدَ ذٰلِكَ أنْ تَجِدَ فُرْصَةً لِرُؤْيَتِها عَلى آنْفِرادٍ . »!

وَفي وَقْتٍ مُتَأخِّرٍ مِنْ نَفْسِ الصَّباحِ آسْتَقَلَّ الدُّكْتور سيوارْد عَرَبَتَهُ إلى هيلينْغدون حَيْثُ تُقيمُ أُسْرَةُ وِسْتِنْرا . وَلَمْ يَكُنْ قَدْ رَأى لوسي مُنْذُ أسابيعَ ، وَلَمْ يَكُنْ مُرْتاحًا إلى رُؤْيَتِها الآنَ ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَنْسَ وَعْدَهُ أنْ يَكونَ لَها صَديقًا .

وَحينَما قابَلَها لاحَظَ أنَّها شاحِبَةٌ وَلٰكِنْ مُبْتَسِمَةٌ ، عَلى الأَقَلِّ ، في أثْناءِ الغَداءِ حينَما كانَتْ أُمُّها مَعَهُما . وَلٰكِنْ بَعْدَما ذَهَبَتِ السَّيِّدَةُ وِسْتِنْرا لِتَسْتَريحَ تَخَلَّتْ لوسي عَنِ

التَّظاهُرِ ، وَقالَتْ : « آهٍ ياجاك ! أنا لَسْتُ عَلى ما يُرامُ ، وَكَمْ أَوَدُّ أنْ أكونَ عَلى ما يُرامُ . »

فَقالَ الطَّبيبُ : « تَوَدّينَ أنْ تَكوني عَلى ما يُرامُ مِنْ أجْلِ آرْثَر ؟ »

فَتَبَسَّمَتْ لوسي في رِقَّةٍ وقالَتْ : « نَعَمْ ياجاك مِنْ أجْلِ آرْثَر . »

فَتَكَلَّفَ سيوارْد ابْتِسامَةً وَسَألَها : « لوسي ، مِمَّ تَشْكينَ ؟ »

فَأخْبَرَتْهُ أنَّها تَشْكو مِنْ نَوْمٍ ثَقيلٍ أشْبَهَ بِالمَوْتِ .. مِنْ أحْلامٍ مُزْعِجَةٍ لا تَسْتَطيعُ أنْ تَتَذَكَّرَها حينَما تَسْتَيْقِظُ .. مِنْ إرْهاقٍ وَشُحوبٍ .. مِنْ ضيقٍ في التَّنَفُّسِ ، وَإحْساسٍ مُسْتَمِرٍّ بِالبُرودَةِ .

وَلَمّا فَحَصَها سيوارْد لَمْ يَجِدْ سَبَبًا لِهٰذِهِ الأعْراضِ ، فيما عَدا عَضَّتَيْ حَشَرَةٍ في عُنُقِها تَبْدوانِ كَريهَتَيِ المَنْظَرِ ، كَما أنَّ ضَغْطَ الدَّمِ كانَ مُنْخَفِضًا .

وَسَألَ الطَّبيبُ نَفْسَهُ : « أتَكونُ قَدْ فَقَدَتْ كَمِّيَّةً مِنَ الدَّمِ ؟ »

إنَّهُ أمْرٌ بَعيدُ الاحْتِمالِ . كُلُّ ما يُمْكِنُ عَمَلُهُ هُوَ أنْ يَأخُذَ بَعْضًا مِنْ دَمِها وَيُرْسِلَهُ إلى لَنْدن لِفَحْصِهِ . وَجاءَ التَّقْريرُ في اليَوْمِ التّالي مُتَضَمِّنًا أنَّهُ لَيْسَ في دَمِها شَيْءٌ غَيْرُ طَبيعِيٍّ . وَتَعَجَّبَ سيوارْد : أيُمْكِنُ أنْ يَكونَ السَّبَبُ نَفْسِيًّا ؟ أيُمْكِنُ أنْ تَمْرَضَ بِسَبَبِ أنَّها تَتَوَهَّمُ أنَّها مَريضَةٌ ؟

وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ كانَ يَشُكُّ في هٰذا الاحْتِمالِ . كانَ يَعْتَقِدُ أنَّ هُناكَ أمْرًا غَيْرَ عادِيٍّ في هٰذِهِ الحالَةِ ، وَلَيْسَ هُناكَ إلّا رَجُلٌ واحِدٌ يَسْتَطيعُ مُعالَجَةَ الحالاتِ غَيْرِ العادِيَةِ . إنَّهُ أُسْتاذُهُ القَديمُ وَصَديقُهُ ڤان هيلْسينْغ في أمْسْتَرْدام . عَلى أيِّ حالٍ ، فَإنَّ الأمْرَ يَبْدو خَطيرًا ، وَمِنْ أجْلِ لوسي لابُدَّ أنْ يَبْذُلَ كُلَّ مُحاوَلَةٍ مُمْكِنَةٍ . نَعَمْ سَوْفَ يَسْتَدْعي ڤان هيلْسينْغ .

اَلْفَصْلُ العاشِرُ

وَصَلَ ٱلبُروفيسور أَبْراهام ڤان هِيلْسِينْغ إلى هِيلِينْغدون بَعْدَ ثَلاثَةِ أَيّامٍ ، وَأَقامَ فيها فَتْرَةً كافِيَةً لِفَحْصِ لُوسي ٱلَّتي كانَ يَراها بِمُفْرَدِها ، ثُمَّ عادَ بَعْدَ ذٰلِكَ مُباشَرَةً إلى أَمِسْتِرْدام . وَلَمْ يَقُلِ ٱلبُروفيسور كَثيرًا بَعْدَ فَحْصِها ، وَلٰكِنَّ سيوارْد أَحَسَّ أَنَّهُ لَمْ يُضَيِّعْ وَقْتَ ٱلرَّجُلِ ٱلعَظيمِ هَباءً ، فَقَدْ أَثارَتِ ٱلحالَةُ ٱهْتِمامَهُ ، وَطَلَبَ أَنْ يُوافى بِتَقارِيرَ يَوْمِيَّةٍ عَنْ حالَةِ لُوسي .

وَفي ٱليَوْمِ ٱلتّالي بَدا أَنَّ لُوسي في تَحَسُّنٍ . لَقَدْ كانَ ڤان هِيلْسِينْغ رَقيقًا مَعَها ، وَقَدْ وَضَعَتْ فيهِ ثِقَتَها . وَٱلواقِعُ أَنَّ ٱلرَّجُلَ كانَ مُحَبَّبًا إلى ٱلشّابّاتِ ٱلصَّغيراتِ . وَبَعْدَ ذٰلِكَ بِيَوْمٍ ٱسْتَطاعَ ٱلدُّكْتور سيوارْد أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِتَقْريرٍ يَتَضَمَّنُ مَزيدًا مِنَ ٱلتَّحَسُّنِ في حالَتِها ، كَما لَوْ كانَتِ ٱلسَّحابَةُ ٱلقاتِمَةُ ٱلمُخَيِّمَةُ عَلَيْها قَدْ بَدَأَتْ تَنْقَشِعُ وَتَزولُ .

وَلٰكِنْ إذا كانَتْ لُوسي قَدْ بَدَأَتْ تَتَحَسَّنُ ، فَإِنَّ رِينْفيلْد لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ ، فَمُنْذُ حادِثِ هُروبِهِ ٱنْخَفَضَتْ مَعْنَوِيّاتُهُ إلى حَدٍّ كَبيرٍ ، فَقَدْ كانَ يَنْزَوي في رُكْنٍ كَتِمْثالٍ بِلا حَياةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ يَتَحَدَّثُ إلّا قَليلًا . وَلَقَدْ حاوَلَ ٱلدُّكْتور سيوارْد أَنْ يَحْفِزَهُ أَحْيانًا لِكَيْ يَتَكَلَّمَ ، وَلٰكِنْ كانَ كُلُّ ما يَقولُهُ هُوَ : « لَقَدْ تَرَكَني ! لَيْسَ هُناكَ أَمَلٌ لي ! لَقَدْ تَرَكَني . »

وَفي ٱليَوْمِ ٱلثّالِثِ لِزِيارَةِ هِيلْسِينْغ عاوَدَ ٱلمَرَضُ لُوسي وَاشْتَدَّ بِها حَتّى إِنَّ سيوارْد بَعَثَ بِبَرْقِيَّةٍ إِلَيْهِ يَطْلُبُ فيها أَنْ يَأْتِيَ عَلى ٱلفَوْرِ . وَٱسْتَجابَ ٱلبُروفيسور وَوَصَلَ في ٱلمَساءِ ٱلتّالي حَيْثُ قادَهُ سيوارْد إلى حُجْرَةِ لُوسي بِالطّابَقِ ٱلعُلْوِيِّ . وَكانَتْ تَبْدو في حالَةٍ سَيِّئَةٍ لَمْ تُعْهَدْ مِنْ قَبْلُ . كانَتْ شَديدَةَ ٱلشُّحوبِ ، حَتّى إِنَّ شَفَتَيْها وَحَلْقَها لَمْ يَعُدْ لَها لَوْنٌ . كانَتْ تَتَنَفَّسُ بِطَريقَةٍ تُثيرُ ٱلأَسى وَٱلأَلَمَ فيمَنْ يَراها أَوْ يَسْمَعُها ، بَلْ إِنَّها بَدَتْ وَكَأَنَّها تَكادُ تَفْقِدُ ٱلقُدْرَةَ عَلى ٱلكَلامِ . وَقَدْ فَحَصَها ڤان هِيلْسِينْغ وَهُوَ صامِتٌ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ ٱلحُجْرَةِ يَتْبَعُهُ سيوارْد . وَكانَ يُوشِكُ أَنْ يَبْدَأَ حَديثَهُ حينَما طَرَقَ أَسْماعَهُما صَوْتٌ مُضْطَرِبٌ . وَإِذا بِآرْثَر هُولْموود يَصْعَدُ ٱلسُّلَّمَ وَثْبًا ، وَبادَرَ يَقولُ : « لَقَدْ عَجِلْتُ بِالحُضورِ قَدْرَ ما ٱسْتَطَعْتُ ، وَمَبْلَغُ عِلْمي أَنَّها أَسْوَأُ حالًا ! »

فَأَجابَ ڤان هِيلْسِينْغ : « إِنَّها تُواجِهُ أَعْظَمَ خَطَرٍ أَيُّها ٱلشّابُّ . »

فَصاحَ آرْثَر : « خَطَرٌ ؟ وَلٰكِنْ ماذا بِوُسْعِنا أَنْ نَفْعَلَهُ ؟ إِنَّني عَلى ٱسْتِعْدادٍ لِتَقْديمِ آخِرِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمي لِإِنْقاذِها . »

فَقالَ ٱلبُروفيسور : « أَيُّها ٱلسَّيِّدُ ٱلعَزيزُ ، أَنا لا أَسْأَلُكَ أَنْ تُقَدِّمَ مِثْلَ هٰذا ٱلقَدْرِ . لَيْسَ آخِرَ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِكَ ، وَلٰكِنْ ثِقْ أَنَّ ٱلدَّمَ هُوَ ٱلشَّيْءُ ٱلَّذي تَحْتاجُ إِلَيْهِ فِعْلًا . إِنَّ ما في جَسَدِها مِنْ دَمٍ لا يَكادُ يَكْفي لِكَيْ يَظَلَّ قَلْبُها نابِضًا . إِنَّ دَمَ شابٍّ مُعافًى مِثْلِكَ هُوَ ٱلَّذي تَحْتاجُ إِلَيْهِ . أَرْجوكَ ياسَيِّدُ هُولْموود ــ وَأَظُنُّ أَنَّكَ ٱلسَّيِّدُ هُولْموود ــ أَنْ تَخْلَعَ سُتْرَتَكَ فَوْرًا . لابُدَّ أَنْ تَقومَ مُباشَرَةً بِعَمَلِيَّةِ نَقْلِ دَمٍ يادُكْتور سيوارْد . »

خَلَعَ آرْثَر سُتْرَتَهُ دونَ أَنْ يَفوهَ بِكَلِمَةٍ ، وَبَدَأَ يَثْني كُمَّ قَميصِهِ ، وَكانَتْ لُوسي ٱلمِسْكينَةُ قَدْ بَلَغَ مِنْها ٱلمَرَضُ حَدًّا لَمْ تَعُدْ تَشْعُرُ مَعَهُ بِالفَتْحَةِ ٱلَّتي أَحْدَثَها ٱلطَّبيبانِ في ذِراعِها لِنَقْلِ ٱلدَّمِ إِلَيْها . وَلٰكِنْ بَعْدَ مُضِيِّ عَشْرِ دَقائِقَ بَدَأَ ٱلدَّمُ يَتَدَفَّقُ مِنْ ذِراعِ آرْثَر إِلَيْها فَيُعيدُ ٱللَّوْنَ إلى وَجْهِها ٱلشّاحِبِ ، وَبَدَأَ تَنَفُّسُها يَنْتَظِمُ ، وَقالَ ٱلبُروفيسور : « وَٱلآنَ ، سَنَتْرُكُ ٱلآنِسَةَ لُوسي لِتَنامَ ، وَسَوْفَ أَعودُ غَدًا لِأَراها . وَلٰكِنَّ أَمامَنا شَيْئًا آخَرَ لابُدَّ أَنْ نَفْعَلَهُ قَبْلَ أَنْ نَنْصَرِفَ . »

وَنَزَلَ ٱلبُروفيسور إلى ٱلطّابَقِ ٱلسُّفْلِيِّ ثُمَّ عادَ وَمَعَهُ صُنْدوقٌ ، فَوَضَعَهُ فَوْقَ سَريرِ لُوسي وَقالَ لَها مُبْتَسِمًا : « هَيّا ٱفْتَحيهِ . »

فَتَحَتْ لُوسي ٱلصُّنْدوقَ ، وَقالَتْ وَهِيَ تَمُدُّ يَدَها لِتُخْرِجَ مِنْهُ بَعْضَ ٱلأَزْهارِ ٱلصَّغيرَةِ ٱلبَيْضاءِ : « أَهٰذِهِ لي ؟ آهٍ يادُكْتور ڤان هِيلْسِينْغ ! يالَكَ مِنْ عَطوفٍ ! »

فَرَدَّ ٱلطَّبيبُ : « نَعَمْ ياعَزيزَتي ، إِنَّها لَكِ . وَلٰكِنَّها مِنْ أَجْلِ مَرَضِكِ وَلَيْسَتْ مِنْ أَجْلِ ٱلاسْتِمْتاعِ بِها . شُمّيها . »

فَرَفَعَتْ لُوسي ٱلأَزْهارَ إلى أَنْفِها ، وَلَمْ تَكَدْ تَشُمُّها حَتّى صاحَتْ : « أُفٍّ ! إِنَّها أَزْهارُ ٱلثّومِ . إِنَّها مِنَ ٱلثّومِ ٱلعادِيِّ . أَهِيَ دُعابَةٌ يابُروفيسور ؟ »

وَأَخَذَتْ سِيوارْد الدَّهْشَةُ حِينَ رَأى أَنَّ ڤان هِيلْسِينْغ لَمْ يَضْحَكْ ، بَلْ عَلى العَكْسِ بَدا وَجْهُهُ جادًّا رَزِينًا بِصُورَةٍ لَمْ يَعْهَدْها مِنْ قَبْلُ ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلى يَدِ لُوسِي وَقالَ : « إِنَّها لَيْسَتْ دُعابَةً . هُناكَ سَبَبٌ وَراءَ كُلِّ ما أَفْعَلُهُ ، وَأَنا أُحَذِّرُكِ : لا تَعْصي لي أَمْرًا أَطْلُبُهُ مِنْكِ وَإِلَّا فَإِنَّكِ سَوْفَ تُعَرِّضينَ نَفْسَكِ لِخَطَرِ ٱلْمَوْتِ . نَعَمْ ! بَلْ لِما هُوَ أَسْوَأُ . »

وَلَمّا لاحَظَ أَنَّهُ قَدْ أَفْزَعَها بِكَلامِهِ ٱسْتَمَرَّ يَقُولُ بِصَوْتٍ أَرَقَّ : « لا تَخافي ! إِنَّما أُحاوِلُ أَنْ أُساعِدَكِ . إِنَّ لِهٰذِهِ ٱلأَزْهارِ العادِيَةِ قُوَّةً كُبْرى . » وَكانَ الَّذي فَعَلَهُ ٱلبُروفِيسور بَعْدَ ذٰلِكَ مِمّا لا يُوجَدُ في أَيِّ كِتابٍ مِنْ كُتُبِ الطِّبِّ الَّتي قَرَأَها سِيوارْد . فَقَدْ بَدَأَ بِإِغْلاقِ جَميعِ النَّوافِذِ ثُمَّ أَخَذَ بَعْدَ ذٰلِكَ حُفْنَةً مِنَ ٱلأَزْهارِ وَمَسَحَ بِها النَّوافِذَ وَٱلبابَ وَٱلْمِدْفَأَةَ مَسْحًا شامِلًا .

قالَ سِيوارْد : « وَٱلآنَ يابُروفِيسور ، أَنا أَعْلَمُ أَنَّكَ لا تَفْعَلُ شَيْئًا عَلى ٱلإِطْلاقِ إِلّا لِسَبَبٍ مُعَيَّنٍ ، وَلَعَلَّ مِنْ دَواعي سُرُوري أَنَّهُ لَيْسَ مَعَنا ٱلآنَ طَبيبٌ آخَرُ لِيَرى ما تَفْعَلُهُ . وَلَوْ أَنَّ مَعَنا طَبِيبًا آخَرَ لَقالَ إِنَّكَ ٱعْتَزَلْتَ مِهْنَةَ الطِّبِّ وَأَصْبَحْتَ ساحِرًا . إِنَّكَ تَبْدو كَما لَوْ كُنْتَ تُحاوِلُ أَنْ تَطْرُدَ رُوحًا شِرِّيرَةً . »

فَأَجابَ ڤان هِيلْسِينْغ في هُدُوءٍ : « لَعَلّي أَفْعَلُ ذٰلِكَ . »

قالَ ذٰلِكَ وَهُوَ يُشَكِّلُ مِنْ بَقِيَّةِ ٱلأَزْهارِ عِقْدًا ، ثُمَّ طَوَّقَ بِهِ عُنُقَ لُوسِي قائِلًا : « مَهْما يَكُنْ ما تَفْعَلينَهُ اللَّيْلَةَ فَلا تَفْتَحي النَّوافِذَ أَوِ ٱلبابَ وَلا تَنْزِعي عِقْدَ ٱلأَزْهارِ مِنْ حَوْلِ عُنُقِكِ . إِنَّها مَسْأَلَةُ حَياةٍ أَوْ مَوْتٍ ! »

وَفي ٱليَوْمِ التّالي وَصَلَ ڤان هِيلْسِينْغ إِلى ٱلْمُسْتَشْفى في السّاعَةِ الثّانِيَةِ لِكَيْ يَصْحَبَ دُكْتور سِيوارْد إِلى مَنْزِلِ وِسْتِنْرا ، حَيْثُ ٱسْتَقْبَلَتْهُما السَّيِّدَةُ وِسْتِنْرا . قالَتِ السَّيِّدَةُ : « آمُلُ أَنْ تَجِدَ لُوسِي أَحْسَنَ حالًا . لَقَدْ تَطَلَّعْتُ ٱلآنَ إِلى حُجْرَتِها فَوَجَدْتُ أَنَّها نائِمَةٌ نَوْمًا هادِئًا ، وَلِذٰلِكَ لَمْ أَشَأْ أَنْ أُوقِظَها . »

فَقالَ ٱلبُروفِيسور وَقَدْ بَدا عَلَيْهِ السُّرُورُ : « إِذًا فَعِلاجي يَسيرُ سَيْرًا مُرْضِيًا . »



فَرَدَّتِ السَّيِّدَةُ وِسْتِنْرا وَهِيَ تَبْتَسِمُ : « لَعَلَّهُ عِلاجي أنا . لَقَدْ ذَهَبْتُ إلى حُجْرَتِها في اللَّيْلَةِ الماضِيَةِ قَبْلَ أَنْ أَذْهَبَ لِلنَّوْمِ فَوَجَدْتُها تَنامُ في هُدُوءٍ . وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ هَواءٌ نَقِيٌّ في الحُجْرَةِ ، وَكانَتْ تَنْتَشِرُ فيها رائِحَةٌ نَفّاذَةٌ مُنْبَعِثَةٌ مِنْ بَعْضِ أَزْهارٍ حَوْلَ عُنُقِها ، فَفَكَّرْتُ أَنَّ ذٰلِكَ سَوْفَ يَضُرُّ بِالطِّفْلَةِ المِسْكينَةِ وَهِيَ في هٰذِهِ الحالِ مِنَ الضَّعْفِ ، لِذٰلِكَ اسْتَبْعَدْتُ الأَزْهارَ وَفَتَحْتُ النّافِذَةَ قَليلًا . أَعْتَقِدُ أَنَّكَ سَوْفَ تُسَرُّ حينَ تَراها . أنا واثِقَةٌ . »

وَما إنْ سَمِعَ ڤان هيلْسينْغ قَوْلَها حَتّى اكْتَسى وَجْهُهُ بِشُحوبٍ كَشُحوبِ المَوْتى ، وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ، وَلٰكِنَّ سيوارْد لاحَظَ أَنَّ الرَّجُلَ يُحاوِلُ أَنْ يُخْفِيَ مَشاعِرَهُ . كانَ البْروفيسور عَلى عِلْمٍ بِالحالِ الصِّحِّيَّةِ لِلسَّيِّدَةِ وِسْتِنْرا ، وَيَعْلَمُ الخَطَرَ الَّذي يَتَهَدَّدُها إذا فوجِئَتْ بِما يَصْدِمُها . وَلٰكِنْ ما إنْ غادَرَتِ الحُجْرَةَ حَتّى صَعِدا السُّلَّمَ وَثْبًا إلى حُجْرَةِ لوسي . وَبَيْنَما كانَ دُكْتور سيوارْد يُزيحُ السَّتائِرَ كانَ ڤان هيلْسينْغ يَنْحَني فَوْقَ لوسي الَّتي كانَتْ لا تَزالُ نائِمَةً . قالَ البْروفيسور وَهُوَ يَنْظُرُ إلى وَجْهِها الشّاحِبِ :

« هٰذا ما كُنْتُ أَخْشاهُ . وَلٰكِنَّها ، عَلى الأَقَلِّ ، لَمْ تَفْقِدِ الكَثيرَ في هٰذِهِ المَرَّةِ . جاك ، إنَّني مُضْطَرٌّ إلى العَوْدَةِ إلى أَمِسْتَردام اليَوْمَ . وَعَلَيْكَ أَنْ تَنامَ في هٰذا المَنْزِلِ كُلَّ لَيْلَةٍ ، وَسَوْفَ أَبْعَثُ بِصَناديقَ مِنْ أَزْهارِ الثّومِ الطّازَجَةِ كُلَّ يَوْمٍ ، فَافْعَلْ كَما فَعَلْتُ أنا في اللَّيْلَةِ الماضِيَةِ تَمامًا . سَوْفَ أَعودُ بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَيّامٍ أَوْ قَبْلَ ذٰلِكَ إذا دَعَتِ الحالُ ، فَقُمْ عَلى حِراسَتِها بِعِنايَةٍ . »

فَسَأَلَ سيوارْد : « عَلى حِراسَتِها ؟ أَحْرُسُها مِنْ ماذا ؟ أَوْ مِمَّنْ ؟ »

قالَ ذٰلِكَ وَهُوَ يَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ وَعَدَمِ الاطْمِئْنانِ ، فَقالَ البْروفيسور : « الأَحْسَنُ يا جاك أَنْ تَقولَ مِمَّنْ . لَقَدْ كُنْتَ دائِمًا طالِبًا حاضِرَ البَديهَةِ وَلٰكِنَّ أَمامَكَ الكَثيرَ مِمّا تَتَعَلَّمُهُ . »

قالَ هٰذا ثُمَّ ذَهَبَ .

الفَصْلُ الحادي عَشَرَ

كانَتِ الأَيّامُ القَليلَةُ التّالِيَةُ قاسِيَةً بِالنِّسْبَةِ لِلدُّكْتور جاك سيوارْد . كانَ يَقْضي وَقْتَهُ بَيْنَ المُسْتَشْفى نَهارًا وَهيلينْغدون لَيْلًا ، وَلَقَدْ كانَ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ تَكونَ المُهِمَّةُ أَيْسَرَ لَوْ أَنَّهُ كانَ يَعْلَمُ مِمَّ يَحْرُسُ لوسي ، وَلٰكِنَّ ڤان هيلْسينْغ لَمْ يَذْكُرْ لَهُ ما يُوَضِّحُ الأَمْرَ .

وَفي صَبيحَةِ كُلِّ يَوْمٍ كانَ صُنْدوقٌ مِنْ زُهورِ الثّومِ الطّازَجَةِ يَصِلُ مِنْ هولَنْده في بَريدٍ خاصٍّ ، وَكانَ سيوارْد يَفْعَلُ بِها مِثْلَما فَعَلَ البْروفيسور في أَوَّلِ لَيْلَةٍ تَمامًا . وَلَمْ يَكُنْ مَيّالًا إلى هٰذِهِ العَمَلِيَّةِ ؛ إذْ كانَتْ تَبْدو غَيْرَ قائِمَةٍ عَلى أَساسٍ عِلْمِيٍّ . وَكانَ الدُّكْتور سيوارْد مِنَ الأَطِبّاءِ الَّذينَ يَلْتَزِمونَ بِالعِلْمِ ، وَلٰكِنَّ الظَّواهِرَ كانَتْ تَدُلُّ عَلى أَنَّ العَمَلِيَّةَ مُجْدِيَةٌ ، فَقَدْ أَخَذَ وَجْهُ لوسي يَسْتَرِدُّ لَوْنَهُ الطَّبيعِيَّ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، بَلْ إنَّ الجُرْحَيْنِ الصَّغيرَيْنِ اللَّذَيْنِ في عُنُقِها أَخَذا يَلْتَئِمانِ . وَلٰكِنَّ اللَّيالِيَ كانَتْ مُرْهِقَةً لَهُ ، فَقَدِ اسْتَيْقَظَ عِدَّةَ مَرّاتٍ عَلى أَصْواتٍ غَريبَةٍ كانَ يَبْدو أَنَّها آتِيَةٌ مِنْ خارِجِ نافِذَةِ لوسي ، وَفي أَوَّلِ الأَمْرِ كانَ يَظُنُّ أَنَّهُ غُصْنُ شَجَرَةٍ يَحْتَكُّ بِالنّافِذَةِ بِسَبَبِ الرّيحِ ، وَلٰكِنَّهُ في اللَّيْلَةِ التّالِيَةِ تَأَكَّدَ أَنَّهُ لا توجَدُ شَجَرَةٌ ، وَكانَ الصَّوْتُ يَبْدو في بَعْضِ اللَّيالي أَشْبَهَ بِرَفْرَفَةِ أَجْنِحَةٍ .

وَكَذٰلِكَ كانَ رينْفيلْد سَبَبًا في بَعْضِ المَتاعِبِ ، فَفي أَحَدِ الأَيّامِ جاءَ في تَقْريرِ دُكْتور هينِسي مُساعِدِ الدُّكْتور سيوارْد أَنَّ رينْفيلْد قَدْ هاجَمَ رَجُلَيْنِ عَلى حينِ غَفْلَةٍ . كانَ يَسيرُ في الحَديقَةِ مَعَ المُمَرِّضِ المُكَلَّفِ بِرِعايَتِهِ حينَما لَمَحَ هٰذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يَسوقانِ عَرَبَةً في الطَّريقِ القادِمِ مِنْ كارْفاكْس فَانْقَضَّ عَلَيْهِما ، وَتَدَخَّلَ المُمَرِّضُ بِسُرْعَةٍ وَجَذَبَ رينْفيلْد بَعيدًا عَنِ الرَّجُلَيْنِ . وَرَأى الدُّكْتور هينِسي أَنَّهُ قَدْ يَكونُ مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ يَمْنَحَ الرَّجُلَيْنِ بَعْضَ النُّقودِ ، وَأَنْ يَحْتَفِظَ بِاسْمَيْهِما مِنْ قَبيلِ الاحْتِياطِ فيما لَوْ حَدَثَتْ فيما بَعْدُ أَيَّةُ مُشْكِلَةٍ .

وَفي وَقْتٍ مُبَكِّرٍ مِنْ إحْدى اللَّيالي كانَ سيوارْد يَجْلِسُ في مَكْتَبِهِ يُلْقي نَظْرَةً عَلى صَحيفَةِ المَساءِ قَبْلَ أَنْ يَذْهَبَ إلى هيلينْغدون كَعادَتِهِ . كانَ يَقْرَأُ في الصَّحيفَةِ قِصَّةَ ذِئْبٍ كانَ قَدْ هَرَبَ تَوًّا مِنْ حَديقَةِ الحَيَوانِ بِلَنْدَن ، وَكانَ النُّعاسُ يَكادُ يَغْلِبُهُ بِسَبَبِ الإرْهاقِ الَّذي حَلَّ بِهِ مِنْ كِتابَةِ التَّقاريرِ ، وَلِذٰلِكَ بَدا كَأَنَّما يَرى في المَنامِ الذِّئْبَ يَقْتَحِمُ الحُجْرَةَ . وَفَجْأَةً

فُتِحَ ٱلبابُ ، وَحَدَثَ اقتِحامٌ فِعْلًا — في ٱلحَقيقةِ لا في ٱلمَنامِ — لَمْ يَكُنِ ٱلمُقْتَحِمُ ذِئْبًا ، وَإِنَّما كانَ رِينْفِيلْد وَهُوَ يَبْدو في ضَراوَةِ ٱلذِّئْبِ ، وَفي يَدِهِ شَيْءٌ يَلْمَعُ . وَصاحَ سيوارْد : « آهِ يا إِلٰهي ! »

لَقَدْ كانَ رِينْفِيلْد يُمْسِكُ في يَدِهِ بِسِكِّينِ مَطْبَخٍ . وَحاوَلَ سيوارْد أَنْ يَجْعَلَ ٱلمِنْضَدَةَ حائِلًا بَيْنَهُما ، وَلٰكِنَّ رِينْفِيلْد كانَ أَسْرَعَ فَوَجَّهَ ضَرْبَةً إِلى ذِراعِهِ ٱليُسْرى ، فَبادَرَ سيوارْد وَٱلْتَقَطَ بِيُمْناهُ ٱلحَجَرَ ٱلثَّقيلَ ، ٱلَّذي يُثَبِّتُ بِهِ ٱلأَوْراقَ ، مِنْ فَوْقِ ٱلمَكْتَبِ وَبادَرَهُ بِضَرْبَةٍ بِهِ طَرَحَتْهُ أَرْضًا ، فَتَمَدَّدَ ٱلرَّجُلُ وَوَجْهُهُ إِلى ٱلأَرْضِ بَعْدَ أَنْ طارَ السِّكّينُ مِنْ يَدِهِ ، وَهٰكَذا ذَهَبَتْ لَحْظَةُ ٱلخَطَرِ . وَبَيْنَما كانَ سيوارْد واقِفًا في ذُهولٍ مِمّا حَدَثَ ، قابِضًا ذِراعَهُ ٱلمَجْروحَةَ ، سَمِعَ وَقْعَ أَقْدامِ رِجالِهِ وَهُمْ يَجْرونَ في ٱلدِّهْليزِ . كانَ يَشْعُرُ بِٱلأَلَمِ ، وَٱلدِّماءُ تَنْزِفُ مِنْ جُرْحِهِ عَلى ٱلأَرْضِ حَيْثُ يَرْقُدُ رِينْفِيلْد .

وَحينَما دَخَلَ ٱلحُرّاسُ ٱلحُجْرَةَ رَفَعَ رِينْفِيلْد رَأْسَهُ فَكَشَفَ فَمَهُ ٱلمُلَطَّخَ بِالدَّمِ ، إِذْ كانَ يَشْرَبُ — وَهُوَ مُلْقًى عَلى ٱلأَرْضِ — مِنْ دِماءِ الطَّبيبِ ٱلَّتي كانَتْ تَقْطُرُ فَوْقَ أَرْضِيَّةِ ٱلحُجْرَةِ . وَبَيْنَما كانوا يَقودونَهُ بَعيدًا كانَ يَصْرُخُ قائِلًا : « الدَّمُ هُوَ ٱلحَياةُ . »

وَغَشِيَ سيوارْد إِحْساسٌ بِٱلغَثَيانِ ، وَٱمْتَدَّتِ ٱلأَيْدي إِلَيْهِ لِتَحولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السُّقوطِ ، ثُمَّ غابَ عَنِ ٱلوَعْيِ فَلَمْ يَذْكُرْ شَيْئًا .

حينَما تَنَبَّهَ سيوارْد كانَ يَجْلِسُ في سَريرِهِ وَهُوَ يَشْعُرُ بِالضَّعْفِ وَٱلوَهْنِ . وَلَعَلَّهُ فَقَدَ مِنَ الدِّماءِ أَكْثَرَ مِمّا كانَ يَعْتَقِدُ ، وَلَمّا نَظَرَ في ساعَتِهِ وَجَدَ أَنَّها ٱلعاشِرَةُ ، وَهُوَ ٱلوَقْتُ ٱلَّذي كانَ يَنْبَغي أَنْ يَكونَ فيهِ في هِيلِينْغدون ، وَلٰكِنْ هَلْ عافِيَتُهُ تَسْمَحُ لَهُ بِالذَّهابِ ؟ وَدَخَلَ ٱلدُّكْتور هِينِسي ٱلحُجْرَةَ وَقالَ :

« هِيلِينْغدون ؟ مُسْتَحيلٌ ياعَزيزي سيوارْد . إِنَّهُ واجِبي ٱلَّذي لا مِراءَ فيهِ — كَطَبيبٍ — أَنْ أُخْبِرَكَ بِضَرورَةِ ٱلبَقاءِ في ٱلفِراشِ . »

وَأَخيرًا ٱتُّفِقَ أَنْ يَذْهَبَ ٱلدُّكْتور هِينِسي بِنَفْسِهِ إِلى هِيلِينْغدون ، قَبْلَ أَنْ يَنامَ ، لِيَزورَ مَنْزِلَ وِسْتِنْرا .

كانَ لابُدَّ أَنْ يَقْضِيَ شَخْصٌ مّا اللَّيْلَ هُناكَ . وَلٰكِنَّ سيوارْد لَمْ يَكُنْ يُريدُ أَنْ يَعْرِفَ هِينِسي ٱلكَثيرَ عَنْ حالَةِ لوسي ، إِذْ إِنَّ ٱلبروفيسور كانَ قَدْ أَعْطى تَعْليماتِهِ حينَ قالَ : « الَّذي حَدَثَ في هِيلِينْغدون يَجِبُ أَنْ يَبْقى سِرًّا لا يُذاعُ . » وَفَوْقَ هٰذا ، فَإِنَّ سيوارْد لَمْ يَشَأْ أَنْ يَعْرِفَ ٱلأَطِبّاءُ ٱلآخَرونَ شَيْئًا عَنْ هٰذا « السِّحْرِ » الَّذي يُمارَسُ عَنْ طَريقِ « زُهورِ الثّومِ » . وَلِذٰلِكَ ، وَرَغْبَةً في ٱلتَّسَتُّرِ طَلَبَ ٱلدُّكْتور هِينِسي أَنْ يُخْبِرَ لوسي بِأَنْ تَقومَ بِعَمَلِ ٱلإِجْراءاتِ ٱلمَعْهودَةِ ، عَلى أَمَلِ أَنْ تَفْهَمَ هِيَ ما يُريدُ .

لَمْ يَنَمْ سيوارْد في هٰذِهِ اللَّيْلَةِ نَوْمًا مُريحًا بِذِراعِهِ ٱلمَجْروحَةِ ، وَحينَما أَدْرَكَهُ النُّعاسُ أَخيرًا لَمْ يَهْنَأْ بِالرّاحَةِ إِلّا قَليلًا ، إِذْ إِنَّ بَرْقِيَّةً وَصَلَتْ في ساعَةٍ مُبَكِّرَةٍ . وَقالَ الصَّبِيُّ الَّذي حَمَلَها إِنَّ ٱلبَرْقِيَّةَ كانَ يَنْبَغي أَنْ تُسَلَّمَ في مَساءِ ٱليَوْمِ السّابِقِ لَوْلا أَنَّها أُرْسِلَتْ خَطَأً إِلى قَرْيَةٍ أُخْرى تَحْمِلُ نَفْسَ ٱلِاسْمِ . وَجاءَ في ٱلبَرْقِيَّةِ :

« اِحْرِصْ عَلى وُجودِكَ في هِيلِينْغدون اللَّيْلَةَ . إِنَّ ٱلأَمْرَ في غايَةِ ٱلأَهَمِّيَّةِ . سَوْفَ أَصِلُ مُبَكِّرًا في صَباحِ التّاسِعَ عَشَرَ . »

قان هِيلْسِينْغ

وَصاحَ سيوارْد : « يالَلسَّماءِ ! إِنَّهُ يَقْصِدُ اللَّيْلَةَ ٱلماضِيَةَ . تُرى ماذا كانَ قان هِيلْسِينْغ يَعْني ؟ » وَلَمْ يَنْتَظِرْ لِتَناوُلِ ٱلإِفْطارِ ، وَإِنَّما ٱسْتَقَلَّ ٱلعَرَبَةَ مُباشَرَةً إِلى هِيلِينْغدون . وَكانَ ٱلوَقْتُ لا يَزالُ مُبَكِّرًا ، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُوقِظَ لوسي أَوْ والِدَتَها ، وَلِذٰلِكَ دَقَّ ٱلجَرَسَ بِرِفْقٍ لَعَلَّ إِحْدى ٱلخادِماتِ تَسْمَعُهُ فَتَفْتَحَ لَهُ ٱلبابَ ، وَلٰكِنْ لَمْ تَكُنْ هُناكَ ٱسْتِجابَةٌ ، فَدَقَّ ٱلجَرَسَ مَرَّةً ثانِيَةً دونَ جَدْوى . فَدَسَّ أُذُنَهُ في صُنْدوقِ ٱلخِطاباتِ لَعَلَّهُ يَسْمَعُ أَوْ يَرى شَيْئًا ، وَلٰكِنَّ كُلَّ شَيْءٍ كانَ في صَمْتِ ٱلقُبورِ . فَأَحَسَّ في قَرارَةِ نَفْسِهِ أَنَّ أَمْرًا سَيِّئًا قَدْ حَدَثَ ، وَأَخَذَ يَدورُ حَوْلَ ٱلمَنْزِلِ لَعَلَّهُ يَجِدُ نافِذَةً مَفْتوحَةً . وَلٰكِنَّ تَعْليماتِ قان هِيلْسِينْغ كانَتْ تُنَفَّذُ بِدِقَّةٍ ، وَكُلُّ ٱلمَنافِذِ كانَتْ مُوصَدَةً بِعِنايَةٍ وَإِحْكامٍ . وَمازالَ حَتّى وَصَلَ إِلى حُجْرَةِ السَّيِّدَةِ وِسْتِنْرا الَّتي اخْتيرَتْ لِتَكونَ في الطّابَقِ ٱلأَرْضِيِّ لِكَيْ تَتَجَنَّبَ صُعودَ السُّلَّمِ لِمَرَضِها . وَفوجِئَ بِأَنَّ نافِذَةَ ٱلحُجْرَةِ مُحَطَّمَةٌ ، وَأَنَّ فَوْقَ زُجاجِها بَعْضَ قَطَراتٍ مِنَ

الدَّمِ ، وَأَنَّ هُناكَ آثارَ أَقْدامِ حَيَوانٍ في حَوضِ الزُّهورِ الَّذي يَقَعُ تَحتَ النّافِذَةِ ، وَمِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ تَكونَ آثارَ أَقْدامِ كَلْبٍ ، أَوْ لَعَلَّها ــ وَإِنْ بَدَتِ الفِكْرَةُ سَخيفَةً ــ آثارُ أَقْدامِ ذِئْبٍ .

وَأَخَذَ سيوارْد يَتَطَلَّعُ فيما حَوْلَهُ . وَكانَ الهُدوءُ يَسودُ المَنْزِلَ وَالحَديقَةَ بِطَريقَةٍ غَيْرِ عادِيَّةٍ . وَانْحَنى لِكَيْ يَتَأَمَّلَ في آثارِ الأَقْدامِ بِعِنايَةٍ أَكْثَر ، وَإِذا بِهِ يَسْمَعُ في نَفْسِ اللَّحْظَةِ صَوْتًا يَجيءُ مِنْ خَلْفِهِ ، فَهَبَّ واقِفًا ، مُتَأَهِّبًا لِلدِّفاعِ عَنْ نَفْسِهِ ، فَلَمْ يَجِدْ أَمامَهُ إِلّا ڤان هِلْسينْغ ، فَقَصَّ عَلَيْهِ في عِباراتٍ مُوجَزَةٍ ما حَدَثَ بِشَأْنِ رينْفيلْد وَالبَرْقِيَّةِ الَّتي تَلَقّاها .

قالَ ڤان هِلْسينْغ وَهُوَ يَضَعُ يَدَهُ خِلالَ النّافِذَةِ المُحَطَّمَةِ : « أَخْشى أَنْ نَكونَ قَدْ وَصَلْنا بَعْدَ فَواتِ الأَوانِ . »

ثُمَّ فَتَحَ النّافِذَةَ ، وَتَسَلَّقَ كِلاهُما واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ إِلى الدّاخِلِ . كانَتْ لوسي وَأُمُّها مُمَدَّدَتَيْنِ فَوْقَ السَّريرِ ، وَكانَتْ تَبْدو عَلى وَجْهِ السَّيِّدَةِ وِسْتِنْرا نَظْرَةُ رُعْبٍ رَهيبَةٍ لَمْ يَرَ سيوارْد مِثْلَها قَطُّ ، فَلَمّا جَسَّ يَدَها وَجَدَ أَنَّها مَيِّتَةٌ . وَكانَتْ تَقْبِضُ بِيَدِها الأُخْرى بِقُوَّةٍ عَلى عِقْدٍ مِنَ الزُّهورِ . وَلابُدَّ أَنَّها ــ في لَحْظَةِ فَزَعٍ ــ اسْتَطاعَتْ أَنْ تَصِلَ إِلى ابْنَتِها ، وَأَنْ تَمُدَّ يَدَها فَتَنْتَزِعَ الزُّهورَ الَّتي كانَتْ حَوْلَ عُنُقِها .

كانَتْ لوسي تَرْقُدُ بِجِوارِها ، وَكانَ الجُرْحانِ اللَّذانِ في عُنُقِها ، وَاللَّذانِ كانا قَدْ بَدَآ يَلْتَئِمانِ ، مَفْتوحَيْنِ عَلى سَعَةٍ ، وَفيهِما مَظْهَرُ الشَّيْءِ المَنْهوشِ . وَأَمْسَكَ ڤان هِلْسينْغ يَدَها وَوَضَعَ أُذُنَهُ مُلاصِقَةً لِصَدْرِها ، وَمَضَتِ الثَّواني كَأَنَّها ساعاتٌ قَبْلَ أَنْ يَهْتِفَ قائِلًا : « لَمْ يَفُتِ الأَوانُ بَعْدُ . أَسْرِعْ وَهاتِ بَعْضَ الكُحولِ . »

وَهَرَعَ سيوارْد إِلى حُجْرَةِ الطَّعامِ ، فَرَأى فيها مَنْظَرًا أَزالَ الدَّهْشَةَ الَّتي كانَتْ تَمَلَّكَتْهُ حينَ دَقَّ الجَرَسَ دونَ مُجيبٍ . رَأى الخادِماتِ مُمَدَّداتٍ عَلى الأَرْضِ ، فَانْحَنى فَوْقَهُنَّ لِيَشُمَّ رائِحَةَ أَنْفاسِهِنَّ ، فَاكْتَشَفَ أَنَّ مُخَدِّرًا قَدْ وُضِعَ في شَرابِهِنَّ فَجَعَلَهُنَّ يَسْتَغْرِقْنَ في النَّوْمِ . وَأَخَذَ سيوارْد زُجاجَةً وَعادَ إِلى حُجْرَةِ النَّوْمِ حَيْثُ أَخَذَ ڤان هِلْسينْغ يُدَلِّكُ بِالسّائِلِ

يَدَيْ لوسي وَذِراعَيْها وَوَجْهَها ، وَحينَئِذٍ أَخْبَرَهُ سيوارْد بِما حَدَثَ لِلْخادِماتِ ، فَقالَ لَهُ ڤان هِلْسينْغ :

« اذْهَبْ فَنَبِّهْهُنَّ ، فَنَحْنُ في حاجَةٍ إِلى ماءٍ ساخِنٍ ، إِذْ لابُدَّ أَنْ تَبْقى لوسي دافِئَةً ، ثُمَّ اسْتَدْعِ السَّيِّدَ هولْموود فَرُبَّما اسْتَطَعْنا أَنْ نُنْقِذَها . وَلٰكِنْ يَنْبَغي أَنْ يَكونَ مُسْتَعِدًّا لِلأَسْوَإِ . »

وَلَمّا كانَتْ لوسي في حالَةِ إِعْياءٍ شَديدٍ فَقَدْ رَأى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ مَصْلَحَتِها أَنْ يَنْقُلَ إِلَيْها دَمًا طازَجًا ، وَلِذٰلِكَ آثَرَ أَنْ يَتْرُكَها في نَوْمِها ، وَجَلَسَ سيوارْد يُراقِبُها . وَكانَ مِنَ الغَريبِ أَنَّ هُزالَها جَعَلَ أَسْنانَها تَبْدو أَطْوَلَ وَأَحَدَّ مِمّا كانَتْ مِنْ قَبْلُ . وَلٰكِنْ حينَما فَتَحَتْ عَيْنَيْها أَخيرًا بَدَتِ الفَتاةَ الشّابَّةَ البَديعَةَ الَّتي كانَ يَعْرِفُها وَيُحِبُّها .

كانَ آرْثَر شُجاعًا ، فَقَدْ جَلَسَ مَعَ لوسي طَوالَ الوَقْتِ وَلَمْ تَكْشِفْ مَلامِحُ وَجْهِهِ عَمّا كانَ يَعْتَلِجُ في قَلْبِهِ مِنْ حُزْنٍ وَأَسًى . وَدَخَلَ ڤان هِلْسينْغ بَعْدَ ذٰلِكَ وَطَلَبَ مِنْهُ الذَّهابَ إِلى حُجْرَةِ الجُلوسِ لِيُحاوِلَ أَنْ يَأْخُذَ قِسْطًا مِنَ النَّوْمِ ، عَلى حينَ بَقِيَ سيوارْد مَعَ لوسي .

وَفي حَوالَى السّاعَةِ السّادِسَةِ صَباحًا دَخَلَ ڤان هِلْسينْغ حَتّى يُتيحَ لَهُ فُرْصَةً لِلرّاحَةِ ، ثُمَّ حَلَّ المِنْديلَ الحَريرِيَّ الَّذي كانَ قَدْ عَقَدَهُ حَوْلَ عُنُقِها وَهَتَفَ : « اُنْظُرْ . »

وَتَطَلَّعَ سيوارْد إِلَيْها فَتَمَلَّكَهُ شُعورٌ غَريبٌ بارِدٌ ، إِذْ رَأى أَنَّ الجُرْحَيْنِ اللَّذَيْنِ كانا حَوْلَ عُنُقِها قَدِ اخْتَفَيا تَمامًا ، فَقالَ ڤان هِلْسينْغ في أَسًى : « إِنَّها تَموتُ الآنَ . إِنَّها لَحَظاتٌ وَتُفارِقُ الحَياةَ . اذْهَبْ فَأَيْقِظْ صَديقَها الشّابَّ حَتّى يَكونَ بِجِوارِها في هٰذِهِ اللَّحْظَةِ . »

وَأَخَذَ ڤان هِلْسينْغ ــ بِما يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ كِياسَةٍ وَتَقْديرٍ ــ يُسَرِّحُ شَعْرَها حَتّى أَصْبَحَ مُرْسَلًا حَوْلَ رَأْسِها في مَوْجاتٍ ذَهَبِيَّةٍ ، وَحينَما جاءَ آرْثَر فَتَحَتْ عَيْنَيْها وَقالَتْ في صَوْتٍ خافِتٍ : « آرْثَر يا حَبيبي ! »

فَانْحَنى آرْثَر لِيُقَبِّلَها ، وَلٰكِنَّ ڤان هِلْسينْغ الَّذي كانَ يُراقِبُهُ عَنْ كَثَبٍ سارَعَ فَأَوْقَفَهُ قائِلًا : « لا ! لَيْسَ الآنَ ! أَمْسِكْ بِيَدِها فَقَطْ . »

وَأَغْمَضَتْ لُوسي عَيْنَيْها ، وَبَدا عَلَيْها النُّعاسُ ، وَلاحَظَ سيوارْد لِلْمَرَّةِ الثّانِيَةِ التَّغَيُّراتِ الغَريبَةَ الَّتي كانَتْ قَدْ طَرَأَتْ عَلَيْها في أَثْناءِ اللَّيْلِ : اَلْجِلْدَ الْمَشْدودَ ، وَالْفَمَ الْمَفْتوحَ ، وَالأَسْنانَ الطَّويلَةَ الحادَّةَ .

ثُمَّ تَكَلَّمَتْ لُوسي ثانِيَةً في صَوْتٍ ناعِسٍ رَقيقٍ : « أَرْثَر ، قَبِّلْني . »

وَعِنْدَما انْحَنى أَرْثَر عَلَيْها فَتَحَتْ عَيْنَيْها ، وَعِنْدَما رَأى سيوارْد كَيْفَ أَصْبَحَتْ عَيْناها أُصيبَ بِصَدْمَةٍ فَقَدْ أَصْبَحَتا جامِدَتَيْنِ مُتَحَجِّرَتَيْنِ . أَمَّا فان هيلْسينْغ فَقَدْ لاحَظَ شَيْئًا جَعَلَهُ يُسارِعُ إلى أَرْثَر قَبْلَ أَنْ يُقَبِّلَها فَيَجْذِبَهُ إلى الوَراءِ بِكُلِّ ما أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ وهُوَ يَهْتِفُ : « لا مِنْ أَجْلِ حَياتِكِ ! مِنْ أَجْلِ رُوحِكَ الحَيَّةِ ! »

كانَ سيوارْد يُرَكِّزُ عَيْنَيْهِ عَلى وَجْهِ لُوسي ، فَشاهَدَ ظِلًّا مِنَ الغَضَبِ يَمُرُّ عَبْرَ وَجْهِها ، وَرَأى أَسْنانَها الحادَّةَ تَنْطَبِقُ . وَلَمْ تَمْضِ إلّا هُنَيْهَةٌ حَتّى عادَتْ إلى ما كانَتْ عَلَيْهِ : الْفَتاةَ الشّاحِبَةَ الْمَنْهوكَةَ الْمُشْرِفَةَ عَلى الْمَوْتِ . وَحاوَلَتْ أَنْ تَبْتَسِمَ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَكُنْ تَمْلِكُ القُوَّةَ لِتَبْتَسِمَ . كانَ الأَمْرُ كَما لَوْ أَنَّ هُناكَ اثْنَتَيْنِ مِنْ لُوسي تَعيشانِ في بَدَنٍ واحِدٍ .

وَقالَ فان هيلْسينْغ في صَوْتٍ رَقيقٍ لِأَرْثَر : « تَعالَ يابُنَيَّ ، خُذْ يَدَها في يَدِكَ وَقَبِّلْها الآنَ ، وَلٰكِنْ لَيْسَ فِي الشَّفَتَيْنِ وَلْتَكُنْ قُبْلَةً واحِدَةً . »

وَفَعَلَ أَرْثَر كَما قالَ ، وَما لَبِثَتْ أَجفانُ لُوسي أَنِ انْطَبَقَتْ ، وَصارَ تَنَفُّسُها ثَقيلًا ، حَتّى تَوَقَّفَتْ أَنْفاسُها أَخيرًا .

وَقالَ سيوارْد في صَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ : « لَقَدِ انْتَهى كُلُّ شَيْءٍ . »

فَرَدَّ فان هيلْسينْغ : « لا ! كُنْتُ أَتَمَنّى أَنْ تَكونَ هٰذِهِ هِيَ النِّهايَةَ ، وَلٰكِنَّها ــ فَقَطْ ــ مُجَرَّدُ بِدايَةٍ . »

الفَصْلُ الثّاني عَشَرَ

لَمْ يَكُنْ لِلُوسي وَأُمِّها أُسْرَةٌ تَتَوَلّى شُؤُونَ الجِنازَةِ ، وَقَدْ وافَقَ مُحاميها عَنْ طِيبِ خاطِرٍ عَلى أَنْ يَقومَ الدُّكْتور سيوارْد بِهٰذِهِ الْمُهِمَّةِ ، وَحُدِّدَ لَها اليَوْمُ التّالي . وَحَتّى حُلولِ ميعادِ الجِنازَةِ كانَتْ لُوسي تَرْقُدُ في حُجْرَتِها بَيْنَ طاقاتٍ كَثيرَةٍ مِنَ الزُّهورِ البَيْضاءِ وَشُموعٍ بَيْضاءَ طَويلَةٍ ، وَقَدْ عادَ إِلَيْها بَعْدَ مَوْتِها كُلُّ ما كانَتْ تَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ جَمالٍ . بَلْ إِنَّها كانَتْ أَجْمَلَ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَذْوِيَ جَسَدُها بِالْمَوْتِ ، كانَ ــ كُلَّما مَضَتِ السّاعاتُ ــ يَبْدو وَكَأَنَّهُ يَعودُ إلى الحَياةِ .



وَفِي هٰذا ٱلْمَساءِ ، وَبَيْنَما كانَ سِيوارْد يَقِفُ مع ڤان هِلْسِينْغ أَمامَ ٱلْجُثَّةِ تَصِلُ إِلَيْهِما الرّائِحة ٱلْعَطِرَةُ ٱلَّتي تَنْشُرُها ٱلْأَزْهارُ وَٱلشُّموعُ ٱلْمُحْتَرِقَةُ ، قالَ سِيوارْد : « أَنا لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُصَدِّقَ أَنَّني أَنْظُرُ إِلى جَسَدٍ مَيِّتٍ . »

فَرَدَّ ڤان هِلْسِينْغ : « لَعَلَّ مِنَ ٱلْخَيْرِ أَنْ تُفَكِّرَ فِي ٱلْأَمْرِ هٰكَذا . »

وَتَرَكَ ڤان هِلْسِينْغ ٱلْحُجْرَةَ ، ثُمَّ عادَ وَمَعَهُ صُنْدوقُ أَزْهارِ ٱلثُّومِ ٱلَّذي وَصَلَ ذٰلِكَ الصَّباحَ مِنْ هولَنْده كَٱلعادَةِ ، وَقالَ : « إِنَّ واجِبَنا نَحْوَها لَمْ يَنْتَهِ بِٱلْمَوْتِ . »

وَصَلَ آرْثَر مُبَكِّرًا في صَباحِ يَوْمِ ٱلْجِنازَةِ ، وَكانَتْ رُوحُهُ ٱلْمَعْنَوِيَّةُ في غايَةِ السُّوءِ ، وَكانَ في أَشَدِّ ٱلحاجَةِ لِكُلِّ عَوْنٍ يُمْكِنُ أَنْ يُقَدِّمَهُ أَصْدِقاؤُهُ . دَخَلَ مَعَهُمْ لِكَيْ يَرَى لُوسي ، وَأَخَذَتْهُ الدَّهْشَةُ لِلْمَرَّةِ ٱلثّانِيَةِ مِنْ مَظْهَرِها . فَلَقَدْ بَدا جَمالُها رائِعًا ، حَتَّى لَيُمْكِنُ ٱلْقَوْلُ إِنَّهُ كانَ رائِعًا بِطَريقَةٍ تُثيرُ ٱلْخَوْفَ .

وَفي هٰذا الصَّباحِ وَصَلَتْ رِسالَةٌ مُعَنْوَنَةٌ بِاسْمِ لُوسي ، وَعَرَفَ آرْثَر أَنَّها بِخَطِّ مِينا فَفَتَحَها وَقَرَأَها عَلَيْهِما . وَٱلواقِعُ أَنَّها لَمْ تَتَضَمَّنِ ٱلْكَثيرَ ، فيما عَدا أَنَّ مِينا تَزَوَّجَتْ في بُودابِست ، وَأَنَّها عادَتْ هِيَ وجوناثان إِلى إِكْسْتَر .

وَلٰكِنَّ ڤان هِلْسِينْغ أَبْدَى اهْتِمامًا وَقالَ : « لابُدَّ أَنْ أُقابِلَها ، وَسَوْفَ أَطْلُبُ مِنْها ٱلْحُضورَ إِلى لَنْدَن ، فَلَعَلَّها تَسْتَطيعُ أَنْ تُخْبِرَني بِأَشْياءَ أُريدُ مَعْرِفَتَها . »

أَمّا مِنْ حَيْثُ جِنازَةِ لُوسي وَأُمِّها فَلَيْسَ هُناكَ ٱلْكَثيرُ ٱلَّذي يُقالُ ، فَبَعْدَ أَنْ دُفِنَتا في مَقْبَرَةِ أُسْرَةِ وِسْتِنْرا عادَ آرْثَر إِلى لَنْدَن لِرِعايَةِ والِدِهِ ، وَعادَ ٱلدُّكْتور سِيوارْد إِلى ٱلْمُسْتَشْفى . أَمّا ڤان هِلْسِينْغ فَقَدْ كانَ مِنَ ٱلغَريبِ أَنَّهُ ـــ بِالرَّغْمِ مِنْ كَثْرَةِ مَشاغِلِهِ ـــ لَمْ يَكُنْ راغِبًا في ٱلعَوْدَةِ إِلى أَمِسْتِردام .

وَسَأَلَ سِيوارْد عَمّا إِذا كانَ مِنَ ٱلْمُمْكِنِ أَنْ يُقيمَ مَعَهُ فَتْرَةً ، وَقالَ إِنَّهُ يَأْمُلُ أَنْ يُدَبِّرَ لِقاءً مَعَ مِينا . وَلٰكِنَّ سِيوارْد أَحَسَّ أَنَّ هٰذا لَمْ يَكُنِ السَّبَبَ ٱلوَحيدَ في رَغْبَتِهِ في ٱلإِقامَةِ ، وَتَساءَلَ في نَفْسِهِ : « أَتُراهُ يَرْغَبُ في ٱلانْتِظارِ لِأَنَّهُ يَتَوَقَّعُ حُدوثَ شَيْءٍ ؟ »

وَفِعْلًا حَدَثَ شَيْءٌ بَعْدَ أُسْبوعٍ مِنَ ٱلْجِنازَةِ . شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ يَمَسُّ حَياتَهُمْ مِنْ أَيَّةِ ناحِيَةٍ ، وَإِنَّما بَدا ذا أَهَمِّيَّةٍ لِڤان هِلْسِينْغ .

كانا يَجْلِسانِ في مَكْتَبِ الدُّكْتور سِيوارْد ذاتَ مَساءٍ يَتَناوَلانِ الشّايَ في هُدوءٍ كَٱلعادَةِ ، وَكانَ الطَّبيبُ يَقْرَأُ صَحيفَةَ لَنْدن ٱلْمَسائِيَّةَ ٱلَّتي كانَ يُحِبُّ ٱلاطِّلاعَ عَلَيْها في هٰذا ٱلوَقْتِ كُلَّ لَيْلَةٍ ، وَسَأَلَ سِيوارْد :

« هَلْ قَرَأْتَ عَنْ حَوادِثِ ٱلاعْتِداءِ عَلى ٱلْأَطْفالِ ٱلَّتي وَقَعَتْ في لَنْدن يابْروفيسور ؟ يَبْدو أَنَّ عَدَدًا مِنَ ٱلْأَطْفالِ في شَمالِ لَنْدن قَدِ اخْتَفوا وَهُمْ يَلْعَبونَ ، وَكانَ يُعْثَرُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ بِضْعِ ساعاتٍ ، وَفي مُنْتَصَفِ ٱللَّيْلِ غالِبًا ، وَهُمْ في حالَةٍ مِنَ الشُّحوبِ وَٱلإِعْياءِ يُرْثَى لَها ، وَفي أَعْناقِهِمْ جُروحٌ . »

وَكَرَّرَ سِيوارْد ٱلعِبارَةَ ٱلْأَخيرَةَ « وَفي أَعْناقِهِمْ جُروحٌ » ثُمَّ سَأَلَ : « أَلَيْسَ هٰذا مُثيرًا ؟ » وواصَلَ كَلامَهُ : « وَكانَ كُلٌّ مِنَ ٱلْأَطْفالِ يَقولُ ـــ بَعْدَ أَنْ يُفيقَ ـــ إِنَّهُ قابَلَ سَيِّدَةً ، وَإِنَّها كانَتْ تَأْخُذُهُ لِيَتَمَشَّى مَعَها ، وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ أَيٌّ مِنْ هٰؤُلاءِ ٱلْأَطْفالِ يَسْتَطيعُ أَنْ يَتَذَكَّرَ ما حَدَثَ لَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ . »

وَتَناوَلَ ڤان هِلْسِينْغ الصَّحيفَةَ وَقَرَأَ ٱلقِصَّةَ كامِلَةً بِعِنايَةٍ ثُمَّ سَأَلَ : « ما رَأْيُكَ في هٰذا ٱلْمَوْضوعِ ؟ »

فَأَجابَ سِيوارْد : « لَيْسَتْ لَدَيَّ فِكْرَةٌ ، فيما عَدا أَنَّ ٱلحالَةَ تَبْدو أَشْبَهَ قَليلًا بِحالَةِ لُوسي . »

فَقالَ هِلْسِينْغ : « أَشْبَهُ قَليلًا فَقَطْ ؟ هَلْ تَقْصِدُ أَيُّها الصَّديقُ أَنَّكَ ـــ بَعْدَ كُلِّ ما رَأَيْتَهُ ـــ لا تَزالُ لَيْسَتْ لَدَيْكَ فِكْرَةٌ عَنْ كَيْفِيَّةِ مَوْتِ لُوسي ٱلْمِسْكينَةِ ؟ »

قالَ سِيوارْد : « لَقَدْ ماتَتْ نَتيجَةً لِما فَقَدَتْهُ مِنْ دِماءٍ . »

قالَ ڤان هِلْسِينْغ : « وَكَيْفَ فَقَدَتْ دِماءَها ؟ »

سَكَتَ سِيوارْد ، فَقالَ ڤان هِلْسِينْغ : « إِنَّكَ رَجُلٌ ذَكِيٌّ ياصَديقي ، وَلٰكِنَّكَ تَنْظُرُ

إلى الحياةِ نَظْرةً ضيِّقةً . إنَّكَ تَظُنُّ أنَّ العِلْمَ يقدِّمُ لنا إجاباتٍ عَنْ كُلِّ شيْءٍ ، ولٰكِنَّكَ مُخْطِئٌ . فهُناكَ أشياءُ كثيرةٌ لا يَستطيعُ العِلْمُ أنْ يَصِلَ إليْها ، وأنْتَ لا تُريدُ أنْ تَراها . إنَّ كُلًّا مِنْ لُوسي وهٰؤُلاءِ الأطْفالِ فقَدوا دِماءَهُمْ بِسَبَبِ الجُروحِ الَّتي في أعْناقِهِمْ . والآنَ أخْبِرْني ، مَنِ الَّذي أحْدَثَ هٰذِهِ الجُروحَ ؟ »

قالَ سِيوارْد : « لَقَدْ سَمِعْتُ عَنْ خَفافيشَ في أمْريكا الجَنوبيَّةِ تَمْتَصُّ دِماءَ النّاسِ أوِ الحَيواناتِ في أثْناءِ نَوْمِهِمْ بِهٰذِهِ الطَّريقةِ ، ولٰكِنْ لَيْسَ لَدَيْنا في إنْجِلْترا مِثْلُ هٰذِهِ الخَفافيشِ . »

فقالَ فان هِيلْسِينْغ : « أصَبْتَ ياصَديقي جاك ، ولٰكِنْ إذا لَمْ يَكُنِ الَّذي امْتَصَّ دِماءَ لُوسي مِنَ الخَفافيشِ مَصّاصةِ الدِّماءِ ، فَماذا يَكونُ إذًا ؟ »

فلاذَ سِيوارْد بالصَّمْتِ لَحْظةً ، ثُمَّ اسْتَدارَ بِوَجْهٍ شاحِبٍ كَسيفٍ نَحْوَ فان هِيلْسِينْغ وقالَ : « أتُريدُني أنْ أعْتَقِدَ أنَّ مَصّاصَ دِماءٍ .. أنَّ رَجُلًا مَصّاصَ دِماءٍ هُوَ الَّذي أحْدَثَ هٰذِهِ الجُروحَ ؟ ولٰكِنَّني لا أُومِنُ بِوُجودِ مَصّاصينَ لِلدِّماءِ مِنَ البَشَرِ . إنَّنا لا نَعيشُ في عالَمِ الأساطيرِ والقِصَصِ الخُرافيَّةِ . إنَّهُ لا يَعْتَقِدُ في أشْياءَ كَهٰذِهِ إلّا مَجْنونٌ . »

فنَظَرَ فان هِيلْسِينْغ إلى سِيوارْد مَحْزونًا وقالَ : « كُنْتُ أتَمَنّى أنْ أكونَ مَجْنونًا ولا أُضْطَرَّ إلى القَوْلِ بأنَّ لُوسي قَدْ قُتِلَتْ حَقيقةً بِيَدِ مَصّاصِ دِماءٍ . ولٰكِنْ ، لَيْسَ هٰذا كُلَّ شَيْءٍ . » وهُنا غَطّى وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ كَما لَوْ كانَ غَيْرَ راغِبٍ في الاسْتِمْرارِ في الحَديثِ ، ثُمَّ قالَ :

« لا تَظُنَّ أنَّ مَصّاصَ الدِّماءِ الَّذي شَرِبَ دِماءَ هٰؤُلاءِ الأطْفالِ هُوَ نَفْسُ مَصّاصِ الدِّماءِ الَّذي شَرِبَ دَمَ لُوسي . »

فقالَ سِيوارْد : « ماذا تَعْني يابُروفيسور ؟ »

فأجابَ : « أعْني ياذُكْتور سِيوارْد أنَّ مَصّاصَ الدِّماءِ الَّذي اعْتَدى عَلى هٰؤُلاءِ الأطْفالِ هُوَ لُوسي نَفْسُها ! »

اَلْقِسْمُ الرّابِعُ

لـــنــدن

اَلْفَصْلُ الثّالِثَ عَشَرَ

أخَذَ فان هِيلْسِينْغ يَنْظُرُ إلى الدُّكْتور سِيوارْد فتَصْطَدِمُ نَظَراتُهُ مُباشَرةً بِعَيْنَيْنِ غاضِبَتَيْنِ ، إذْ لَمْ يَكُنْ يَسيرًا عَلى سِيوارْد أنْ يَتَقَبَّلَ عَقْلُهُ بِسُهولةٍ فِكْرةَ أنَّ الفَتاةَ الَّتي أحَبَّها يَوْمًا مَصّاصةُ دِماءٍ تُهاجِمُ صِغارَ الأطْفالِ لِتَشْرَبَ دِماءَهُمْ . وكانَ فان هِيلْسِينْغ واثِقًا أنَّهُ لَيْسَ في مَكْتَبةِ الدُّكْتور سِيوارْد أيُّ مَرْجِعٍ يَتَضَمَّنُ مَعْلوماتٍ عَنْ مَصّاصي الدِّماءِ ، ولٰكِنَّ هٰذا لا يَعْني أنَّهُمْ غَيْرُ مَوْجودينَ . إنَّهُمْ مَوْجودونَ ، وعَلى فان هِيلْسِينْغ أنْ يُثْبِتَ ذٰلِكَ . صَحيحٌ أنَّ هُناكَ الكَثيرَ الَّذي لا يَعْرِفُهُ هُوَ نَفْسُهُ عَنْ هٰذا المَوْضوعِ بَعْدُ ، ولٰكِنَّ هُناكَ حَقيقةً مُؤْلِمةً واضِحةً لَهُ وهِيَ أنَّهُ كانَ هُناكَ في البيئةِ الَّتي تُحيطُ بِهِمْ مَصّاصُ دِماءٍ واحِدٌ ، أمّا الآنَ فقَدْ أصْبَحَ هُناكَ اثْنانِ ، وفي الأُسْبوعِ القادِمِ أوِ الشَّهْرِ القادِمِ قَدْ يُصْبِحُ هُناكَ ثَلاثةٌ أوْ أرْبَعةٌ أوْ خَمْسةٌ ، وهُوَ الوَحيدُ « أبراهام فان هِيلْسِينْغ مِنْ أمِسْتِردام » الَّذي يَسْتَطيعُ أنْ يُوقِفَ هٰذا التَّكاثُرَ ، ولٰكِنَّهُ في حاجةٍ إلى مَنْ يُعاوِنُهُ .

قالَ فان هِيلْسِينْغ في رِقَّةٍ : « ياصَديقي ، إنَّ الحَقيقةَ قَدْ يَكونُ حَمْلُها شاقًّا ، وأنا لا أتَوَقَّعُ — وأنْتَ أحَدُ العُلَماءِ — أنَّهُ يُمْكِنُكَ أنْ تُصَدِّقَ شَيْئًا بِدونِ بُرْهانٍ ، ولٰكِنَّني أسْتَطيعُ أنْ أُقَدِّمَ لَكَ هٰذا البُرْهانَ إذا جِئْتَ مَعي . »

فسَأَلَهُ سِيوارْد في ارْتِيابٍ : « إلى أيْنَ ؟ »

فأجابَ فان هِيلْسِينْغ : « أوَّلًا إلى مُسْتَشْفى شَمالِ لَنْدَن لِكَيْ نَرى أحَدَ الأطْفالِ . »

فسَأَلَهُ سِيوارْد : « وبَعْدَ ذٰلِكَ ؟ »

فكانَ جَوابُ فان هِيلْسِينْغ أنْ أخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ مِفْتاحًا كَبيرًا ورَفَعَهُ في يَدِهِ ، ولَمْ يَكَدْ سِيوارْد يَرى المِفْتاحَ حَتّى شَحَبَ لَوْنُهُ ، فقَدْ كانَ مِفْتاحَ المَقْبَرةِ ، وقالَ في صَوْتٍ خافِتٍ :

« لا لَيسَ إلى هُناكَ ؟ لَمْ يَمضِ على مَوْتِها إلّا أُسبوعٌ ! كانَ مِنَ المُمكِنِ أنْ أزورَ المَقْبرَةَ لَوْ أنَّ المَيِّتَ شَخصٌ آخرُ ، أمّا هِيَ فلا . لَقَدْ كانَتْ جَميلةً وَهِيَ مَيّتةٌ ، وأنا أُحِبُّ أنْ أحتَفِظَ بِذِكْراها وَهِيَ على هٰذِهِ الصُّورةِ ، لا على الصُّورةِ الَّتي أَصْبَحَتْ عَلَيْها الآنَ . »

فَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « ياصَديقي إنَّهُ بِسَبَبِ حُبِّكَ لَها أَطْلُبُ مِنْكَ الآنَ أنْ تَأتِيَ مَعِي . وَإذا لَمْ نَكُنْ قَدِ اسْتَطَعْنا أنْ نُنْقِذَ حَياتَها ، فَمِنَ الواجِبِ عَلَيْنا الآنَ ــ عَلى الأقَلِّ ــ أنْ نُحاوِلَ إنْقاذَ رُوحِها . »

وَصَلَ ڤان هِيلْسِينْغ والدُّكْتور سِيوارْد إلى المُسْتَشْفى حَوالَى السّاعةِ السّادِسةِ . وَكانَ الطِّفْلُ في تَحَسُّنٍ مُسْتَمِرٍّ . وَكَشَفَ الطَّبيبُ الَّذي يَتَوَلّى عِلاجَهُ عَنْ عُنُقِهِ ، وَأراهُما آثارَ الجُروحِ فيهِ ، وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ أَيُّ شَكٍّ في أنَّها كانَتْ تُشْبِهُ تِلْكَ الَّتي كانَتْ في عُنُقِ لُوسي . وَلَمّا سَأَلَ ڤان هِيلْسِينْغ الطَّبيبَ عَنْ رَأْيِهِ في سَبَبِ حُدوثِ هٰذِهِ الآثارِ أَجابَ :

« لا يُمْكِنُ إلّا أنْ يَكونَ حَيَوانًا ما ، كالفَأْرِ مَثَلًا . كَما يُمْكِنُ أنْ يَكونَ خُفّاشًا ، وَلٰكِنْ لَيْسَ بِالطَّبْعِ مِنَ الخَفافيشِ المَحَلِّيَّةِ ، وَإنَّما مِنْ نَوْعٍ أَجْنَبِيٍّ ، فَهُناكَ كَثيرٌ مِنَ النّاسِ يُحْضِرونَ إلى إنْجِلْترا حَيَواناتٍ غَريبةً مِنْ أَنْحاءٍ مُخْتَلِفةٍ مِنَ العالَمِ ، بَلْ يُمْكِنُ أنْ يَكونَ حَيَوانًا هارِبًا مِنْ حَديقةِ الحَيَوانِ . نَعَمْ ، فَمُنْذُ أُسْبوعٍ أوْ أُسْبوعَيْنِ فَقَطْ هَرَبَ مِنْهُمْ ذِئْبٌ ، أَعْتَقِدُ أنَّهُمْ مُهْمِلونَ غايةَ الإهْمالِ . »

كانَتِ الشَّمْسُ تَميلُ لِلْغُروبِ حِينَما غادَرا المُسْتَشْفى وَتَوَجَّها نَحْوَ هامِسْتِد ، الَّتي تَقَعُ عَلى رَبْوةٍ تُطِلُّ عَلى لَنْدَن مِنَ الشَّمالِ . سارا في شَوارِعَ خالِيةٍ مُظْلِمةٍ حَتّى بَلَغا زُقاقًا صَغيرًا في أَحَدِ جانِبَيْهِ جِدارٌ . وَتَطَلَّعا حَوْلَهُما فَلَمّا لَمْ يَجِدا أَحَدًا في الزُّقاقِ تَسَلَّقا الجِدارَ إلى حَيْثُ تُوجَدُ المَقابِرُ .

كانَ ڤان هِيلْسِينْغ يَعْرِفُ وِجْهَتَهُ تَمامًا ، وَما هِيَ إلّا لَحَظاتٌ حَتّى كانَ الرَّجُلانِ يَقِفانِ أَمامَ مَقْبَرةِ وِسْتِنْرا . فَأَشْعَلَ البُروفيسور شَمْعةً وَفَتَحَ البابَ ، ثُمَّ انْحَنى جانِبًا وَأَشارَ بِيَدِهِ لِلدُّكْتور سِيوارْد ــ مُجامَلةً مِنْهُ وَتَأَدُّبًا ــ لِكَيْ يَدْخُلَ أَوَّلًا . وَبَدا عَلى وَجْهِ سِيوارْد أنَّهُ

يُرَحِّبُ بِهٰذِهِ اللَّفْتةِ مِنَ التَّأَدُّبِ وَحُسْنِ السُّلوكِ ، وَلٰكِنْ لَمْ يَسَعْهُ إلّا الامْتِثالُ فَأَخَذَ الشَّمْعةَ وَدَخَلَ .

كانَتِ المَقْبَرةُ ــ عِنْدَما شاهَداها في المَرَّةِ السّابِقةِ حِينَ دُفِنَتْ لُوسي ــ مَكانًا مُقْبِضًا عَلى الرَّغْمِ مِنْ أنَّ ذٰلِكَ كانَ في ضَوْءِ النَّهارِ ، وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ عَبَقِ الزُّهورِ النَّضِرةِ آنَذاكَ ، فَكَيْفَ يَكونُ الحالُ وَقَدْ ذَبُلَتِ الزُّهورُ وَحالَ لَوْنُها ؟ وَكَيْفَ يَكونُ بَعْدَ أنْ فَقَدَتِ الفِضّةُ وَالنُّحاسُ وَالتَّصاويرُ الَّتي تُوَشّي تابوتَ لُوسي بَريقَها ؟ وَسَأَلَ سِيوارْد : « ماذا تَعْتَزِمُ أنْ تَفْعَلَ ؟ »

فَأَجابَ البُروفيسور : « راقِبْ ، وَسَوْفَ تَرى . »

ثُمَّ فَتَحَ التّابوتَ مِنْ أَعْلاهُ ، وَكانَ تَحْتَ الفُتْحةِ غِطاءٌ مِنَ الرَّصاصِ يُحيطُ بِالجُثّةِ تَمامًا . وَكانَ البُروفيسور قَدْ أَخَذَ أُهْبَتَهُ فَأَحْضَرَ مَعَهُ ما يَلْزَمُ مِنْ أَدَواتٍ لِمُواجَهةِ المَوْقِفِ ، فَشَرَعَ يَقْطَعُ الرَّصاصَ ، ثُمَّ تَوَقَّفَ حِينَ رَأى الدُّكْتور سِيوارْد يَتَسَلَّلُ مِنْ جِوارِهِ وَيَرْجِعُ مُتَّجِهًا نَحْوَ بابِ المَقْبَرةِ وَهُوَ يَقولُ في صَوْتٍ مُرْتَجِفٍ : « بُروفيسور ، إنَّها مَيِّتةٌ مُنْذُ أُسْبوعٍ ، وَلَسْتُ أَرْغَبُ في رُؤْيَتِها ثانِيةً . »

فَقالَ البُروفيسور : « ابْقَ هُنا ما لَمْ تَكُنْ خائِفًا مِنْ مُواجَهةِ الحَقيقةِ . » وَانْتَهى ڤان هِيلْسِينْغ مِنْ عَمَلِ الفُتْحةِ ، ثُمَّ قَطَعَ الجُزْءَ الَّذي يَقَعُ تَحْتَ وَسَطِ الغِطاءِ الرَّصاصِيِّ ، وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ أَيُّ غازٍ ، لَمْ تَكُنْ هُناكَ أَيُّ رائِحةٍ لِلْمَوْتِ .

قالَ البُروفيسور : « وَالآنَ سَوْفَ أَجْذِبُ أَحَدَ طَرَفَيِ الرَّصاصِ ، وَتَقِفُ أَنْتَ في مُواجَهَتي لِتَجْذِبَ الطَّرَفَ الآخَرَ وَحِينَئِذٍ سَوْفَ نَرى ما نَرى . »

وَهٰكَذا جَذَبا الرَّصاصَ مِنْ جانِبَيِ القَطْعِ كِلَيْهِما ، وَإذا بِالتّابوتِ خالٍ ، فَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « البُرْهانُ الأَوَّلُ ! تَعالَ ! اتْبَعْني ! »

وَمَضى البُروفيسور ، يَتْبَعُهُ صَديقُهُ الصّامِتُ المَذْهولُ إلى خارِجِ المَقْبَرةِ ، وَسَأَلَهُ أنْ يُغْلِقَها ، ثُمَّ قالَ لَهُ : « وَالآنَ سَوْفَ نَنْتَظِرُ ، وَإذا وَقَفْنا تَحْتَ هٰذِهِ الأَشْجارِ عَلى مَسافةٍ قَريبةٍ مِنَ المَقْبَرةِ فَإنَّنا نَسْتَطيعُ أنْ نَرى أَيَّ شَيْءٍ يَحْدُثُ . »

وَٱنتظرا ، وَطالَ ٱلاِنْتِظارُ ، وَسَمِعا ساعةً تَدُقُّ ٱلثّانيةَ عَشْرَةَ ، ثُمَّ تَدُقُّ ٱلواحِدةَ ، ثُمَّ ٱلثّانِيَةَ . وَلابُدَّ أَنَّ السّاعَةَ كانَتْ قَدْ قارَبَتِ ٱلثّالثةَ حينَما أُطْبِقَتْ يَدُ ڤان هِيلْسينْغ على ذِراعِ سيوارْد ، ثُمَّ أَشارَ لَهُ إلى شَكْلٍ أَبيضَ يَتَحَرَّكُ بَيْنَ ٱلأَشْجارِ عَلى بُعْدِ عِشْرينَ أَوْ ثَلاثينَ مِتْرًا . وَخَرَجَ ڤان هِيلْسينْغ مِنْ تَحْتِ ٱلأَشْجارِ وَتَقَدَّمَ مِنْهُ ، وَبَدا كَأَنَّهُ رآهُ ، فَتَوَقَّفَ ثُمَّ تَقَهْقَرَ إلى ٱلوَراءِ وَٱخْتَفى ، في نَفْسِ ٱللَّحْظَةِ ٱلَّتي تَعَثَّرَ فيها ڤان هِيلْسينْغ وَسَقَطَ فَوْقَ شَيْءٍ مُلْقًى في مَمَرٍّ مِنَ ٱلعُشْبِ الطَّويلِ . وَحينَما سَمِعَ سيوارْد صَيْحَةَ ٱلدَّهْشَةِ ٱلَّتي أَطْلَقَها ڤان هِيلْسينْغ خَفَّ إِلَيْهِ مُسْرِعًا ، وَأَشْعَلَ عُودَ ثِقابٍ ، وَإِذا فَوْقَ ٱلأَرْضِ طِفْلٌ صَغيرٌ لايَزالُ في سُباتٍ عَميقٍ ، وَصاحَ ٱلبروفِيسور وَهُوَ يَنْهَضُ مِنْ فَوقِ ٱلعُشْبِ : « ٱلبُرْهانُ ٱلثّاني ! »

وَقالَ سيوارْد بَعْدَ أَنْ فَحَصَ الطِّفْلَ : « لَيْسَ بِٱلعُنُقِ أَيُّ أَثَرٍ . »

فَقالَ ٱلبروفيسور : « لَمْ يَتَّسِعْ لَها ٱلوَقْتُ ، وَلٰكِنْ ، إذا لَمْ يَكُنِ ٱلبُرهانُ الثّاني كامِلًا فَسَوْفَ أُريكَ ٱلبُرْهانَ ٱلثّالِثَ ، وَحينَئِذٍ ، لَعَلَّكَ تَقْتَنِعُ . »

وَكانَ الطِّفْلُ لايَزالُ نائِمًا ، فَمَهَّدَ لَهُ سيوارْد مَكانًا فَوْقَ ٱلعُشْبِ ، وَتَبِعَ ڤان هِيلْسينْغ إلى ٱلمَقْبَرةِ . كانَتِ الشَّمْسُ قَدْ بَدَأَتْ تَطْلُعُ حينَما فَتَحا ٱلبابَ ، وَلٰكِنَّ الظُّلْمَةَ كانَتْ حَوْلَ التّابوتِ كَما كانَتْ مِنْ قَبْلُ ، فَقالَ ٱلبروفِيسور : « أَشْعِلْ عُودَ ثِقابٍ . »

وَفُوجِئَ سيوارْد بِأَنَّ التّابوتَ لَمْ يَكُنْ خالِيًا كَما كانَ مِنْ قَبْلُ ، وَإِنَّما كانَتْ لُوسي تَرْقُدُ فيهِ وَهِيَ تَبْدو بِمِثْلِ ما كانَتْ تَبْدو قَبْلَ ٱلجنازةِ تَمامًا . كانَتْ — لَوْ كانَ هٰذا مُمْكِنًا — أَكْثَرَ جَمالًا مِنْها في أَيِّ وَقْتٍ مَضى ، فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ هٰذا وَجْهَ فَتاةٍ ٱنْقَضى عَلى مَوْتِها سَبْعَةُ أَيّامٍ ؟ وَجَذَبَ ڤان هِيلْسينْغ شَفَتَيْها إلى ٱلخَلْفِ كاشِفًا عَنْ أَسْنانِها ، وَقالَ : « ٱنْظُرْ إِنَّها أَشْبَهُ بِحَدِّ السِّكّينِ . كَمْ مَرَّةً ، يادُكْتور سيوارْد ، يَنْبَغي أَنْ تَنْغَرِسَ هٰذِهِ ٱلأَسْنانُ في عُنُقِ طِفْلٍ حَتّى تُؤْمِنَ أَنَّ مَعَنا ٱلآنَ مَصّاصةَ دِماءٍ مُتَعَطِّشَةً إلى الدَّمِ ، وَأَنَّ عَلَيْنا أَنْ نَقْضِيَ عَلَيْها نِهائِيًّا ؟ »

كانَ سيوارْد يَبْدو وَكَأَنَّهُ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَمْنَعَ عَيْنَيْهِ مِنَ التَّطَلُّعِ إلى هٰذا ٱلجَمالِ الشِّرّيرِ لِهٰذا ٱلجَسَدِ الثّاوي في ذٰلِكَ التّابوتِ . ثُمَّ سَأَلَ : « بروفِيسور ، ماذا يَنْبَغي عَلَيْنا أَنْ نَفْعَلَ ؟ »

فَأَجابَ ٱلبروفيسور : « نَنْزِعُ رَأْسَها مِنْ جَسَدِها ، وَنَمْلَأُ فَمَها بِالثّومِ ، وَنَغْرِسُ قِطْعَةً سَميكَةً مِنَ ٱلخَشَبِ لِتَتَغَلْغَلَ في قَلْبِها . وَلٰكِنْ لَيْسَ ٱلآنَ ، فَلَسْنا مُسْتَعِدَّيْنِ لِذٰلِكَ بَعْدُ . ثُمَّ إِنَّنا — بِسَبَبِ ٱلمَخاطِرِ ٱلَّتي تُواجِهُنا — في حاجَةٍ إلى مَزيدٍ مِنَ ٱلعَوْنِ ، وَفَوْقَ هٰذا ، فَإِنَّ الَّذي أَطْلَعْتُكَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ لابُدَّ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ آرْثَر هولـموود . لِنَرْحَلِ ٱلآنَ . »

وَهٰكَذا أَغْلَقا ٱلمَقْبَرةَ ، ثُمَّ حَمَلا الطِّفْلَ ٱلَّذي كانَ لايَزالُ نائِمًا وَوَضَعاهُ خارِجَ بَوّابَةِ ٱلمَقْبَرةِ ، وَهُمْ عَلى يَقينٍ أَنَّ الشُّرْطَةَ سَوْفَ تَجِدُهُ عاجِلًا . وَكانَ جَميلًا ،أَنْ يُحِسّا دِفْءَ الشَّمْسِ حينَما غادَرا ٱلمُرْتَفَعاتِ ، وَسارا عائِدَيْنِ إلى لَنْدَن .

اَلْفَصْلُ الرَّابِعَ عَشَرَ

لَمْ يَكُنْ مِنَ اَلْيَسِيرِ إِقْناعُ آرْثَر بِالْمَجِيءِ إِلَى اَلْمَقْبَرَةِ ، وَلٰكِنَّهُ جاءَ أَخِيرًا . وَكانَ اَلْفَضْلُ فِي ذٰلِكَ لِجاك سِيوارْد . ذٰلِكَ أَنَّ ڤان هِيلْسِينْغ كانَ يَعْلَمُ أَنَّ كَلامَ سِيوارْد مَعَ آرْثَر سَوْفَ يَكُونُ أَوْقَعَ أَثَرًا مِنْ كَلامِهِ هُوَ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ يَعْلَمُ كَذٰلِكَ أَنَّهُ لا كَلامُهُ وَلا كَلامُ سِيوارْد يُمْكِنُ أَنْ يُقْنِعَ آرْثَر بِأَنَّ لُوسِي مَصّاصَةُ دِماءٍ ، وَإِنَّما لُوسِي نَفْسُها هِيَ الَّتِي تَسْتَطِيعُ إِقْناعَهُ .

كانَتِ السّاعَةُ قَدْ تَجاوَزَتْ مُنْتَصَفَ اللَّيْلِ حِينَما وَقَفَ الرِّجالُ الثَّلاثَةُ حَوْلَ التّابُوتِ . وَكانَ ڤان هِيلْسِينْغ يَحْمِلُ حَقِيبَةً طَوِيلَةً .

وَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « دُكْتُور سِيوارْد ، حِينَما غادَرْنا هٰذِهِ اَلْمَقْبَرَةَ صَباحَ اَلْيَوْمِ كانَتْ جُثَّةُ لُوسِي فِي تابُوتٍ ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

أَجابَ سِيوارْد : « بَلَى . لَقَدْ كانَتْ فِي التّابُوتِ يابُرُوفِيسُور . »

فَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ بِطَرِيقَةِ اَلْحُواةِ وَالسَّحَرَةِ : « سَأَفْتَحُ التّابُوتَ اَلْآنَ . »

ثُمَّ فَتَحَهُ ، وَنَظَرَ اَلْجَمِيعُ ، فَإِذا هُوَ خالٍ . وَغَشِيَ اَلْجَمِيعَ صَمْتٌ طَوِيلٌ ، ثُمَّ قالَ آرْثَر فِي صَوْتٍ خافِتٍ : « بُرُوفِيسُور ، أَعْلَمُ أَنَّكَ لَمْ تَكُنْ لِتَنْقُلَ جُثَّتَها ، فَمَنِ الَّذِي نَقَلَها ؟ مَنْ ذا الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا كَهٰذا ؟ »

فَلَمْ يُجِبْ ڤان هِيلْسِينْغ ، وَإِنَّما خَرَجَ مِنَ اَلْمَقْبَرَةِ وَهُما يَتْبَعانِهِ . ثُمَّ أَوْصَدَ اَلْبابَ ، وَأَخْرَجَ مِنْ حَقِيبَتِهِ بَعْضَ اَلْخُبْزِ اَلْمَلْفُوفِ فِي قِطْعَةِ قُماشٍ بَيْضاءَ ، وَأَخَذَ يَطْوِيهِ بَيْنَ أَصابِعِهِ ، ثُمَّ دَسَّهُ فِي اَلْفَراغِ الَّذِي بَيْنَ اَلْبابِ وَحَجَرِ اَلْمَقْبَرَةِ الَّذِي يُحِيطُ بِهِ ، وَكَذٰلِكَ فِي ثَقْبِ اَلْقُفْلِ ، وَقالَ وَهُوَ يَفْعَلُ ذٰلِكَ :

« هٰذا خُبْزٌ مُقَدَّسٌ بُورِكَ فِي اَلْكَنِيسَةِ ، وَسَأُغْلِقُ اَلْمَقْبَرَةَ حَتَّى لا يَسْتَطِيعَ أَيُّ كائِنٍ شِرِّيرٍ أَنْ يَدْخُلَها . »

فَسَأَلَهُ آرْثَر وَهُوَ لا يَزالُ تَحْتَ تَأْثِيرِ الصَّدْمَةِ الَّتِي أَصابَتْهُ بِسَبَبِ اَخْتِفاءِ جُثَّةِ لُوسِي : « وَماذا بَعْدَ ذٰلِكَ ؟ »

فَأَجابَ ڤان هِيلْسِينْغ : « وَاَلْآنَ اسْتَعِدُّوا ، فَإِنَّكُما فِي حاجَةٍ إِلَى قُدْرَةٍ عَقْلِيَّةٍ عالِيَةٍ ، فَهَيّا بِنا نَنْتَظِرُ خَلْفَ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ حَيْثُ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَرَى اَلْمَقْبَرَةَ . »

كانَ ڤان هِيلْسِينْغ يَتَحَدَّثُ كَما لَوْ كانَ يَعْرِفُ تَمامًا ما الَّذِي سَيَحْدُثُ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ فِي اَلْوَقْتِ نَفْسِهِ يَشْعُرُ بِالشَّكِّ وَاَلْخَوْفِ . لَقَدْ كانَ فِي حالَةِ انْجِذابٍ إِلَى أَعْماقٍ سَحِيقَةٍ مِنَ اَلْعالَمِ اللّاطَبِيعِيِّ .. عالَمِ اللّاَمَوْتَى الَّذِي يُطْلَقُ عَلَى مَصّاصِي الدِّماءِ . وَحِينَما نَظَرَ حَوْلَهُ كانَ يُخالِجُهُ شُعُورٌ بِأَنَّهُ لَمْ يَرَ قَطُّ فِي اللَّيْلِ مَكانًا مِثْلَ هٰذا يُنْبِئُ بِشَرٍّ كَثِيرٍ . كانَتْ أَحْجارُ اَلْقُبُورِ يَلْمَعُ بَياضُها كَمِثْلِ عِظامِ اَلْمَوْتَى ، وَكُلَّما هَبَّتِ الرِّيحُ خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَسْمَعُ حَرَكَةَ أَجْنِحَةٍ تُرَفْرِفُ ، وَحَرَكَةَ أَشْياءَ فِي اَلْعُشْبِ تَزْحَفُ ، وَأَيْقَنَ أَنَّهُ ما كانَ لِيَسْتَطِيعَ أَنْ يَظَلَّ فِي هٰذا اَلْمَكانِ لَوْ أَنَّهُ كانَ وَحْدَهُ .

لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُم يَنْبِسُ بِكَلِمَةٍ ، بَلْ إِنَّ الرِّيحَ تَوَقَّفَتْ أَخِيرًا وَخَلَّفَتْ وَراءَها سُكُونًا كَسُكُونِ اَلْأَحْلامِ ، وَاَنْقَضَتْ ساعَةٌ أَعْقَبَها صَوْتٌ .

كانَ جاك سِيوارْد قَدْ شَهَقَ حِينَ لَمَحَ شَيْئًا ، وَأَشارَ بِيَدِهِ . كانَ هُناكَ عَلَى مَسافَةٍ مِنْهُمْ شَكْلٌ أَبْيَضُ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ صَفَّيْنِ مِنَ اَلْأَشْجارِ حامِلًا شَيْئًا ما بَيْنَ ذِراعَيْهِ ، ثُمَّ تَوَقَّفَ فِي بُقْعَةٍ انْعَكَسَ عَلَيْها ضَوْءُ اَلْقَمَرِ ، فَإِذا اَلْمَشْهَدُ هٰذِهِ اَلْمَرَّةَ واضِحًا كُلَّ اَلْوُضُوحِ . كانَتْ سَيِّدَةً ذاتَ شَعْرٍ ذَهَبِيٍّ ، تَأْتَزِرُ بِقُماشٍ أَبْيَضَ كَقُماشِ اَلْأَكْفانِ ، وَتَتَقَدَّمُ إِلَى اَلْأَمامِ مُمْسِكَةً بِطِفْلٍ صَغِيرٍ ، وَتَقَدَّمَتِ السَّيِّدَةُ حَتَّى أَصْبَحَتْ قَرِيبَةً مِنْهُم بِحَيْثُ أَمْكَنَهُمْ أَنْ يَتَبَيَّنُوها .. كانَتْ لُوسِي .

وَلٰكِنَّ لُوسِي الَّتِي تَغَيَّرَتْ كَثِيرًا كانَتْ شَفَتاها تَقْطُرانِ بِدِماءِ الطِّفْلِ الطّازَجَةِ ، وَكانَ الدَّمُ يَسِيلُ عَلَى وَجْهِها حَتَّى صَبَغَ اَلْقُماشَ اَلْأَبْيَضَ الَّذِي تَأْتَزِرُ بِهِ .

وَتَقدَّم ڤان هِيلْسينغ خُطواتٍ إلى ٱلأَمامِ ، وَما كادَتْ تَراهُ حَتّى ٱنْسَحَبَتْ إلى ٱلخَلْفِ مُحْدِثَةً زَمْجرةً غاضِبةً ، وَأَلْقَتِ الطِّفْلَ الَّذي كانَتْ ــ حَتّى ٱلآنَ ــ تَحْتَفِظُ بِهِ بَيْنَ يَدَيْها كَما يَحْتَفِظُ ٱلكَلْبُ بِعَظْمةٍ ، فَصَرَخَ صَرْخةً أَليمةً تَأَثَّرَ لَها آرْثَر ، فَأَطْلَقَ بِدَوْرِهِ صَيْحةً لَمْ تَكَدْ لُوسي تَسْمَعُها حَتّى تَغَيَّرَتْ ثانيةً . فَقَدْ رَأَتْ آرْثَر وَمَدَّتْ إِحْدى يَدَيْها نَحْوَهُ بِطَريقةٍ عَفَوِيَّةٍ ، نَفْسِ طَريقةِ لُوسي الَّتي أَلِفَها ، ثُمَّ قالَتْ : « آرْثَر ، دَعْ أَصْدِقاءَكَ وَتَعالَ مَعي . »

كانَتْ هُناكَ نَغْمةٌ حُلْوةٌ في صَوْتِها ، بَلَغَ مِنْ حَلاوتِها أَنَّ ڤان هِيلْسينْغ نَفْسَهُ شَعَرَ بِٱنجذابٍ إِلَيْها . أَمّا آرْثَر فَقَدْ وَقَفَ كَأَنَّما مَسَّهُ سِحْرٌ . فَتَبَسَّمَتْ لَهُ ثانيةً ، فَتَقَدَّمَ نَحْوَها ، وَلٰكِنَّ ڤان هِيلْسينغ كانَ بِٱلمِرْصادِ ، وَقَبْلَ أَنْ تُطْبِقَ لُوسي بِأَسْنانِها عَلى عُنُقِ آرْثَر وَثَبَ إلى ٱلأَمامِ رافِعًا أَمامَهُ صَليبَهُ الذَّهَبِيَّ الصَّغيرَ . وَلَمْ يَكَدْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ حَتّى صَرَخَتْ صَرْخةً ضارِيةً كَما لَوْ كانَ قَدْ لَمَسَها حَديدٌ مُحمًّى أَحْمَرُ ، وَقَفَزَتْ إلى ٱلوَراءِ ، ثُمَّ جَرَتْ نَحْوَ بابِ ٱلمَقْبرةِ ، وَلٰكِنَّها تَوَقَّفَتْ هُناكَ ثانيةً إِذْ إِنَّ ڤان هِيلْسينغ كانَ قَدْ أَدّى عَمَلَهُ بِنَجاحٍ . وَأَخيرًا لَمْ تَجِدْ مَفَرًّا مِنْ أَنْ تَجْرِيَ خِلالَ ظِلِّ شَجَرةٍ . وَكانَ كُلُّ ما ٱسْتَطاعوا أَنْ يُشاهِدوهُ مِنْها هُوَ بَياضَ أَسْنانِها وَهِيَ تَلْمَعُ في الظَّلامِ .

وَسادَ السُّكونُ حَيْثُ صارَ كُلٌّ مِنَ ٱلحَيِّ وَاللّامَيِّتِ في حالةِ ذُهولٍ . وَفي النِّهايةِ ٱسْتَدارَ ڤان هِيلْسينْغ نَحْوَ آرْثَر ــ وَالصَّليبُ لا يَزالُ مَرْفوعًا في يَدِهِ ــ وَسَأَلَهُ في صَوْتٍ مُرْتَجِفٍ : « هَلْ أَسْتَمِرُّ في عَمَلي ؟ »

فَجثا آرْثَر عَلى رُكْبَتَيْهِ ، وَغَطّى وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ قائِلًا : « اِفْعَلْ ما تَعْتَقِدُ أَنَّهُ لازِمٌ . لَنْ يَكونَ هُناكَ ما هُوَ أَسْوَأُ مِمّا رَأَيْتُ . »

وَعادَ ٱلبُروفيسور إلى بابِ ٱلمَقْبَرةِ ، وَأَخْرَجَ بَعْضًا مِنَ ٱلخُبْزِ ٱلمُقَدَّسِ ، وَفَتَحَ ٱلبابَ قَليلًا . أَمّا لُوسي فَكانَتْ كَأَنَّما اجْتَذَبَتْها قُوَّةٌ قاهِرةٌ لا تَسْتَطيعُ الصُّمودَ أَمامَها ، فَدلَفَتْ مِنْ ظِلالِ ٱلأَشْجارِ عائِدةً إلى ٱلمَقْبَرةِ . وَٱخْتَفَتْ مِنْ خِلالِ ٱلفَراغِ في فُتْحةِ ٱلبابِ ،



وحينئذٍ أعادَ البروفيسور الخُبزَ إلى مكانِهِ وأغلقَ البابَ ، ثُمّ قالَ :

« أيُّها الأصدقاءُ ، لَيسَ أمامَنا ما نستطيعُ عملَهُ قبلَ بزوغِ ضوءِ النّهارِ . إنّها لا تستطيعُ الخروجَ الآنَ فهيَ منهوكةٌ ، ولعلَّها ضعيفةٌ واهنةٌ بسببِ أنّها لم تذُقْ ما يُشبعُها لِمُدّةِ ليلتَينِ ، وسرعانَ ما يُدرِكُها النُّعاسُ ، وحينئذٍ سوفَ نؤدّي مهمَّتنا . »

وبينما كانَ الرّجالُ الثّلاثةُ ينتظرونَ بزوغَ الشّمسِ كانتِ الأفكارُ الضّاريةُ تجولُ في أذهانِهِم . ثُمّ ظهرتْ حُمرةُ السّماءِ وبزغتِ الشّمسُ ، وانتظرَ كُلٌّ مِن سيوارد وآرثر صدورَ كلمةٍ مِنَ البروفيسور ، ولكن لم يبدُ عليهِ أنّهُ متعجّلٌ في الشّروعِ في العملِ . وأخيرًا أخرجَ ساعتَهُ الذّهبيّةَ الثّقيلةَ ونظرَ فيها ثُمّ قالَ : « إنّها السّادسةُ والنّصفُ . لدينا نصفُ ساعةٍ . »

كانتْ لوسي مستغرقةً في نومِها ، وكانتْ جميلةً مثلَما كانتْ دائمًا . أمّا آرثر فكانَ شاحبًا حتّى يُخيَّلَ إليكَ أنّهُ هوَ الميّتُ . وحينما انحنى فوقَ التّابوتِ أخذَ ينتحبُ علانيةً . ولكنَّ فان هيلسينغ لم تكُنْ أحاسيسُهُ كأحاسيسِ آرثر ، وإنّما كانَ بصرُهُ مركّزًا على الدّمِ الجافِّ الّذي يلطّخُ فمَها . فتحَ الحقيبةَ وأخرجَ بعضَ الآلاتِ الطّبّيّةِ والمباضعَ وقطعةَ خشبٍ غليظةً مُدبّبةَ الطّرفِ يبلغُ طولُها نحوَ مترٍ ، ومطرقةً ثقيلةً ، وقالَ :

« مصّاصو الدّماءِ لا يموتونَ بانقضاءِ العمرِ ، ولكنّهم يستمرّونَ في الحياةِ ، يتغذّونَ بالدّماءِ ، ويحوّلونَ غيرَهم إلى مصّاصي دماءٍ مثلِهم . وهكذا تتّسعُ دائرةُ اللاموتى على مرِّ الأيّامِ ، وهؤلاءِ الأطفالُ الّذينَ شربتْ مِن دمائِهم لن يتأثّروا كثيرًا ، أمّا أولئكَ الّذينَ تُشربُ دماؤهم مرّةً بعدَ مرّةٍ فإنّهم يستمرئونَها ، فيتعلّمونَ حبَّ مصّاصِ دمِهم ومن ثَمّ يُصبحونَ مصّاصي دماءٍ بعدَ أن يموتوا . أمّا أنتَ ياصديقي آرثر فلو أنّكَ كنتَ منحتَها نفسَكَ لكانَ في ذلكَ خطرٌ أيُّ خطرٍ عليكَ ، ولكنَّ هناكَ طريقًا لكي نحرّرَ روحَ اللاميّتِ . نحرّرُها مِن حياةٍ كلُّها شرٌّ ، ومِن آخرةٍ كلُّها عذابٌ أبديٌّ . » ثُمّ أشارَ إلى المطرقةِ قائلًا :

« أعتقدُ أنّ أمامَكَ عملًا مقدّسًا تقومُ بهِ .. أنْ تضربَ ضربتَكَ وتُنقذَ روحًا . إنّني أستطيعُ أنْ أقومَ بذلكَ ، ولكنْ أليسَ مِنَ الأفضلِ لذلكَ الّذي أحبّتْهُ كثيرًا أنْ يقومَ هوَ بهِ ليُخلّصَها بنفسِهِ ؟ »

فقالَ آرثر : « ياصديقي الوفيّ ، أخبرْني بما أفعلُ وسوفَ أقومُ بهِ . »

فقالَ فان هيلسينغ : « رجلٌ شجاعٌ . خُذْ قطعةَ الخشبِ هذهِ وضعْ طرفَها المدبّبَ على قلبِها بإحدى يديكَ ، وحينما أنتهي مِن تلاوةِ الصّلاةِ على الميّتِ مِن كتابِ الصّلواتِ هذا اضربْ باسمِ اللهِ . »

ومعَ أنّ آرثر كانَ لا يزالُ شاحبًا ، فإنّهُ أخذَ قطعةَ الخشبِ بيدٍ قويّةٍ ثابتةٍ والمطرقةَ باليدِ الأخرى . وبدأَ فان هيلسينغ في تلاوتِهِ بينما ساعدَ الدّكتور سيوارد في وضعِ الخشبةِ فوقَ القلبِ مباشرةً .

وما إنِ انتهى البروفيسور مِنَ الصّلاةِ حتّى ضربَ آرثر بكلِّ ما يملكُ مِن قوّةٍ . فاهتزَّ الجسدُ الّذي في التّابوتِ اهتزازًا عنيفًا كما لو كانَ تعرّضَ لصدمةٍ كهربيّةٍ ، وانفتحَ الفمُ ليُطلقَ صيحةً جعلتْ شعرَ رؤوسِهم يقفُ كأنّهُ شعرُ فرجونٍ . وأخذَ الجسدُ كلُّهُ ينقلبُ يمنةً ويسرةً ، وأخذتِ الأسنانُ الحادّةُ تنفرجُ وتنطبقُ ، حتّى احمرّتِ الشّفتانِ بما انبثقَ منهما مِن دمٍ . ومعَ هذا فإنّ آرثر لم يتوقّفْ ، وكانتْ يدُهُ اليُمنى ترتفعُ بالمطرقةِ ثمّ تهوي مرّةً بعدَ مرّةٍ كلّما توغّلَ طرفُ الخشبةِ أعمقَ ثمّ أعمقَ ، حتّى سكنتْ حركةُ الجسدِ الضّاريةِ تمامًا ، وانتهى الأمرُ .

قالَ فان هيلسينغ : « قبلَ أنْ تغادروا المقبرةَ ألقوا نظرةً أخيرةً على وجهِ لوسي ، إنّها ليستِ الآنَ واحدةً مِن عالمِ اللاموتى . »

فنظرَ آرثر ، وكانَ ما قالَهُ البروفيسور صحيحًا ، فبعدَ كلِّ ما كانَ مِن دماءٍ وألمٍ ، كانتْ لوسي ترقدُ في سلامٍ . لم تعدْ مصّاصةَ دماءٍ ، وإنّما صارتْ لوسي الّتي أحبّها

وَالَّتي خَلَّصَها أَخيرًا . وَمالَ عَلَيْها فَقَبَّلَها لِلْمَرَّةِ الأَخيرةِ ، وَسارَ مُتَثاقِلًا إلى خارِجِ المَقْبَرةِ .. إلى ضَوْءِ الشَّمْسِ .

أَمّا الطَّبيبانِ فَقَدْ قَطَعا بَقِيَّةَ قِطْعَةِ الخَشَبِ وَتَرَكا الطَّرَفَ المُدَبَّبَ في قَلْبِها ، وَحَشَوا فَمَها بِالثُّومِ ، وَفَصَلا رَأْسَها عَنْ جَسَدِها ، ثُمَّ أَحْكَما إغْلاقَ التّابوتِ بِالغِطاءِ . وَبَعْدَ خُروجِهِما أَوْصَدَ البروفيسور بابَ المَقْبَرةِ ، وَأَعْطى آرْثَر المِفْتاحَ ، ثُمَّ قالَ :

« لَقَدِ انْتَهى أَوَّلُ جُزْءٍ مِنْ عَمَلِنا ، وَيَبْقى بَعْدَ ذٰلِكَ الجُزْءُ الأَعْظَمُ .. أَنْ نَجِدَ سَبَبَ البَلاءِ الَّذي نَزَلَ بِلوسي ثُمَّ نُدَمِّرَهُ . كُلُّ ما أُريدُ أَنْ أَعْرِفَهُ هُوَ : هَلْ أَنْتُما مُسْتَعِدّانِ لِتَتْبَعاني لِمُواجَهَةِ مَخاطِرَ أُخْرى ؟ »

فَقالَ جاك سيوارْد : « أَيْنَما تَذْهَبْ فَأَنا مَعَكَ . إِنَّهُ واجِبٌ عَلَيْنا أَنْ نَقْضِيَ عَلى هٰذا الشَّرِّ . »

وَنَظَرَ الاِثْنانِ إلى آرْثَر ، وَلٰكِنَّهُما لَمْ يَكونا في حاجَةٍ إلى سُؤالِهِ . لَقَدْ كانَتْ تَبْدو في عَيْنَيْهِ نَظْرَةُ الرَّجُلِ الَّذي لا يُريدُ مِنَ الحَياةِ إلّا شَيْئًا واحِدًا ، وَالَّذي لَنْ يَهْدَأَ لَهُ بالٌ إلّا إذا وَجَدَهُ .

الفَصْلُ الخامِسَ عَشَرَ

وَهٰكَذا جَنَّدَ ڤان هِيلْسِينْغ جَيْشَهُ الصَّغيرَ ، وَلٰكِنْ أَيْنَ العَدُوُّ ؟ فَفي حالَةِ لوسي كانَتْ خُطوطُ المَعْرَكَةِ واضِحَةً ، وَالأَمْرُ هاهُنا مُخْتَلِفٌ . وَمَعَ هٰذا ، فَإِنَّ ڤان هِيلْسِينْغ لَمْ يَكُنْ يَسْتَطيعُ الاِنْتِظارَ حَتّى يَكْشِفَ العَدُوُّ عَنْ نَفْسِهِ . لَقَدْ كانَ مِنَ الرِّجالِ الَّذينَ لا يُحِبّونَ التَّرَبُّصَ وَالاِنْتِظارَ . وَفَوْقَ هٰذا ، فَقَدْ كانَ هُناكَ أَثَرٌ يُمْكِنُ أَنْ يُقْتَفى ، أَمّا هٰذا الأَثَرُ فَهُوَ الَّذي قادَهُ في اليَوْمِ التّالي إلى مَحَطَّةِ پادينغتون حَيْثُ انْتَظَرَ وُصولَ جوناثان وَمينا هارْكر .

كانَ جوناثان مُنْذُ عَوْدَتِهِ مِنْ ترانسيلْڤانيا يَعيشُ في هُدوءٍ . كانَ قَدْ عانى مِنْ صَدْمَةٍ أَليمَةٍ ، وَلِذٰلِكَ أَبْقَتْهُ مينا بَعيدًا عَنْ لَنْدَن . أَمّا الآنَ وَقَدْ تَحَسَّنَتْ حالَتُهُ فَقَدْ قَرَّرَتْ أَنْ يَذْهَبا إلى لَنْدَن لِيَلْتَقِيا بِڤان هِيلْسِينْغ الَّذي كانَ قَدْ طَلَبَ لِقاءَهُما مِرارًا .

وَصَلَ القِطارُ ، وَعادوا ثَلاثَتُهُمْ إلى الفُنْدُقِ الَّذي يَنْزِلُ بِهِ ڤان هِيلْسِينْغ . وَفي البِدايَةِ رَوَتْ قِصَّةَ إقامَتِها مَعَ لوسي في هُويْتبي وَما وَقَعَ فيها مِنْ أَحْداثٍ . وَقَدْ أُعْجِبَ البروفيسور أَيَّ إِعْجابٍ بِهٰذِهِ الفَتاةِ الَّتي كانَتْ تَعْرِفُ كَيْفَ تَتَصَرَّفُ في المَواقِفِ الصَّعْبَةِ . وَبَعْدَ ذٰلِكَ رَوى جوناثان قِصَّتَهُ مَعَ الكونْت دراكولا ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ ڤان هِيلْسِينْغ بَعْدَ أَنِ اسْتَمَعَ إِلَيْهِ أَنْ يَكْتُمَ مَشاعِرَهُ المُسْتَثارَةَ فَسَأَلَهُ : « وَلٰكِنْ لِماذا لَمْ تُنْبِئْ أَحَدًا بِكُلِّ هٰذا مِنْ قَبْلُ ؟ »

فَقالَتْ مينا : « بروفيسور ، لَقَدْ مَضَتْ أَسابيعُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَرِدَّ عافِيَتَهُ وَيُصْبِحَ قادِرًا عَلى رِوايَةِ قِصَّتِهِ لِأَحَدٍ .. حَتّى لي أَنا . ثُمَّ مَنْ تَظُنُّ أَنَّهُ كانَ يُصَدِّقُهُ إِلّا أَنا ؟ »

وَحينَئِذٍ أَخْبَرَهُما ڤان هِيلْسِينْغ بِكُلِّ ما حَدَثَ بَعْدَ مَوْتِ لوسي ، ثُمَّ قالَ لَهُما : « سَوْفَ تُصَدِّقانِ قِصَّتي كَما صَدَّقْتُ قِصَّتَكُما ، وَلٰكِنْ — كَما تَقولينَ — مَنْ غَيْري وَغَيْرُكُما يُصَدِّقُ ؟ وَهٰذا هُوَ السَّبَبُ في أَنَّنا نَحْنُ الَّذينَ يَجِبُ أَنْ نُنازِلَ هٰذا الشَّرَّ . إِنَّني أَطْلُبُ إِلَيْكُما أَنْ تُشارِكانا في هٰذِهِ المَعْرَكَةِ ، وَلَسَوْفَ نَلْتَقي اللَّيْلَةَ عِنْدَ الدُّكْتور سيوارْد . إِنَّكِ ياسَيِّدَةُ هارْكر تَعْلَمينَ أَكْثَرَ مِنْ أَيٍّ مِنّا مَدى الخَطَرِ الَّذي أَسْأَلُكِ أَنْ تُواجِهيهِ . »

فَتَطَلَّعَتْ مينا إلى وَجْهِ جوناثان الشّاحِبِ الَّذي زَحَفَتْ إلَيْهِ التَّجاعيدُ ، وَإلى شَعْرِهِ الَّذي وَخَطَهُ ٱلْبَياضُ . تَطَلَّعَتْ إلَيْهِ وَفي صَدْرِها حِقْدٌ عَلى قُوَّةِ الشَّرِّ الَّتي جَعَلَتِ الرَّجُلَ الَّذي تُحِبُّهُ يَبْدو مُسِنًّا قَبْلَ ٱلأَوانِ . ثُمَّ قالَتْ : « سَوْفَ أُساعِدُكَ . »

وَقالَ جوناثان أَخيرًا : « إذا ساعَدَتْكَ مينا فَإنَّني سَأُساعِدُكَ كَذٰلِكَ . »

وَبَدا مِنَ الطَّريقَةِ الَّتي نَطَقَ بِها عِبارَتَهُ أَنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ هٰذا ٱلقَرارَ بِسُهولَةٍ ، فَقالَ ڤان هِلْسينْغ : « سَنَكونُ بِٱنْتِظارِكُما في السّاعَةِ السّابِعَةِ . إنَّ ما سَمِعْتُهُ مِنْكُما يَجْعَلُني عَلى يَقينٍ أَنَّهُ لَيْسَ لَدَيْنا وَقْتٌ نُضَيِّعُهُ ، وَفي ٱلواقِعِ رُبَّما سَبَقَ السَّيْفُ ٱلعَذَلَ . »

ثُمَّ قالَ بَعْدَ أَنِ ٱجْتَمَعوا وَتَباحَثوا : « وَهٰكَذا أَيُّها ٱلأَصْدِقاءُ ، فَهٰذِهِ هِيَ ٱلحَقائِقُ الَّتي ٱكْتَشَفْناها عَنْ عَدُوِّنا . وَطِبْقًا لِما تَكَشَّفَ لَنا ، فَهُوَ عَدُوٌّ قَوِيٌّ ، وَلٰكِنْ لَهُ مَواضِعُ ضَعْفٍ . وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ ، فَهُوَ في حاجَةٍ إلى مَكانٍ يَسْتَريحُ فيهِ أَثْناءَ ساعاتِ النَّهارِ ، فَإذا ٱسْتَطَعْنا أَنْ نُباغِتَهُ وَهُوَ في صُنْدوقِهِ فَإنَّنا نَسْتَطيعُ أَنْ نُدَمِّرَهُ . »

فَقالَ سيوارْد : « إذا ، وَلٰكِنَّنا قَبْلَ ذٰلِكَ نُريدُ أَنْ نَعْرِفَ أَيْنَ هٰذِهِ الصَّناديقُ ؟ »

فَرَدَّ ڤان هِلْسينْغ : « نَحْنُ نَعْرِفُ — وَٱلفَضْلُ في ذٰلِكَ لِجوناثان — أَنَّها عَلى بُعْدِ بِضْعِ مِئاتٍ مِنَ ٱلأَمْتارِ مِنَ ٱلحُجْرَةِ الَّتي نَجْلِسُ فيها ٱلآنَ في مَنْزِلِ كارْفاكْس ؟ »

فَصاحَ جاك سيوارْد وَآرْثَر هولْموود في وَقْتٍ واحِدٍ تَقْريبًا : « في مَنْزِلِ كارْفاكْس ؟ »

كانَ ڤان هِلْسينْغ يُحِبُّ أَنْ يُثيرَ دَهْشَةَ سامِعيهِ ، وَقَدْ أَحْدَثَتْ كَلِماتُهُ ٱلأَثَرَ الَّذي أَرادَهُ . قالَ : « إنَّ كارْفاكْس هُوَ بَيْتُ دراكولا ، وَلابُدَّ أَنْ تَكونَ الصَّناديقُ فيهِ . »

فَقالَ سيوارْد : « هٰذا يُفَسِّرُ حالَةَ رينْفيلْد ، لابُدَّ أَنَّ دراكولا هُوَ الَّذي أَثارَهُ في ذٰلِكَ ٱليَوْمِ . نَعَمْ ، مُنْذُ أُسْبوعٍ أَوْ أُسْبوعَيْنِ هَرَبَ مِنّا رينْفيلْد ، وَتَبِعْناهُ إلى أَراضي كارْفاكْس ، إلى أَبْوابِ ٱلكَنيسَةِ ٱلقَديمَةِ . لابُدَّ أَنْ تَكونَ الصَّناديقُ هُناكَ . »

فَصاحَ آرْثَر : « ماذا نَحْنُ مُنْتَظِرونَ ؟ هَيّا بِنا . »

وَلَمْ يَكُنْ ڤان هِلْسينْغ يُحِبُّ ٱلإسْتِعْجالَ فَقالَ : « لَيْسَ بِهٰذِهِ السُّرْعَةِ . لابُدَّ أَنْ نُعِدَّ أَنْفُسَنا أَوَّلًا . »

ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ صَليبًا صَغيرًا ذَهَبِيًّا وَعَلَّقَهُ حَوْلَ عُنُقِ جوناثان الَّذي كانَ أَقْرَبَ الجَميعِ إلَيْهِ ، وَعَلَّقَ مَعَهُ كَذٰلِكَ عِقْدًا مِنْ زُهورِ الثّومِ أَخَذَهُ مِنْ صُنْدوقٍ كانَ بِحَوْزَتِهِ ، وَفَعَلَ الشَّيْءَ نَفْسَهُ مَعَ كُلٍّ مِنْ سيوارْد وَآرْثَر . فَلَمّا جاءَ دَوْرُ مينا قالَ : « ياسَيِّدَةُ مينا ، لَنْ أَسْأَلَكِ أَنْ تُشارِكينا في هٰذِهِ ٱلمُهِمَّةِ ، فَهِيَ لَيْسَتْ بِٱلمُهِمَّةِ الَّتي تَقْوى عَلَيْها النِّساءُ . لَقَدْ كانَتْ رِحْلَتُكِ ٱليَوْمَ طَويلَةً شاقَّةً ، وَمِنْ حَقِّكِ أَنْ تَسْتَريحي . »

فَقالَتْ مينا إنَّها لَيْسَتْ مُرْهَقَةً ، وَإنَّها تَرْغَبُ في الذَّهابِ مَعَهُمْ ، وَلٰكِنَّ ڤان هِلْسينْغ لَمْ يَرْضَخْ لِرَغْبَتِها ، وَخَرَجَ الرِّجالُ ٱلأَرْبَعَةُ وَحْدَهُمْ تَحْتَ سِتارِ اللَّيْلِ . كانَ جاك سيوارْد قَدْ أَحْضَرَ مَعَهُ مَجْموعَةً مِنَ ٱلمَفاتيحِ ٱلقَديمَةِ مُعَلَّقَةً في حَلْقَةٍ ، وَحاوَلَ أَنْ يَفْتَحَ بابَ ٱلكَنيسَةِ بِأَرْبَعَةَ عَشَرَ مِفْتاحًا ، واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ ، فَلَمْ يُفْلِحْ . أَمّا ٱلخامِسَ عَشَرَ فَقَدْ دارَ في ٱلقُفْلِ فَٱنْفَتَحَ ٱلبابُ إلى الدّاخِلِ دونَ أَنْ يَدْفَعَهُ أَحَدٌ ، كَما لَوْ كانَ ثَمَّةَ مَنْ يَتَوَقَّعُ قُدومَهُمْ . وَكانَ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ ڤان هِلْسينْغ الَّذي رَسَمَ بِيَدِهِ ٱليُمْنى في ٱلهَواءِ عَلامَةَ الصَّليبِ . كانَتِ ٱلأَرْضُ مُغَطّاةً بِطَبَقَةٍ سَميكَةٍ مِنَ التُّرابِ مِمّا جَعَلَ كَثيرًا مِنْ آثارِ ٱلأَحْذِيَةِ الَّتي وَطِئَتْها واضِحَةً عَلَيْها ، وَكانَ أَحَدُها أَكْثَرَ وُضوحًا لِقُرْبِ عَهْدِهِ . أَمّا الشَّيْءُ الَّذي لَفَتَ أَنْظارَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ فَقَدْ كانَ الرّائِحَةَ النَّفّاذَةَ ، إذْ لَمْ يَكَدْ جوناثان يَشُمُّها حَتّى قالَ : « إنَّها أَنْفاسُهُ . إنَّني أَذْكُرُ رائِحَتَها جَيِّدًا . »

وَوَقَعَتْ أَنْظارُهُمْ عَلى ٱلفَوْرِ عَلى الشَّيْءِ الَّذي جاءوا مِنْ أَجْلِهِ ، فَقَدْ كانَتْ صَناديقُ التُّرابِ مَرْصوصَةً بِجِوارِ ٱلجِدارِ واحِدًا فَوْقَ ٱلآخَرِ ، وَلٰكِنْ كَمْ كانَ عَدَدُها ؟ لَقَدْ أَظْهَرَ ٱلحَصْرُ ٱلعاجِلُ أَنَّ تِسْعَةً وَعِشْرينَ فَقَطْ كانَتْ هُناكَ ، وَذٰلِكَ مِنَ ٱلخَمْسينَ صُنْدوقًا .

وَحَرَّكَ ڤان هِلْسينْغ لِسانَهُ بِسِبابٍ خافِتٍ ، ثُمَّ قالَ : « إنَّ ٱلعَدُوَّ لايَزالُ مُتَقَدِّمًا عَلَيْنا . »

ثُمَّ بَدَأَ يُعيدُ عَدَّ الصَّناديقِ : « اِثْنانِ وَعِشْرونَ ، ثَلاثَةٌ وَعِشْرونَ .. »

ثُمَّ تَوَقَّفَ إِذْ كانَ آرْثَر يَجْذِبُ ذِراعَهُ لِيُنَبِّهَهُ إِلى شَيْءٍ ما ، وَقالَ آرْثَر : « أَلا تُلاحِظُ أَنَّ المَكانَ أَقَلُّ إِظْلامًا مِمّا كانَ ؟ »

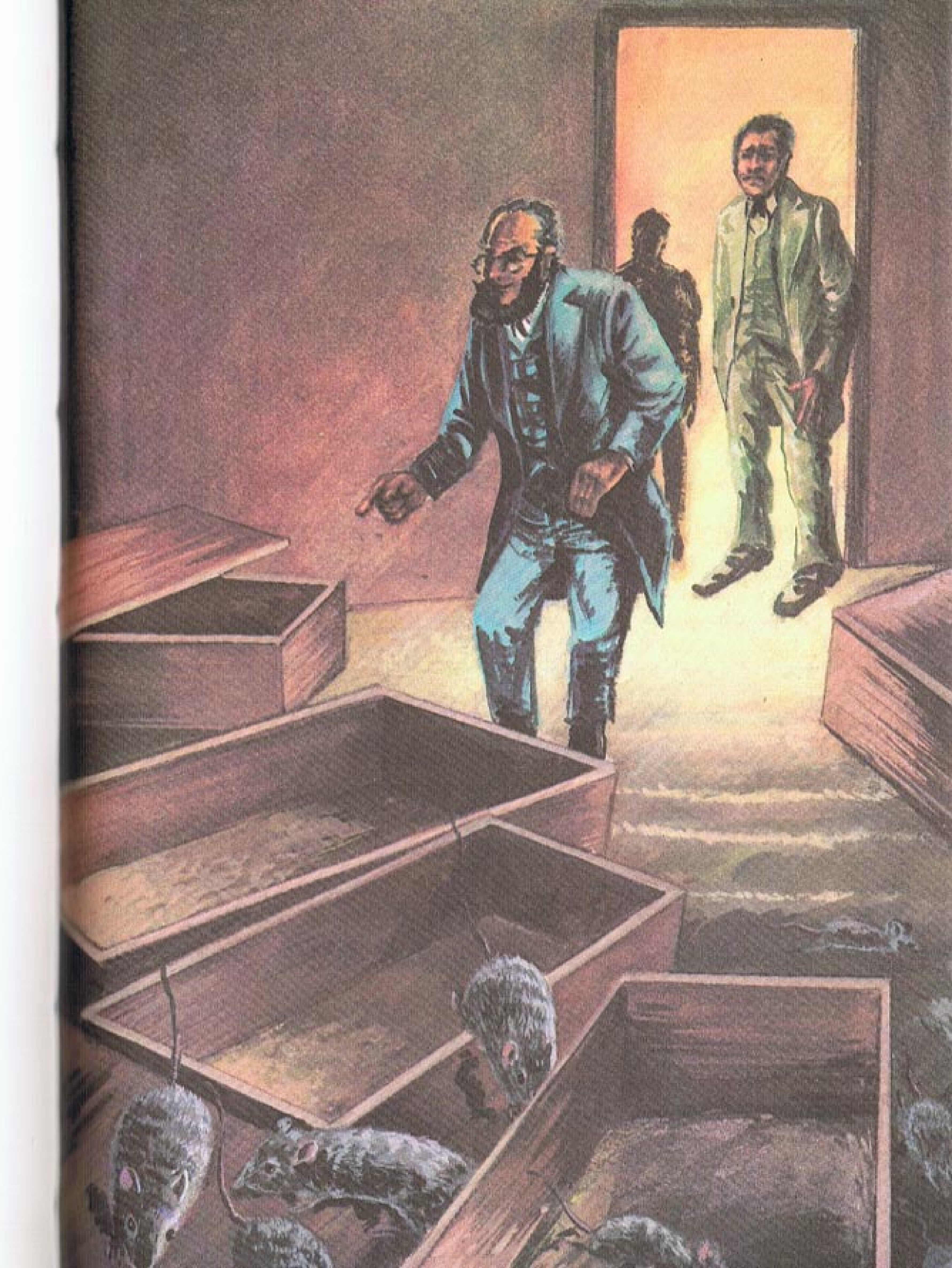
فَتَوَقَّفوا جَميعًا عَنِ العَدِّ وَتَطَلَّعوا حَوْلَهُمْ . كانَ كُلُّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكانِ المَبْنى مُمْتَلِئًا بِما يُشْبِهُ نُقَطًا نارِيَّةً حَمْراءَ ، ثُمَّ كانَتْ هُناكَ تَحَرُّكاتٌ صَغيرَةٌ صَحِبَتْها أَصْواتٌ خَفيفَةٌ . وَوَقَفَ الجَميعُ يُحَدِّقونَ فَتْرَةً قَصيرَةً ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثوا أَنْ فَهِموا كُلَّ شَيْءٍ . كانَتِ الكَنيسَةُ تَموجُ بِمِئاتٍ بَلْ بِآلافِ الجُرْذانِ . وَجَرى الجَميعُ نَحْوَ البابِ ، وَلٰكِنَّ الجُرذانَ جَرَتْ نَحْوَهُمْ . كانَتْ هُناكَ جُرْذانٌ تَحْتَ أَقْدامِهِمْ ، وَجُرْذانٌ تَجْري فَوْقَ أَقْدامِهِمْ ، وَجُرذانٌ تَتَسَلَّقُ فَوْقَ سَراويلِهِمْ ، وَجُرذانٌ فِي شَعْرِ رُؤُوسِهِمْ . أَمّا الجُرْذانُ السِّمانُ الطِّوالُ فَقَدْ تَعَلَّقَتْ بِأَسْنانِها في مَلابِسِهِمْ ، وَكُلَّما نَفَضوها عَنْهُمْ حَلَّ مَحَلَّها المَزيدُ وَالمَزيدُ ، وَكانَتْ عُيونُها تَلْمَعُ في الظَّلامِ .

وَبَعْدَ لَأْيٍ اسْتَطاعوا أَنْ يَبْلُغوا البابَ ، وَمَعَ أَنَّهُمْ شَعَروا بِالأَمانِ في الخارِجِ فَإِنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يَنْطَلِقْ لِسانُهُ بِكَلِمَةٍ إِلّا بَعْدَ مُضِيِّ فَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ . وَأَخيرًا قالَ فان هِيلْسِينْغ : « عِنْدَما نَعودُ غَدًا فَمِنَ الخَيْرِ أَنْ يُحْضِرَ آرْثَر كِلابَهُ مَعَهُ . »

فَصاحَ سِيوارْد : « غَدًا ؟ إِنَّني لا أُريدُ العَوْدَةَ إِلى هُنا أَبَدًا . »

فَرَدَّ فان هِيلْسِينْغ : « إِنَّنا مُضْطَرُّونَ إِلى العَوْدَةِ رَضينا أَمْ كَرِهْنا . لابُدَّ أَن نُدَمِّرَ الصَّناديقَ . »

وَفي الحَقيقَةِ لَمْ يَكُنْ فان هِيلْسِينْغ يُفَكِّرُ فِي الصَّناديقِ الَّتي يَعْتَزِمونَ تَدْميرَها ، وَإِنَّما الَّذي كانَ يُقْلِقُهُ هُوَ الصَّناديقُ الَّتي لَيْسَتْ هُناكَ . إِنَّ واحِدًا وَعِشْرينَ صُنْدوقًا قَدْ نُقِلَتْ مِنْ كارْفاكْس وَلابُدَّ مِنَ العُثورِ عَلَيْها .



الفَصْلُ السَّادِسَ عَشَرَ

بَيْنَما الرِّجالُ الأَرْبعةُ جالِسونَ حَوْلَ المائِدةِ يَتناوَلونَ طَعامَ الإِفطارِ قالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « واحِدٌ وَعِشرونَ صُنْدوقًا مَفْقودةً ، وَمِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ تَكونَ في أَيِّ مَكانٍ . »

فَقالَ آرْثَر : « إِنَّ واحِدًا وَعِشْرينَ صُنْدوقًا تُؤَلِّفُ حِمْلًا كَبيرًا ، فَإِذا كانَتْ قَدْ نُقِلَتْ نَهارًا فَمِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ يَكونَ بَعْضُ الَّذينَ في المُسْتَشْفى قَدْ لاحَظوا نَقْلَها . وَمَعَ ذٰلِكَ فَإِنَّ كارْفاكْس قَريبةٌ جِدًّا ، وَلا بُدَّ أَنَّ الصَّناديقَ نُقِلَتْ خِلالَ الأَسابيعِ الثَّلاثةِ الأَخيرةِ . »

وَفَجْأَةً وَضَعَ الدُّكْتور سيوارْد فِنْجانَ الشّاي بِعَجَلةٍ عَلى المائِدةِ وَسارَعَ بِالخُروجِ مِنَ الحُجْرةِ ، ثُمَّ عادَ بَعْدَ لَحَظاتٍ وَفي يَدِهِ قُصاصةُ وَرَقٍ ، وَالدَّهْشةُ تَعْلو وُجوهَ أَصْدِقائِهِ ، وَصاحَ : « كانَ يَنْبَغي أَلّا يَفوتَني التَّفْكيرُ في ذٰلِكَ مِنْ قَبْلُ ... أَعْني : في تَقْريرِ دُكْتور هِينِسي . » ثُمَّ قَصَّ عَلَيْهِمْ قِصَّةَ مُهاجَمةِ رِينْفِيلْد لِحَمّالَيْ عَرَبةِ النَّقْلِ ، وَكَيْفَ أَنَّ دُكْتور هِينِسي اَحْتاطَ لِلأَمْرِ فَسَجَّلَ اَسْمَيْهِما خَشْيَةَ أَنْ تَحْدُثَ مَتاعِبُ مَعَ الشُّرْطةِ فيما بَعْدُ . ثُمَّ قالَ :

« وَها هُما الاِسْمانِ ، توماس سْنِيلِّينْغ ، وجوزيف سْمُولِّيت ، وَلا بُدَّ أَنَّ رِينْفِيلْد قَدْ عَرَفَ أَنَّهُما كانا يَنْقُلانِ دراكولا في أَحَدِ هٰذِهِ الصَّناديقِ . »

وَقَدْ أَحَسَّ ڤان هِيلْسِينْغ بِاَرْتِياحٍ حينَما سَمِعَ الخَبَرَ الَّذي جاءَ بِهِ الدُّكْتور سيوارْد ، وَبَدَأَ يَضَعُ الخُطَطَ مِنْ جَديدٍ . وَبِناءً عَلى الخُطَّةِ ذَهَبَ جوناثان إِلى لَنْدن لِلْبَحْثِ عَنْ حَمّالَيْ عَرَبةِ النَّقْلِ ، وَالاِهْتِداءِ إِلى المَكانِ الَّذي نَقَلا إِلَيْهِ الصَّناديقَ . أَمّا الثَّلاثةُ الآخَرونَ فَقَدْ عادوا إِلى كارْفاكْس . وَلَمْ يَكُنِ المَكانُ في ضَوْءِ النَّهارِ مُرْعِبًا كَما كانَ بِالأَمْسِ ، وَلَمْ تَكُنْ هُناكَ حاجةٌ إِلى الكِلابِ الَّتي أَحْضَرَها آرْثَر مَعَهُ لِتُبْعِدَ الجُرْذانَ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ أَيٌّ مِنْها ، وَلا كانَتْ هُناكَ أَيَّةُ جُثَّةٍ في أَيٍّ مِنَ الصَّناديقِ . وَلِذٰلِكَ كانَ مِنَ السَّهْلِ عَلى البروفيسور أَنْ يَفْتَحَ كُلَّ صُنْدوقٍ وَيَضَعَ في داخِلِهِ قِطْعةً مِنَ الخُبْزِ المُقَدَّسِ . وَمَعْنى هٰذا أَنَّهُ لَنْ يَسْتَطيعَ مَصّاصُ دِماءٍ أَنْ يَسْتَقِرَّ فيها بَعْدَ ذٰلِكَ .

لَمْ تَكُنْ مِينا في صِحَّةٍ طَيِّبةٍ ، وَكانَتْ تَبْدو شاحِبةَ الوَجْهِ وَهِيَ تَجْلِسُ لِتَتناوَلَ

الإِفْطارَ في الوَقْتِ الَّذي عادَ فيهِ الرِّجالُ . وَفيما بَعْدُ ، قامَتْ بِجَوْلةٍ في المُسْتَشْفى مَعَ الدُّكْتور سيوارْد ، وَكانَ يَرْوي لَها قِصَّةَ رِينْفِيلْد الَّتي أَثارَتِ اَهْتِمامَها ، حَتّى بَلَغا حُجْرَتَهُ فَدَخَلَتْها مَعَ الطَّبيبِ . كانَ رِينْفِيلْد يَبْدو هادِئًا ، بَلْ لَقَدْ كانَ وَدودًا أَليفًا في هٰذا اليَوْمِ ، وَبَدا عَلَيْهِ أَنَّهُ مُعْجَبٌ بِمِينا الَّتي اَسْتَأْذَنَتِ الطَّبيبَ في أَنْ تَقْضِيَ مَعَهُ بَعْضَ الوَقْتِ لِتَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ . وَبَعْدَ ظُهْرِ ذٰلِكَ اليَوْمِ كانَ دُكْتور سيوارْد مَشْغولًا بِعَمَلِهِ ، كَما كانَ البروفيسور مَشْغولًا بِقِراءةِ كِتابٍ في الحَديقةِ ، أَمّا آرْثَر فَقَدْ أَخَذَ كِلابَهُ في جَوْلةٍ لِلتَّرَيُّضِ . وَفيما بَعْدُ ، وَصَلَتْ بَرْقِيَّةٌ مِنْ جوناثان يَقولُ فيها إِنَّهُ لَمْ يَنْتَهِ مِنْ تَحَرِّياتِهِ بَعْدُ ، وَإِنَّهُ قَرَّرَ أَنْ يَقْضِيَ اللَّيْلَ في لَنْدن . وَبَعْدَ أَنْ قَضى الآخَرونَ أُمْسِيَةً طَيِّبةً مُجْتَمِعينَ ، اَنْصَرَفوا إِلى مَضاجِعِهِمْ واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ . وَلٰكِنْ يَبْدو أَنَّ هٰذا اليَوْمَ الَّذي اَنْقَضى هادِئًا لَمْ يُعِدَّهُمْ الإِعْدادَ الكافِيَ لِمُواجَهةِ اللَّيْلةِ الَّتي كانَتْ تَنْتَظِرُهُمْ . فَفي الدَّقيقةِ العِشْرينَ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ اَسْتَيْقَظَ ڤان هِيلْسِينْغ عَلى صَيْحةٍ مُرْعِبةٍ . وَبَيْنَما هُوَ يَرْتَدي بَعْضَ ثِيابِهِ سَمِعَ وَقْعَ أَقْدامِ شَخْصٍ يَجْري في الدِّهْليزِ نَحْوَ حُجْرةِ الدُّكْتور سيوارْد . وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ الحارِسُ اللَّيْليُّ جاءَ لِيُعْلِنَ أَنَّ رِينْفِيلْد قَدْ أُصيبَ . وَحينَما وَصَلَ الطَّبيبانِ إِلى حُجْرةِ رِينْفِيلْد شاهَداهُ مُمَدَّدًا عَلى الأَرْضِ ، وَأَنَّهُ وُجِّهَتْ إِلى رَأْسِهِ ضَرْبةٌ شَديدةٌ هَشَّمَتْ عَظْمةَ الرَّأْسِ وَضَغَطَتْها إِلى الدّاخِلِ وَكانَ الرَّجُلُ لايَزالُ حَيًّا ، وَلٰكِنَّهُ يَتَنَفَّسُ بِصُعوبةٍ .

قالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « أَحْضِرْ حَقيبَتَكَ . لابُدَّ أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنَ الضَّغْطِ الَّذي تُحْدِثُهُ العَظْمةُ المَكْسورةُ . لابُدَّ أَنْ نَقُصَّها فَوْرًا وَإِلّا فَإِنَّهُ سَيَموتُ . »

فَرَدَّ سيوارْد : « سَوْفَ يَموتُ لا مَحالةَ . لَقَدْ كانَتِ الضَّرْبةُ في غايةِ العُنْفِ . لا يُمْكِنُ أَنْ تَكونَ الإِصابةُ نَتيجةَ مُجَرَّدِ سُقوطٍ . »

قالَ ڤان هِيلْسِينْغ وَهُوَ يَحْلِقُ الشَّعْرَ المُلَوَّثَ بِالدَّمِ لِيُنَظِّفَ المَكانَ الَّذي سَيُحْدِثُ فيهِ القَصَّ : « إِذا أَمْكَنَهُ أَنْ يُخْبِرَنا بِما حَدَثَ لَهُ فَرُبَّما كانَ هٰذا عَوْنًا لَنا . »

وَقَدْ نَجَحَتْ مُحاوَلاتُ الطَّبيبَيْنِ وَظَهَرَتْ نَتائِجُها في الحالِ ، إِذِ اَنْفَتَحَتْ عَيْنا رِينْفِيلْد وَبَدَأَتْ شَفَتاهُ تَتَحَرَّكانِ ، ثُمَّ قالَ : « لَقَدْ جاءَ . »

فَقالَ سيوارْد : « اِسْتَمِرَّ . »

فَمَضى يَقولُ : « .. مِنْ خِلالِ ٱلنّافِذةِ في ٱلضَّبابِ ، مِثْلَما جاءَ في ٱللَّيْلةِ ٱلماضِيةِ . وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يَسْعَى إلى دِماءٍ . لَقَدْ كانَتِ ٱلسَّيِّدةُ هارْكر طَيِّبةً مَعي ، وَكانَ يَسْعَى إلى دَمِها ، وَحاوَلْتُ أَنْ أَمْنَعَهُ فَطَرَحَني أَرْضًا . »

وَخَفَتَ صَوْتُ رِينْفِيلْد ٱلمِسْكينِ حَتَّى أَصْبَحَ مِنَ ٱلصَّعْبِ سَماعُهُ ، ثُمَّ سَكَتَ بَعْدَ ذٰلِكَ .

وَجَسَّ دُكْتور سِيوارْد نَبْضَهُ ... لَقَدْ ماتَ !

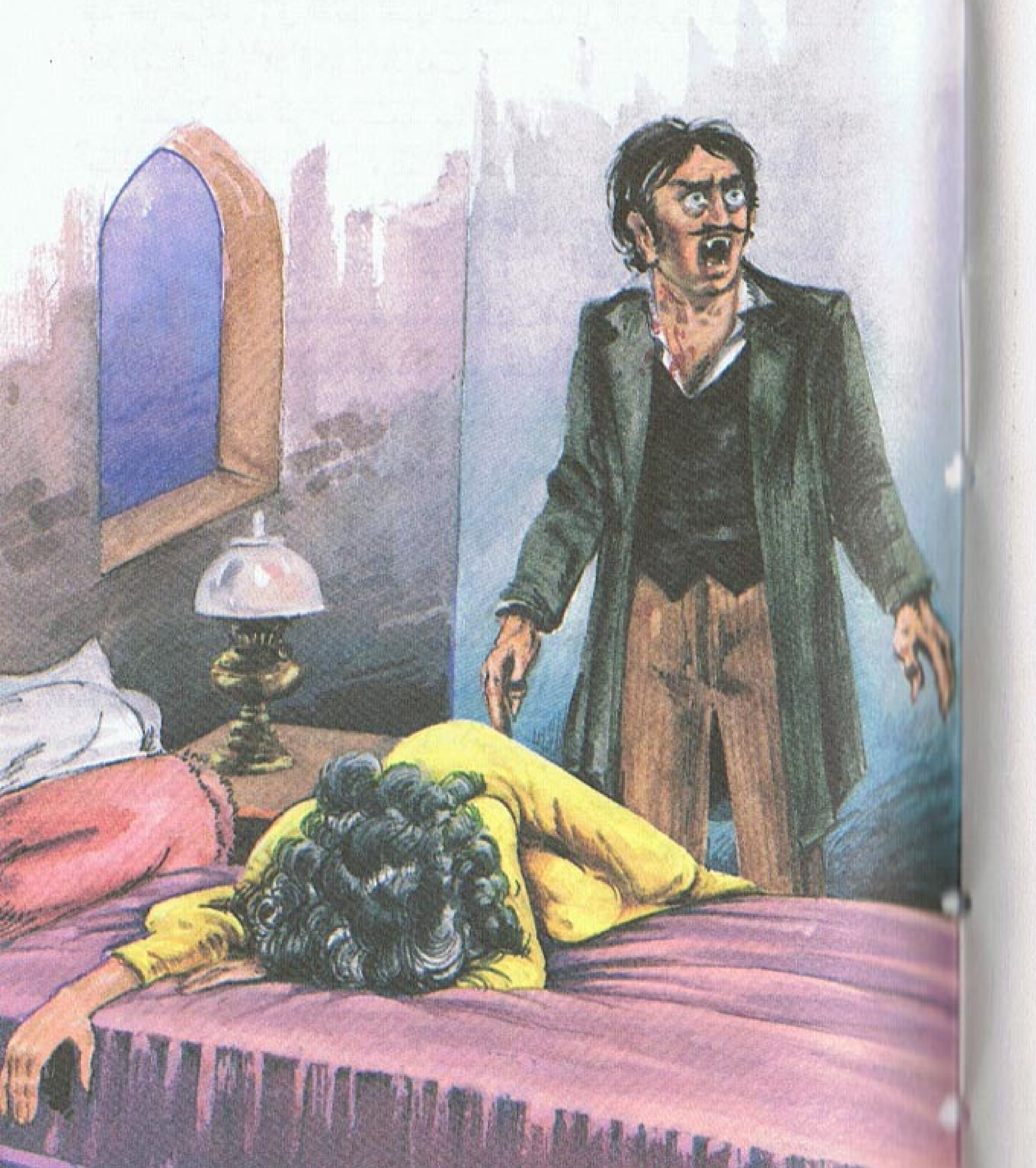
لَمْ يَنْبِسْ أَيٌّ مِنَ ٱلطَّبيبَيْنِ بِكَلِمةٍ ، وَإِنَّما ٱنْدَفَعا إلى ٱلطّابَقِ ٱلعُلْوِيِّ حَيْثُ ٱلْتَقَيا في طَريقِهِما بِآرْثَر ، وَٱتَّجَهوا مُباشَرةً إلى حُجْرةِ مِينا . وَتَوَقَّفوا عِنْدَ بابِها وَأَنْصَتوا ، وَكانَ كُلُّ شَيْءٍ هادِئًا في داخِلِ ٱلحُجْرةِ ، فَهَلْ كانَ مِنَ ٱلحِكْمةِ أَنْ يَثِقوا بِما فاهَ بِهِ رَجُلٌ مَجْنونٌ في لَحْظةِ ٱحْتِضارِهِ ؟

وَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ وَهُوَ يُحاوِلُ فَتْحَ ٱلبابِ في حَذَرٍ وَرِفْقٍ : « إِنَّها مَسْأَلةُ حَياةٍ أَوْ مَوْتٍ . »

كانَ ٱلبابُ مُوصَدًا ، فَٱنْدَفَعَ آرْثَر عَلى ٱلفَوْرِ وَأَلْقَى بِجِسْمِهِ عَلَيْهِ بِكُلِّ ما يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ ، فَٱنْفَتَحَ ٱلبابُ عَلى مِصْراعَيْهِ مِمّا أَدَّى إلى أَنْ يَهْوِيَ ٱلبروفِيسور عَلى ٱلأَرْضِ . وَحينَ نَهَضَ عَلى رُكْبَتَيْهِ وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلى مَنْظَرٍ جَمَّدَ ٱلدَّمَ في عُروقِهِ ، وَظَلَّ لَحْظةً لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَرْفَعَ نَفْسَهُ عَنِ ٱلأَرْضِ .

كانَ دراكولا واقِفًا ، وَكانَ ظَهْرُهُ مُسْتَنِدًا إلى ٱلجِدارِ ٱلَّذي في أَقْصى ٱلحُجْرةِ ، وَكانَ يُمْسِكُ بِمِينا لَصيقةً بِهِ ، وَذِراعُهُ ٱليُمْنَى تَقْبِضُ عَلى رَأْسِها وَتَدْفَعُ بِهِ نَحْوَ صَدْرِهِ . كانا يَبْدُوانِ لِأَوَّلِ وَهْلةٍ كَأَنَّهُما عاشِقانِ . وَلٰكِنَّ ڤان هِيلْسِينْغ لَمَحَ جُرْحًا مَفْتوحًا في عُنُقِ مَصّاصِ ٱلدِّماءِ ، وَخَطًّا رَفيعًا مِنَ ٱلدَّمِ يَسيلُ عَلى صَدْرِهِ . كانَ دراكولا يَضْغَطُ عَلى وَجْهِ مِينا إلى أَسْفَلَ فَوْقَ صَدْرِهِ لِيُرْغِمَها عَلى أَنْ تَشْرَبَ مِنْ دَمِهِ كَما يُرْغِمُ ٱلمَرْءُ قِطًّا صَغيرًا عَلى شُرْبِ ٱللَّبَنِ .

وَمِنْ حُسْنِ ٱلحَظِّ ، أَنَّ دراكولا قَدْ أَخَذَتْهُ ٱلمُفاجَأَةُ كَما أَخَذَتْهُمْ ، فَقَدْ كانَتْ عَيْناهُ تَبْدُوانِ كَدائِرَتَيْنِ مِنْ نارٍ ، بَيْنَما كانَ فَمُهُ مَفْغورًا ، وبادَرَ إلى إِلْقاءِ مِينا عَلى ٱلسَّريرِ وَقَدِ



احْمَرَّ وَجْهُها وَقَميصُ نَوْمِها مِمَّا عَلَقَ بِها مِنْ دِماءٍ . وَفي اللَّحْظَةِ الَّتي كانَ يَتَأَهَّبُ فيها لِكَيْ يَقْفِزَ كانَ ڤان هِيلْسِينْغ قَدْ تَمَكَّنَ مِنَ الوُقوفِ عَلى قَدَمَيْهِ وَرَفَعَ الصَّليبَ في يَدِهِ وَوَجَّهَهُ نَحْوَ دراكولا ، وَاقْتَدى بِهِ كُلٌّ مِنْ سِيوارْد وَآرْثَر بِصَليبَيْهِما . أَمَّا مَصَّاصُ الدِّماءِ فَقَدْ أَطْلَقَ صَرْخَةً ، وَفي اللَّحْظَةِ نَفْسِها تَسَلَّلَتْ ضَبابَةٌ إِلى الحُجْرَةِ وَخَيَّمَتْ عَلَيْها ، وَلَمْ تَكَدْ تَنْقَشِعُ حَتَّى كانَ الكونْت قَدْ ذَهَبَ .

وَانْقَضَتْ ساعَةٌ قَبْلَ أَنْ تَسْتَعيدَ مِينا قُدْرَتَها عَلى الكَلامِ ، إِذْ كانَتِ الصَّدْمَةُ الَّتي أَصابَتْها شَديدَةً . قالَتْ مِينا : « لَقَدْ كانَ أَشْبَهَ بِحُلْمٍ .. حُلْمٍ رَأَيْتُهُ في اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ كُنْتُ عَلى وَشْكِ أَنْ يُدْرِكَني النُّعاسُ حينَما ظَهَرَ إِلى جِواري رَجُلٌ لامِعُ العَيْنَيْنِ ، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيَّ ، فَخارَتْ قُوايَ كُلُّها . ثُمَّ .. » وَبَدا كَأَنَّما تُعاني مَشَقَّةً في الاسْتِمْرارِ في كَلامِها ثُمَّ قالَتْ : « ثُمَّ فَتَحَ قَميصَهُ ، وَأَنْشَبَ أَظافِرَهُ في عُنُقِهِ فَأَحْدَثَ جُرْحًا نَزَفَتْ دِماؤُهُ ، وَجَعَلَني أَشْرَبُ مِنْ دَمِهِ . وَبَيْنَما كُنْتُ أَشْرَبُ ، وَكانَ ذٰلِكَ رَغْمًا عَنّي ... بَيْنَما كُنْتُ أَشْرَبُ .. قالَ .. » ثُمَّ تَوَقَّفَتْ .

فَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « حاوِلي الاسْتِمْرارَ يا عَزيزَتي . »

فَمَضَتْ تَقولُ : « قالَ : الآنَ أَصْبَحْنا وَلَنا دَمٌ واحِدٌ ، وَعَقْلٌ واحِدٌ . لَقَدْ ساعَدْتِ أَعْدائي ، وَلٰكِنَّكِ سَوْفَ تُساعِدينَني عاجِلًا . »

لَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ ؛ إِذ ماذا يُمْكِنُ أَنْ يَقولوا لِيُساعِدوها ؟ وَمَضَتْ مِينا تَقولُ وَالدُّموعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْها ، وَهِيَ تُمْسِكُ بِيَدَيْ ڤان هِيلْسِينْغ : « وَلٰكِنْ هَلْ صَحيحٌ يابْروفيسور ؟ هَلْ سَأَظَلُّ أَسيرَةً لِدراكولا مُرْتَبِطَةً بِهِ إِلى الأَبَدِ ؟ وَحينَما أَموتُ ، أَلابُدَّ أَنْ أُصْبِحَ واحِدَةً مِنْ هٰؤُلاءِ ؟ »

فَرَدَّ ڤان هِيلْسِينْغ وَهُوَ يَبْدو أَكْبَرَ سِنًّا وَأَشَدَّ بَياضَ شَعْرٍ مِمَّا هُوَ : « يابْنَتي ، إِنَّكِ مَعَ أَصْدِقاءَ يُضَحّونَ بِحَياتِهِمْ لِكَيْ تَكوني آمِنَةً . لَقَدْ تَهاوَنَّا في الحِفاظِ عَلَيْكِ ، وَلٰكِنَّنا لَنْ نَتَهاوَنَ بَعْدَ الآنَ . إِذا كانَ دراكولا يَظُنُّ أَنَّهُ كَسَبَ شَيْئًا في هٰذِهِ الجَوْلَةِ فَهُوَ مُخْطِئٌ . لَقَدْ كانَ لَدَيْنا مِنْ قَبْلُ سَبَبٌ كافٍ يَدْفَعُنا لِتَدْميرِهِ ، أَمَّا الآنَ فَإِنَّ هٰذا السَّبَبَ أَصْبَحَ أَقْوى مِمَّا كانَ أَلْفَ مَرَّةٍ . »

الفَصْلُ السَّابِعَ عَشَرَ

عادَ جوناثان في الصَّباحِ التَّالي وَهُوَ يَشْعُرُ ـــ عَلى غَيْرِ العادَةِ ـــ بِالرِّضا عَنْ نَفْسِهِ ، فَقَدِ اهْتَدى إِلى ثَلاثَةِ أَماكِنَ أُرْسِلَتْ إِلَيْها الصَّناديقُ . فَخَمْسَةٌ مِنْها أُرْسِلَتْ إِلى مايل إند في شَرْقِ لَنْدَن ، وَسَبْعَةٌ إِلى وولوارث في جَنوبِ لَنْدَن ، وَتِسْعَةٌ إِلى رَقْمِ ١١٨ في بيكاديللي . وَكانَتْ وُجوهُ أَصْحابِهِ الحَزينَةُ الَّتي قابَلوهُ بِها في المُسْتَشْفى تَنِمُّ عَنْ أَمْرٍ ما ، مِمَّا جَعَلَهُ مُسْتَعِدًّا لِتَلَقّي الأَخْبارِ السَّيِّئَةِ عَنْ مِينا . وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ وَقَعَ الخَبَرُ عَلَيْهِ وَقْعَ الصَّاعِقَةِ . وَلَوْلا أَنَّ مِينا نَفْسَها كانَتْ في غايَةِ الشَّجاعَةِ لَفَقَدَ كُلَّ ما كانَ قَدِ اسْتَرَدَّهُ مِنْ قُوَّةٍ في الجِسْمِ وَالعَقْلِ في الأَسابيعِ القَليلَةِ الماضِيَةِ .

كانَ الاجْتِماعُ الَّذي عَقَدَهُ الأَصْدِقاءُ في مَكْتَبِ الطَّبيبِ لِقاءً غَيْرَ سَعيدٍ . لَقَدْ حَدَثَ تَغَيُّرٌ في اللُّعْبَةِ . فَمِنْ قَبْلُ ، رُبَّما كانَ يَكْفي أَنْ تُدَمَّرَ الصَّناديقُ ، وَيُضْطَرَّ دراكولا إِلى مُغادَرَةِ إِنْجِلْترا ، أَمَّا الآنَ فَقَدْ أَصْبَحَ مِنَ الضَّرورِيِّ أَنْ يُدَمَّرَ دراكولا نَفْسُهُ إِذا أُريدَ إِنْقاذُ مِينا . لَقَدْ شَرِبَتْ مِنْ دَمِ مَصَّاصِ الدِّماءِ ، وَلا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَتى يَبْدَأُ الشَّرُّ وَيَقَعُ البَلاءُ .

وَلٰكِنَّهُمْ ـــ عَلى الأَقَلِّ ـــ كانوا يَعْلَمونَ الآنَ إِلى أَيْنَ نُقِلَتِ الصَّناديقُ ، وَإِذا لَمْ يَكُنْ دراكولا قَدْ قامَ بِتَوْزيعِها حَوْلَ لَنْدَن ـــ مَرَّةً أُخْرى ـــ فَمِنَ المُمْكِنِ تَدْميرُها . وَلٰكِنَّ دُكْتور سِيوارْد أَثارَ أَوَّلَ مُشْكِلَةٍ ، إِذْ قالَ : « كَيْفَ نَتَمَكَّنُ مِنْ دُخولِ المَنازِلِ الَّتي بِها الصَّناديقُ ؟ »

فَرَدَّ جوناثان مُتَسائِلًا : « كَيْفَ تَمَكَّنَ الكونْت مِنْ دُخولِها ؟ نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ لَهُ أَساليبَهُ في الدُّخولِ . وَلٰكِنَّهُ عادَةً ـــ يَسْتَخْدِمُ مَفاتيحَ ، وَلابُدَّ أَنَّهُ يَحْتَفِظُ بِهٰذِهِ المَفاتيحِ في مَكانٍ ما . وَمَنْزِلُ بيكاديللي يَقَعُ في وَسَطِ لَنْدَن . وَلَوْ كُنْتُ مَكانَهُ لَاحْتَفَظْتُ بِالمَفاتيحِ فيهِ . »

فَقالَ الطَّبيبُ : « هٰذا صَحيحٌ . وَلٰكِنْ لا يَزالُ عَلَيْنا أَنْ نَدْخُلَ هٰذا المَنْزِلَ . وَلَيْسَ

مِنَ السَّهْلِ أَنْ تَتَسَلَّلَ إِلى مَنْزِلٍ كَبيرٍ كَهٰذا يَقَعُ في حَيٍّ مأْهولٍ مِنْ أَحْياءِ لَنْدَن ، وَ في ضَوْءِ النَّهارِ ، دونَ أَنْ يُبْلِغَ أَحَدٌ الشُّرْطَةَ . »

وَ كانَ الرَّدُّ عِنْدَ آرْثَر الَّذي قالَ : « أُتْرُكوا لي هٰذِهِ الْمُهِمَّةَ . كُلُّ ما أُحْتاجُ إِلَيْهِ هُوَ مَجْموعَةٌ مِنَ الثِّيابِ الثَّمينَةِ . »

فَنَظروا إِلَيْهِ مَدْهوشينَ ، وَلٰكِنَّه لَمْ يَلْفِظْ بِكَلِمَةٍ ، وَإِنَّما كانَ يَبْدو وَ هُوَ مُتَأَكِّدٌ تَمامًا أَنَّ الْبُروفيسور قَرَّرَ أَنْ يَثِقَ في خُطَّتِهِ أَيًّا كانَتْ هٰذِهِ الْخُطَّةُ . وَلٰكِنْ بَقِيَتْ هُناكَ صُعوبَةٌ واحِدَةٌ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ مَنْ يُمْكِنُ أَنْ يَتْرُكوا مينا في رِعايَتِهِ .

فَسَأَلَتْ مينا : « وَلِماذا لا أَصْحَبُكُمْ إِلى لَنْدَن ؟ »

فَقالَ الْبُروفيسور : «لِأَنَّ الْعَمَلَ الَّذي نَقومُ بِهِ لَنْ يَكونَ مِنْ نَوْعِ الْعَمَلِ الَّذي تَتَحَمَّلُ رُؤْيَتَهُ النِّساءُ . »

فَقالَتْ مينا : « بُروفيسور ، إِنَّ الَّذي رَأَيْتُ مِنْ قَبْلُ ، وَالَّذي عانَيْتُ مِنْ قَبْلُ ، لَمْ يَكُنْ مِنْ نَوْعِ الْعَمَلِ الَّذي تَتَحَمَّلُ رُؤْيَتَهُ النِّساءُ ، وَلٰكِنِّي رَأَيْتُهُ وَ عانَيْتُهُ . إِنَّني ذاهِبَةٌ مَعَكُمْ ، وَ سَوْفَ تَرى أَنَّني لَنْ أَخافَ . »

وَ في هٰذِهِ الْمَرَّةِ لَمْ يَكُنْ لَدى ڤان هِيلْسِينْغ ما يُجيبُ بِهِ ، .وَذَهَبَتْ مينا مَعَهُمْ .

عِنْدَما اقْتَرَبوا مِنْ لَنْدَن ارْتَدى آرْثَر الْمَلابِسَ الثَّمينَةَ ، وَ بَدا كَأَنَّهُ ابْنُ لُورد ، ثُمَّ غادَرَ الْمَحَطَّةَ وَحْدَهُ في عَرَبَةٍ ، وَ قالَ لَهُمْ وَ هُوَ يَتْرُكُهُمْ : « أَمْهِلوني ساعَةً واحِدَةً فَقَطْ . »

وَبَعْدَ مُضِيِّ السّاعَةِ تَمامًا كانَ ڤان هِيلْسِينْغ وَ سِيوارْد يَسيرانِ إِلى بيكاديللي ، وَ عَلى بُعْدِ أَرْبَعينَ مِتْرًا خَلْفَهُما سارَ جوناثان وَ مينا كَأَنَّهُما لا يَعْرِفانِهِما . وَ حينَما مَرَّ الْبُروفيسور وَ سيوارْد بِالْمَنْزِلِ رَقْمِ ١١٨ أَخَذَتْهُما الدَّهْشَةُ إِذْ رَأَيا أَنَّ الْبابَ نِصْفُ مَفْتوحٍ وَ شاهَدا أَحَدَ الْعُمّالِ يَقومُ بِعَمَلٍ ما في الْقُفْلِ . فَتَوَقَّفا وَ تَظاهَرا بِأَنَّهُما يَتَأَمَّلانِ في مَعْروضاتِ أَحَدِ

الْمَتاجِرِ الْمُجاوِرَةِ ؛ لِكَيْلا يَلْفِتا إِلَيْهِما الْأَنْظارَ . وَقَبْلَ أَنْ يَصِلَ جوناثان وَ مينا فُتِحَ بابُ الْمَنْزِلِ كامِلًا ، وَظَهَرَ آرْثَر مِنَ الدّاخِلِ فَأَعْطى الْعامِلَ بَعْضَ النُّقودِ ، ثُمَّ حَمَلَ الْعامِلُ حَقيبَتَهُ وَ انْصَرَفَ .

وَالْتَقى الْجَميعُ داخِلَ الْمَنْزِلِ فَأَغْلَقوا الْبابَ ، وَوَقَفوا في الْبَهْوِ يَتَحَدَّثونَ . وَوَجَّهَ الْبُروفيسور سُؤالَهُ إِلى آرْثَر : « كَيْفَ تَأَتّى لَكَ أَنْ تَفْعَلَ هٰذا ؟ »

فَابْتَسَمَ آرْثَر وَ قالَ : « ذَهَبْتُ إِلى حانوتٍ لِبَيْعِ الْأَقْفالِ ، وَ قُلْتُ إِنَّ خادِمي الْأَحْمَقَ سافَرَ وَ مَعَهُ كُلُّ مَفاتيحي وَ إِنِّي لا أَسْتَطيعُ دُخولَ مَنْزِلي ، وَ سَأَلْتُهُمْ ما إِذا كانوا يَسْتَطيعونَ فَتْحَ بابِهِ ، فَأَرْسَلوا أَحَدَ عُمّالِهِمْ مَعي . حَقيقَةً لَقَدْ كانَ الْأَمْرُ في غايَةِ الْبَساطَةِ . »

فَسَأَلَ سِيوارْد : « وَلٰكِنْ ... أَلَمْ يَسْأَلوكَ عَمَّنْ تَكونُ ؟ »

فَأَجابَ آرْثَر : « إِنَّهم في لَنْدن يُصَدِّقونَ الرَّجُلَ الَّذي يَلْبَسُ ثِيابًا أَنيقَةً مادامَ يَبْدو واثِقًا مِنْ نَفْسِهِ . »

وَهٰكَذا شَرَعوا يَبْحَثونَ في الطّابَقِ الْأَرْضِيِّ حَتّى وَجَدوا الصَّناديقَ في حُجْرَةٍ خَلْفِيَّةٍ كَريهَةِ الرّائِحَةِ ، وَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « تِسْعَةٌ ! الْحَمْدُ لله ، فَإِذا كانَ الْكونت في واحِدٍ مِنْ هٰذِهِ فَلَنْ نَكونَ في حاجَةٍ إِلى الْاِسْتِمْرارِ في الْبَحْثِ . »

وَتَرَكَ الْبُروفيسور الْآخَرينَ لِيَقوموا بِفَتْحِ الصَّناديقِ ، وَصَعِدَ هُوَ إِلى الطّابَقِ الْعُلْوِيِّ وَدَخَلَ الْحُجْرَةَ الْكُبْرى الَّتي تُطِلُّ عَلى الشّارِعِ . وَ كانَ في وَسَطِ الْحُجْرَةِ مِنْضَدَةٌ عَلَيْها فُرْجونُ شَعْرٍ ، وَ فُرْجونُ مَلابِسَ ، وَفِنجانٌ قَديمٌ بِهِ قَليلٌ مِنَ الْماءِ . وَبَدا كَما لَوْ كانَ الْماءُ قَدِ اسْتُخْدِمَ في إِزالَةِ دَمٍ . وَ كانَ هُناكَ مِفْتاحانِ أَيْضًا . فَأَخَذَهُما وَ هَبَطَ إِلى الطّابَقِ الْأَرْضِيِّ في نَفْسِ اللَّحْظَةِ الَّتي كانوا يَفْتَحونَ فيها الصُّنْدوقَ الْأَخيرَ . وَتَبَيَّنَ أَنَّ دراكولا لَمْ يَكُنْ في أَيٍّ مِنَ الصَّناديقِ التِّسْعَةِ ، وَلٰكِنَّ ڤان هِيلْسِينْغ لَمْ يَكُنْ في الْحَقيقَةِ يَتَوَقَّعُ أَنْ يَكونَ مَحْظوظًا إِلى هٰذِهِ الدَّرَجَةِ ، وَ كانَ في جُعْبَتِهِ خُطَطٌ أُخْرى .

قالَ البُروفيسور : « جاك ، سَوْفَ تَذْهَبُ إلى مايل إند ، أمّا آرثر و جوناثان فيَذْهَبانِ إلى ويلوارث ، وهاكُمُ المِفْتاحَيْنِ ، ولا تَنْسَوا أنْ تَتَوَقَّفوا في الطَّريقِ عِنْدَ الفُنْدُقِ الَّذي أنْزِلُ فيهِ لِكَيْ تأْخُذوا الحَقيبَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَحْتَوِيانِ على كُلِّ ما تَحْتاجونَ إلَيْهِ في مُهِمَّتِكُمْ . أمّا مينا وأنا فَسَنَبْقى هُنا ، وحاوِلوا أنْ تَعودوا إلى هُنا قَبْلَ حُلولِ الظَّلامِ . »

انْصَرَفَ الرِّجالُ الثَّلاثَةُ وبَقِيَ ڤان هيلْسينْغ ومينا في المَنْزِلِ وَحْدَهُما ، فَصَعِدا إلى الطَّابَقِ العُلْوِيِّ ، وجَلَسا إلى النَّافِذَةِ يَتَطَلَّعانِ إلى الشَّارِعِ المُزْدَحِمِ . وكانا يُحاوِلانِ ألّا يُفَكِّرا في الصَّناديقِ الَّتي في الطَّابَقِ الأَرْضِيِّ ، أوْ في الماءِ المَصْبوغِ بالدَّمِ فَوْقَ المِنْضَدَةِ خَلْفَهُما ، أو في أنْفاسِ مَصّاصِ الدِّماءِ الَّتي كانَتْ تَسْري في الهَواءِ .

كانا يَعْلَمانِ أنَّهُما في أمانٍ في النَّهارِ ، ولٰكِنْ ما إنْ ظَهَرَتْ بَوادِرُ المَساءِ ، وفَقَدَ النَّهارُ إشْراقَهُ حَتّى بَدَأَ ڤان هيلْسينْغ يَنْتابُهُ القَلَقُ . هَبْ أنَّ الأَصْدِقاءَ تأَخَّروا وأنَّ دراكولا الغاضِبَ الثّائِرَ عادَ إلى المَنْزِلِ في قُوَّتِهِ وجَبَروتِهِ .

وفي حَوالَى السّاعَةِ السّابِعَةِ كانَتْ هُناكَ طَرَقاتٌ عَنيفَةٌ على البابِ الأَمامِيِّ ، وتَبَيَّنَ أنَّهُ جاك سيوارْد الَّذي قالَ إنَّهُ وَجَدَ المَنْزِلَ والصَّناديقَ الخَمْسَةَ ، ولٰكِنْ لَمْ يَكُنْ دراكولا في أيٍّ مِنْها كَذٰلِكَ .

ومَرَّتْ نِصْفُ ساعَةٍ ، وأخَذَتِ الظُّلْمَةُ تَزْحَفُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا ، وقُبَيْلَ أنْ يَعُمَّ الظَّلامُ المَكانَ إذا بالبابِ يُطْرَقُ ثانِيَةً ، ودَخَلَ آرثر و جوناثان . ولٰكِنْ لا أثَرَ لِدراكولا . لَقَدْ وَجَدا سِتَّةَ صَناديقَ خالِيَةٍ ، أمّا السّابِعُ فَمَفْقودٌ . يا لَها مِنْ أخْبارٍ سَيِّئَةٍ ! إنَّ عَدُوَّهُمْ لا يَزالُ طَليقًا ، وأمّا المَكانُ الَّذي يَخْتَبِئُ فيهِ فإنَّهُ لا يَزالُ مَجْهولًا .

قالَ ڤان هيلْسينْغ : « ولٰكِنَّهُ يَعْلَمُ أنَّهُ في مَأْزِقٍ ، وسَوْفَ يَزورُ صَناديقَهُ ، وأعْتَقِدُ أنَّهُ سيَأْتي في وَقْتٍ ما اللَّيْلَةَ إلى هُنا ، ويَنْبَغي أنْ نَكونَ مُسْتَعِدّينَ لَهُ . إنَّ فُرْصَتَنا في قَتْلِهِ لَيْسَتْ كَبيرَةً ولٰكِنْ لابُدَّ أنْ نَنْتَهِزَها إذْ رُبَّما لا تُتاحُ لَنا فُرْصَةٌ أُخْرى . »

وطالَ انْتِظارُهُمْ في الحُجْرَةِ الخَلْفِيَّةِ ثَلاثَ ساعاتٍ قَبْلَ أنْ يَطْرُقَ أسْماعَهُمْ صَوْتُ المِفْتاحِ في البابِ الأَمامِيِّ ، وحانَ الوَقْتُ لِيَأْخُذوا أُهْبَتَهُمْ . كانَ ڤان هيلْسينْغ يَقِفُ مُواجِهًا البابَ ، وآرثر إلى يَمينِهِ ، وسيوارْد إلى يَسارِهِ ، ووَقَفَتْ مينا في أحَدِ أرْكانِ الحُجْرَةِ . أمّا جوناثان فكانَ يَقِفُ خَلْفَ البابِ مُمْسِكًا بالسِّكّينِ الهِنْدِيِّ الطَّويلِ الَّذي كانَ يَدَّخِرُهُ لِهٰذِهِ اللَّحْظَةِ .

وسَمِعوا وَقْعَ أقْدامٍ حَذِرَةٍ في البَهْوِ ، ومَضَتْ لَحْظَةُ سُكونٍ ، وفَجْأَةً تَهاوى البابُ كُلُّهُ وسَقَطَ ، وانْتَصَبَ دراكولا في الحُجْرَةِ بَيْنَهُمْ . أهْوى عَلَيْهِ جوناثان بِطَعْنَةٍ ، ولٰكِنَّ دراكولا كانَ أسْرَعَ فَقَفَزَ إلى أحَدِ الجَوانِبِ كَما يَقْفِزُ القِطُّ ، فَلَمْ يُصِبِ السِّكّينُ إلّا سُتْرَتَهُ مُحْدِثًا فيها ثُقْبًا واسِعًا . وتَساقَطَتِ النُّقودُ الوَرَقِيَّةُ والذَّهَبِيَّةُ الَّتي كانَتْ فيها ، وعِنْدَما كانَ ڤان هيلْسينْغ يَتَقَدَّمُ مِنْهُ والصَّليبُ في يَدِهِ أخَذَ وَجْهُ الكونْتِ يَتَحَوَّلُ إلى أصْفَرَ مُخْضَرٍّ .

وفي اللَّحْظَةِ الَّتي كانَ جوناثان يَتَأَهَّبُ فيها لِلطَّعْنَةِ الثّانِيَةِ وَثَبَ الكونْتُ فأَلْقى بِنَفْسِهِ تَحْتَ ذِراعِهِ الَّتي تَحْمِلُ السِّكّينَ مُتَحاشِيًا الضَّرْبَةَ ، والْتَقَطَ في طَريقِهِ حُفْنَةً مِنَ النُّقودِ الَّتي على الأَرْضِ ، ثُمَّ انْدَفَعَ مُلْقِيًا بِنَفْسِهِ مِنَ النّافِذَةِ .

وحينَ سَمِعَ الأَصْدِقاءُ صَوْتَ تَهَشُّمِ الزُّجاجِ ورَنينِ بَعْضِ الذَّهَبِ الَّذي سَقَطَ ، سارَعوا إلى النّافِذَةِ في الوَقْتِ المُناسِبِ لِكَيْ يَرَوا دراكولا يَنْهَضُ مُتَثاقِلًا في المَمَرِّ الَّذي يَقَعُ خَلْفَ المَنْزِلِ ، وتَطَلَّعَ إلَيْهِمْ وهُوَ يَصيحُ :

« إنَّكُمْ تأْمُلونَ تَدْميري . إنَّكُمْ تَظُنّونَ أنَّكُمْ تَرَكْتُموني بِلا مَأْوًى أسْتَريحُ فيهِ ، ولٰكِنْ لَدَيَّ المَزيدُ . إنَّ مُهِمَّتي لَمْ تَبْدَأْ إلّا الآنَ .. الآنَ فَقَطْ ، وإنَّ الوَقْتَ في صالِحي . »

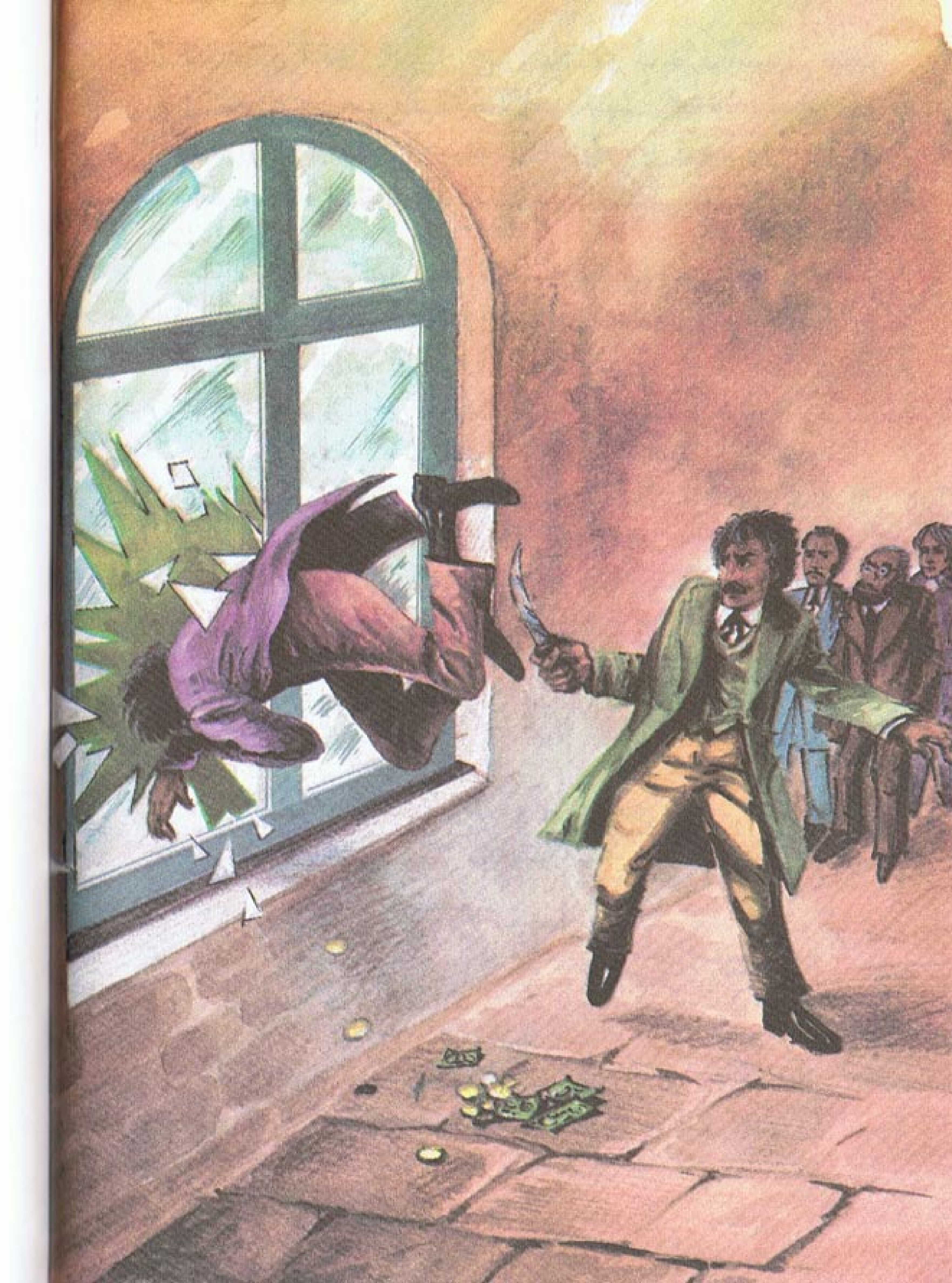
ثُمَّ أشارَ بإصْبَعٍ غَطّاها الشَّعْرُ إلى مينا قائِلًا : « إنَّها أصْبَحَتْ مِلْكي ، وسَوْفَ أُدَمِّرُكُمْ كُلَّكُمْ . »

ثُمَّ ٱنْطَلَقَ يَعْدو بَيْنَ طَيَّاتِ ٱلظَّلامِ ، وَبَعْضٌ مِنَ ٱلعُمْلَةِ ٱلذَّهَبِيَّةِ يَتَساقَطُ مِنْهُ فَيُحْدِثُ رَنينًا .

وَقالَ ٱلبُروفِيسور : « إِنَّهُ يَنْطِقُ بِكَلِماتٍ حَماسِيَّةٍ شُجاعَةٍ ، وَلٰكِنَّ ٱلواقِعَ أَنَّهُ يَخْشانا ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ فَفيمَ هٰذِهِ ٱلعَجَلَةُ ٱلمَحْمومَةُ ؟ وَفيمَ هٰذِهِ ٱلحاجَةُ — ٱلَّتي تَبْدو مُلِحَّةً — إِلى كُلِّ هٰذِهِ ٱلنُّقودِ ؟ »

قالَ دُكتور سيوارْد : « وَمَعَ هٰذا يابُروفِيسور فَإِنَّه لايَزالُ يَمْلِكُ مَكانًا لِلإِسْتِراحَةِ لا نَعْلَمُ أَيْنَ هُوَ . إِنَّه يَزْدادُ خِبْرَةً بِمُرورِ ٱلوَقْتِ . هَلْ هُوَ حَقيقَةً في حاجَةٍ إِلى كُلِّ هٰذِهِ الصَّناديقِ ٱلتُّرابِيَّةِ ؟ حينَما غادَرَ ترانْسِيلْڤانْيا كانَ مِنَ ٱلواضِحِ أَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ في حاجَةٍ إِلَيْها فِعْلًا ، وَلايَزالُ يَعْتَقِدُ ذٰلِكَ ٱلآنَ . وَلٰكِنْ مِنَ ٱلمُؤَكَّدِ أَنَّ لَدَيْهِ ٱلقُدْرَةَ عَلى إِيجادِ أَماكِنَ جَديدَةٍ لِلإِسْتِراحَةِ ، فَما مَوْقِفُنا مِنْهُ ٱلآنَ ؟ قَدْ نَكونُ مَهْزومينَ أَمامَهُ ، وَقَدْ يَلْجَأُ إِلى ٱلِاخْتِفاءِ سَنواتٍ ، وَفي خِلالِ هٰذِهِ ٱلسَّنَواتِ مَنْ يَدْري ؟ »

وَأَدْرَكَ ٱلباقونَ تَمامًا ماذا كانَ يَعْني بِهٰذِهِ ٱلعِبارَةِ ٱلأَخيرَةِ . ما ٱلَّذي سَيُصيبُ مِنّا ؟ هَلْ مِنَ ٱلمُسْتَطاعِ حَقًّا إِنْقاذُ مِنّا ؟



اَلْفَصْلُ الثَّامِنَ عَشَرَ

كانَتْ وَجْبةُ ٱلإفْطارِ في صَباحِ ٱلْيَوْمِ التّالي وَجْبةَ الصَّمْتِ وَالسُّكونِ ، إذْ كانوا جَميعًا مَشْغولينَ بِالتَّفْكيرِ : ماذا تَكونُ ٱلخُطْوةُ التّالِيةُ ؟

وَنَزَلَتْ مينا إلَيْهِمْ مُتَأخِّرةً ، فَبادَرَها دُكْتور سيوارْد بِالسُّؤالِ : « كَيْفَ حالُكِ ٱلْيَوْمَ يامينا ؟ »

فَأجابَتْ : « مُتْعَبةٌ قَليلًا . لَقَدْ رَأَيْتُ أَحْلامًا كَثيرةً في اللَّيْلةِ ٱلماضيةِ . »

فَسَأَلَ الطَّبيبُ الَّذي كانَ دائِمًا يَرى أَنَّ لِلأَحْلامِ أَهَمِّيَّتَها : « أَحْلامًا شائِقةً ؟ »

فَابْتَسَمَتْ مينا وَقالَتْ : « لَيْسَتْ شائِقةً في ٱلواقِعِ ، فَقَطْ مُخْتَلِفة . لَقَدْ رَأَيْتُ نَفْسي كَأنَّما أنا في زَوْرَقٍ وَأنَّني أَسْمَعُ خَريرَ ماءٍ ، لا شَيْءَ أَكْثَرَ مِنْ هٰذا . وَلٰكِنَّ ٱلحُلْمَ ظَلَّ يُعاوِدُني مَرَّةً بَعْدَ أُخرى . »

فَسَأَلَها : « حينَما هاجَمَكِ دراكولا في تِلْكَ اللَّيْلةِ ، أَلَمْ يَقُلْ إنَّكِ وَإيّاهُ أَصْبَحْتُما مِنْ دَمٍ واحِدٍ وَعَقْلٍ واحِدٍ ؟ »

قالت : « شَيْئًا مِنْ هٰذا ٱلقَبيلِ . »

فَسَأَلَ الطَّبيبُ وَهُوَ يَلْتَفِتُ إلى ڤان هِيلْسينْغ : « هَلْ مِنَ ٱلمُمْكِنِ بِالنِّسْبةِ لِمينا في حالَتِها ٱلحاضِرةِ ، أَنْ تَدْخُلَ في عَقْلِ دراكولا بَيْنَما هي نائِمةٌ ؟ »

أَجابَ ٱلبُروفِيسور : « هذا تَفْكيرٌ لَهُ وَجاهَتُهُ . »

فَسَأَلَ الطَّبيبُ : « إذا لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ تَفْكيرٍ لَهُ وَجاهَتُهُ بَلْ كانَ حَقيقةً واقِعةً فَبِماذا تُفَسِّرُ ٱلحُلْمَ الَّذي رَأَتْهُ مينا عَنِ ٱلماءِ ؟ »

تَدَخَّلَ جوناثان في ٱلحَديثِ قائِلًا : « لِماذا ٱحْتاجَ دراكولا إلى كُلِّ هٰذِهِ النُّقودِ ؟ »

أَجابَ ٱلبُروفِيسور : « إنَّهُ في حاجةٍ مُلِحَّةٍ إلَيْها بِدَليلِ أَنَّهُ تَوَقَّفَ لِيَلْتَقِطَ مِنَ ٱلأَرْضِ بَعْضًا مِنْها وَهُوَ خارِجٌ . هَلْ مِنَ ٱلمُمْكِنِ أَنْ يَكونَ دراكولا مُعْتَزِمًا مُغادَرةَ إنْجلترا ؟ »

كانَ ٱلبُروفِيسور يُعَبِّرُ عَمّا يَجولُ في أَذْهانِهِمْ جَميعًا مِنْ أَفْكارٍ . وَمَضى يَقولُ : « تُرى هَلْ بَلَغْنا مِنَ النَّجاحِ مَعَهُ أَكْثَرَ مِمّا تَصَوَّرْنا ؟ مِنَ ٱلمُؤَكَّدِ أَنَّهُ ٱلآنَ يَتَمَلَّكُهُ الرُّعْبُ ، فَهُوَ يَرى أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ يُحِسُّ بِٱلأَمانِ في لَنْدَن ، بَعْدَ أَنْ لَمْ يَتَبَقَّ لَدَيْهِ غَيْرُ صُنْدوقٍ واحِدٍ . إنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّنا نَتَعَقَّبُهُ ، وَلِذٰلِكَ يُفَكِّرُ في ٱلهَرَبِ عَنْ طَريقِ ٱلماءِ في سَفينةٍ عائِدًا إلى مَوْطِنِهِ . لا ، نَحْنُ لَمْ نَنْهَزِمْ بَعْدُ . إنَّ ٱلمُطارَدةَ مُسْتَمِرَّةٌ . »

وَتَساءَلَتْ مينا في حُزْنٍ : « وَلٰكِنْ لِماذا ؟ أَكيدٌ أَنَّهُ يَكْفيكُمْ أَنْ تَدْفَعوهُ إلى ٱلخُروجِ مِنْ هٰذا ٱلبَلَدِ . فَلِماذا تُعَرِّضونَ أَنْفُسَكُمْ لِلْمَزيدِ مِنَ ٱلمَخاطِرِ بِتَعَقُّبِهِ في ٱلبَحْرِ ؟ »

فَأَخَذَ ڤان هِيلْسينْغ يَدَيْها كِلْتَيْهِما في يَدِهِ وَتَطَلَّعَ في عَيْنَيْها قائِلًا : « ياسَيِّدةُ مينا ، إنَّ لَدَيْنا رُوحًا نُريدُ أَنْ نُخَلِّصَها مِنْ إسارِها . مُنْذُ أُسْبوعٍ مَضى كانَ مِنَ ٱلمُمْكِنِ أَنْ نَكْتَفِيَ بِما قُلْتِ ، أَمّا ٱلآنَ فَعَلَيْنا أَنْ نَجِدَهُ حَتّى وَلَوِ اضْطُرِرْنا إلى الذَّهابِ إلى الشَّيْطانِ نَفْسِهِ . »

فَبَكَتْ مينا مُتَأَثِّرةً بِكَلِماتِهِ ، بَلِ الرِّجالُ أَنْفُسُهُمْ أَحَسّوا بِالدُّموعِ تَتَرَقْرَقُ في أَعْيُنِهِمْ . وَلٰكِنَّ ڤان هِيلْسينْغ أَسْرَعَ بِرَدِّهِمْ إلى جَوِّ ٱلعَمَلِ الَّذي يَنْتَظِرُهُمْ فَقالَ لَهُمْ : « تَذَكَّروا ، لَيْسَ لَدَيْنا دَليلٌ حَتّى ٱلآنَ عَلى أَنَّ ما يُراوِدُ أَفْكارَنا صَحيحٌ ، فَعَلَيْنا أَنْ نَبْحَثَ عَمّا إذا كانَتْ هُناكَ سَفينةٌ غادَرَتْ لَنْدَن في اللَّيْلةِ ٱلماضِيةِ مُتَّجِهةً إلى ٱلبَحْرِ ٱلأَسْوَدِ ، ثُمَّ عَلَيْنا بَعْدَ ذٰلِكَ أَنْ نَعْرِفَ ما كانَتْ تَحْمِلُهُ هٰذِهِ السَّفينة . »

وَلَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلعَسيرِ أَنْ يَهْتَدوا إلى هٰذِهِ ٱلمَعْلوماتِ ، فَإذا كانَ دراكولا قَدْ غادَرَ لَنْدن فَلابُدَّ أَنْ يَكونَ قَدْ رَكِبَ سَفينةً واحِدةً هِيَ كاثرين الَّتي أَقْلَعَتْ مُتَّجِهةً إلى ڤارْنا في السّاعةِ السّادِسةِ صَباحَ ذٰلِكَ ٱليَوْمِ . وَقَدْ ذَهَبَ جوناثان في نَفْسِ ٱليَوْمِ إلى ٱلمَكْتَبِ ٱلمَسْؤولِ

عَنِ السَّفينةِ وَعادَ بِقِصَّةٍ مُثيرةٍ . وَفي ٱلْقِصَّةِ أَنَّ رَجُلًا طَويلًا نَحيلًا يَرْتَدي مَلابِسَ سَوْداءَ زارَ ٱلْمَكْتَبَ في ساعةٍ مُتَأَخِّرةٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَعَرَضَ مَبْلَغًا كَبيرًا من النُّقودِ نَظيرَ شَحْنِ صُنْدوقٍ إلى ڤارنا . وَلَمْ يَكُنِ الصُّنْدوقُ مَعَهُ ، فَأَخْبَرَهُ الرُّبَّانُ أَنَّ الوَقْتَ قَدْ فاتَ لِأَنَّ السَّفينةَ سَتُقْلِعُ في السَّاعةِ الثَّالِثةِ . وَلٰكِنْ عِنْدَما حانَتْ ساعةُ الإِقْلاعِ ظَهَرَ في ٱلْأُفُقِ ضَبابٌ كَثيفٌ ، وَٱضْطُرَّتِ السَّفينةُ إلى ٱلِانْتِظارِ . وَحينَئِذٍ عادَ الرَّجُلُ ذو ٱلْمَلابِسِ السَّوْداءِ وَهُوَ يَسوقُ عَرَبَةً تَحْمِلُ الصُّنْدوقَ ، وَشَحَنَهُ عَلى ظَهْرِ السَّفينةِ . ثُمَّ ٱنْفَرَجَ الضَّبابُ ، وَأَقْلَعَتِ السَّفينةُ .

فَقالَ ڤان هيلْسينْغ بَعْدَ أَنِ ٱنْتَهى جوناثان مِنْ روايةِ قِصَّتِهِ : « ياأَصْدِقائي ، إِنَّنا جَميعًا .. نَعَمْ جَميعًا » وَكَرَّرَ ٱلْكَلِمةَ وَهُوَ يَنْظُرُ إلى مينا ، وَٱسْتَمَرَّ يَقولُ : « سَنَقومُ بِرِحْلةٍ . إِنَّ هٰذِهِ السَّفينةَ — حَتَّى مَعَ ٱلاسْتِعانةِ بِالرِّيحِ الَّتي يُسَيْطِرُ عَلَيْها دراكولا — سَوْفَ تَسْتَغْرِقُ ثَلاثَةَ أَسابيعَ لِكَي تَصِلَ إلى ڤارنا ، أَمَّا نَحْنُ فَسَوْفَ نَأْخُذُ ٱلْقِطارَ وَنَسْتَقْبِلُهُ عِنْدَ وُصولِهِ . إِنَّ لِقاءَنا التَّالي بِٱلكونْتِ يَجِبُ أَنْ يَكونَ اللِّقاءَ ٱلْأَخيرَ . »

ٱلْقِسْمُ ٱلْخامِسُ
ترانْسِلْڤانْيا ... مَرَّةً ثانِيةً

ٱلْفَصْلُ التَّاسِعَ عَشَرَ

بَدا جوناثان حَزينًا وَهُوَ يُغادِرُ ٱلْقِطارَ في ڤارنا في أَواخِرِ شَهْرِ أُكْتوبر (تِشْرين ٱلْأَوَّل) . وَكانَ أَصْدِقاؤُهُ قَدْ بَذَلوا كُلَّ جُهْدٍ لِكَيْ يَجْعَلوهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ مينا بِخَيْرٍ . وَكانَ جَميلًا أَنْ يَفْعَلوا ذٰلِكَ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ يَعْلَمُ أَنَّ ٱلْبروفيسور وَدُكْتور سيوارْد يُراقِبانِها يَوْمِيًّا لِكَيْ يَعْرِفا ما قَدْ يَطْرَأُ عَلَيْها مِنْ تَغَيُّرٍ في أَسْنانِها ، وَفي عَيْنَيْها ، وَفي بَشَرَتِها . ذٰلِكَ أَنَّ دَمَ مَصَّاصِ الدِّماءِ أَشْبَهُ بِعَضَّةِ ٱلْكَلْبِ ٱلْمَسْعورِ ، فَهُوَ يُحْدِثُ تَأْثيرَهُ بِبُطْءٍ ، وَلٰكِنَّ أَثَرَهُ أَكيدٌ . وَلَيْسَ هُناكَ وَسيلةٌ لِإِنْقاذِ الضَّحِيَّةِ الَّتي شَرِبَتْ مِنْ دَمِهِ إِلَّا بِمَوْتِ مَصَّاصِ الدِّماءِ نَفْسِهِ .

وَكانَتْ هُناكَ تَغَيُّراتٌ طَفيفةٌ قَدْ بَدَأَتْ تَظْهَرُ في نَظَراتِها . وفي بَعْضِ أَوْقاتٍ كانَتْ تَظَلُّ صامِتةً صَمْتًا غَيْرَ طَبيعِيٍّ ، وَكانَ جوناثان يَعْرِفُ أَنَّ هٰذا الصَّمْتَ ٱلْمُتَكَرِّرَ يُثيرُ ٱلْقَلَقَ في الطَّبيبَيْنِ . كانَتِ ٱلْخُطَّةُ الَّتي أَعَدُّوها بَسيطةً ، فَقَدْ دَبَّروا ٱلْأَمْرَ قَبْلَ مُغادَرَتِهِمْ لَنْدَن لِكَيْ تُرْسَلَ إِلَيْهِمْ بَرْقِيَّاتٌ تُطْلِعُهُمْ أَوَّلًا بِأَوَّلٍ عَلى تَحَرُّكاتِ السَّفينةِ كاثْرين . كَما أَنَّهُمْ أَبْلَغوا مَكْتَبَ السَّفينةِ في ڤارنا أَنَّ عَلَيْها صُنْدوقًا يَحْتَوي عَلى بَضائِعَ مَسْروقةٍ ، وَٱتُّفِقَ عَلى أَنَّهُ عِنْدَما تَصِلُ السَّفينةُ سَيَصْعَدُ مَعَهُمْ إلى ظَهْرِها مَنْدوبٌ مِنَ ٱلْمَكْتَبِ بِفَتْحِ الصُّنْدوقِ . فَإِذا تَيَسَّرَ لَهُمُ الصُّعودُ إلى السَّفينةِ فَسَوْفَ يَقْتُلونَ دراكولا ، وَلَنْ يَدَعوا أَحَدًا يَحولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذٰلِكَ .

وَقالَ ٱلْبروفيسور : « إِنَّ الشُّرْطةَ لَنْ تُسَبِّبَ لَنا أَيَّةَ مَتاعِبَ ، إِذْ لَنْ يَكونَ هُناكَ جُثَّةٌ . فَما إِنْ يَدْخُلَ الطَّرَفُ ٱلْمُدَبَّبُ قَلْبَ مَصَّاصِ الدِّماءِ حَتَّى يَتَحَلَّلَ جَسَدُهُ كُلُّهُ وَلَنْ يَسْتَطيعَ أَحَدٌ أَنْ يُثْبِتَ أَنَّنا قَتَلْنا أَحَدًا . »

في صَباحِ ٱلْيَوْمِ ٱلْخامِسِ وَٱلْعِشْرينَ مِنْ أُكْتوبَر كانَ ٱلْأَصْدِقاءُ يَجْلِسونَ في ٱلْفُنْدُقِ حَيْثُ

تلقّوا برقيّةً تقولُ : « تُفيدُ التّقاريرُ أنَّ السّفينةَ كاثرين في الدّردنيل اليومَ . »

كانَ الخبَرُ مُثيرًا ، فقدْ كانَ يَعني أنَّ هُناكَ أربعًا وعِشرينَ ساعةً تَستغرقُها السّفينةُ مِنَ الدّردنيل حتّى ڤارْنا . وكانتِ البرقيّةُ مؤرّخةً في الرّابعِ والعِشرينَ ، وهٰذا يَعني أنّها ستَصِلُ هٰذا الصّباحَ ، ورُبّما بَعدَ الظُّهرِ ، وأيًّا كانتِ الحالُ فإنّها ستَصِلُ في ضَوْءِ النّهارِ .

ولٰكنْ حلّتِ السّاعةُ الثّانيةَ عشْرةَ ولَمْ تَصِلِ السّفينةُ كاثرين . وانقضتْ فترةُ ما بَعدَ الظُّهرِ ولَمْ تكنْ ثمّةَ أخبارٌ عنها ، وقيلَ إنَّ هُناكَ ضبابًا في بَعضِ الأماكنِ ، وقدْ يكونُ ذٰلكَ سببًا في تأخيرِ وُصولِها . ولِذٰلكَ أوَوا إلى مَضاجعِهِمْ وهُمْ مُبتئِسونَ ، على أنْ يَتناوبَ الرِّجالُ السّهرَ واحِدًا بَعدَ الآخرِ طَوالَ اللّيلِ في ترقُّبٍ .

وفي هٰذهِ اللّيلةِ رأتْ مينا في مَنامِها الماءَ كذٰلكَ ، وفسّرَ المَنامُ بأنَّ دراكولا — على الأقلّ — لايَزالُ على ظَهرِ السّفينةِ .

ومرَّ اليومُ السادسُ والعِشرونَ كما مرَّ سابقُهُ ، ولٰكنْ في السّاعةِ الخامسةِ بَعدَ الظُّهرِ وَصلَتْ برقيّةٌ أُخرى تقولُ : « تُفيدُ التّقاريرُ أنَّ السّفينةَ كاثرين تَدخُلُ غالاتز في السّاعةِ الواحِدةِ . »

غالاتز ؟ إنَّ غالاتز تقعُ على بُعدِ ثلاثِمئةِ كيلو مترٍ تجاهَ الشّمالِ على الدّانوبِ ! إنّها أقربُ إلى حِصنِ دراكولا مِنها إلى ڤارْنا بمِقدارِ ثلاثِمئةِ كيلو مترٍ . ياتُرى ما الّذي حدَثَ ؟

كانَ آرثر أوّلَ المُتحدّثينَ فقالَ : « هُناكَ قِطارٌ يُغادِرُ إلى غالاتز في السّاعةِ العاشِرةِ مَساءَ اللّيلةِ ، إذا أخذْنا هٰذا القِطارَ فإنّنا نَستطيعُ أنْ نَصِلَ في اثنتَي عشْرةَ ساعةً . »

كانَ آرثر أحدَ أُولٰئكَ الّذينَ يَحتفِظونَ بجَداوِلِ المُواصلاتِ في رُؤوسِهِمْ . وهٰكذا وَصلوا إلى غالاتز في صَباحِ اليومِ التّالي ، وكانَ رُبّانُ السّفينةِ الإنجليزيّةِ الّذي قابلوه مُتعاونًا مَعهُمْ إلى حدٍّ كبيرٍ فروى لَهُمْ قِصّةً غريبةً . حدّثَهُمْ عمّا صادفَهُمْ في البحرِ مِنْ حظٍّ طيّبٍ

على غيرِ العادةِ إذْ كانتِ الرّيحُ مُواتيةً حتّى البحرِ الأسْودِ . ثُمّ حدّثَهُمْ عَنِ الضّبابِ الكثيفِ الّذي خيّمَ بَعدَ ذٰلكَ واستمرَّ أيّامًا ، وعِندما انقشعَ الضّبابُ إذا بِهِمْ في الدّانوبِ على مَقربةٍ مِنْ غالاتز ، وبما أنَّ الأوراقَ المُتعلّقةَ بالصّندوقِ تقولُ « غالاتز ، عَنْ طريقِ ڤارْنا » فقدْ كانَ مِنَ البديهيِّ حينما يَتقدّمُ شخصٌ لِتسلُّمِ الصّندوقِ أنْ يُسلّمهُ لَهُ .

فسألَهُ ڤان هِلْسينغ : « ما اسْمُ هٰذا الشّخصِ ؟ »

أخذَ الرُّبّانُ يَبحثُ في أوراقِهِ ثُمّ قالَ : « ها هُوذا هيلدشايم ، إنّه تاجرٌ . »

فشكروا لِلرُّبّانِ مُعاونتَهُ الصّادقةَ ، ثُمّ غادروا السّفينةَ وذَهبوا إلى المَدينةِ يَبحثونَ عَنْ هيلدشايم الّذي أخبرَهُمْ أنّهُ لا يَعلَمُ شيئًا عَنِ الصّندوقِ . كُلُّ ما في الأمرِ أنّهُ تلقّى تَعليماتٍ مِنْ لَندن لِكَيْ يُسلّمهُ إلى وَكيلٍ يُدعى بيتر سكينسكي يَتعاملُ مَعَ السلوڤاك ، وهُمْ بِدَوْرِهِمْ يَنقُلونَ البَضائعَ مِنْ مَنابعِ الأنهارِ ومَصابِّها إلى غالاتز .

وقَصدوا إلى سكينسكي فلَمْ يَجدوهُ في مَكتبِهِ أوْ في بَيتِهِ . وقالَ جيرانُهُ إنّهُمْ لَمْ يَروهُ مُنذُ البارحةِ . وبَينَما كانوا يَتحدّثونَ إلى الجيرانِ جاءَ صَبيٌّ يَجري لاهِثًا وهُوَ شديدُ الاضْطِرابِ ، وقالَ إنَّ سكينسكي وُجِدَ مُلقًى قُربَ ساحةِ الكَنيسةِ وقدْ مُزِّقَ عُنقُهُ شرَّ مُمزّقٍ ، كما لَوْ كانَ قدْ نَهشَهُ حيوانٌ ضارٍ . وما كادَ يُتِمُّ كلامَهُ حتّى هُرِعَ الجيرانُ نَحوَ الكَنيسةِ ، وبَقِيَ البروفيسور وأصحابُهُ وَحدَهُمْ .

وقالَ ڤان هِلْسينغ : « أعتقدُ أنَّ السّيِّدَ سكينسكي لَنْ يَكونَ قادِرًا على مُساعدَتِنا الآنَ ، ولٰكنّنا نَستطيعُ أنْ نَكشِفَ الدّوْرَ الّذي قامَ بِهِ في تَنفيذِ خُطَطِ دراكولا . إنَّ الصُّعوبةَ الماثِلةَ أمامَ دراكولا الآنَ هِيَ كيفَ يَعودُ إلى حِصنِهِ . فهُوَ يَستطيعُ أنْ يُسافرَ بِطريقٍ برّيٍّ في عَربةٍ أوْ في القِطارِ ، أوْ بِطريقٍ نَهريٍّ .

« أمّا الطّريقُ البرّيُّ فهُوَ بَطيءٌ وفيهِ مَخاطرُ ، وأمّا القِطارُ فهُوَ سَريعٌ ولٰكنْ يَفتقرُ إلى مَنْ يَتولّى رِعايةَ الصّندوقِ . ثُمّ إنَّ التّوقُّفاتِ في المَحطّاتِ قدْ تكونُ فيها مَخاطرُ ، والّذي

يَبدو لي هُوَ أنَّ تعامُلَهُ مَعَ سكينسكي يُشيرُ إلى أنَّهُ سافَرَ بِطَريقِ النَّهرِ . ها هِيَ ذي خريطةٌ ، وَأَنْتَ ذو خِبرةٍ بِالإقليمِ يا جوناثان ، فَأَيْنَ تَظُنُّ أنَّهُ قَدْ ذَهَبَ ؟ »

وَنَظَرَ جوناثان إلى الخَريطةِ وَلَمْ يَكُنْ يَعرِفُ هٰذا الجُزْءَ مِنَ الإقليمِ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ قَدْ تَعَلَّمَ الكَثيرَ مِنْ كُتُبِ الكونت .

كانَ هُناكَ نَهرانِ يَصُبّانِ في الدّانوبِ مِنَ الشَّمالِ ، نَهْرُ بْروث وَنَهْرُ سيرث . وَكانَ يَعْلَمُ أنَّ المِلاحةَ في نَهرِ بروث أفضَلُ بالنِّسبةِ لِلزَّوارِق ، أمّا نَهرُ سيرث فَهُوَ يَلْتَقي بِنَهرِ بيستريتز عِنْدَ فوندو ، وَهُوَ يَسيرُ مُحاذِيًا لِطَريقِ بيستريتز الجَبلِيَّةِ وَلِذٰلِكَ قالَ جوناثان : « فَلْنَتْبَعْ نَهرَ سيرث . »

فَقالَ ڤان هيلْسينغ : « وَهُوَ كَذٰلِكَ . وَأَعتَقِدُ أنَّ الخُطَّةَ الَّتي يَنْبَغي أنْ نُنَفِّذَها هِيَ أنْ يَأْخُذَ آرْثَر وَجوناثان زَوْرَقًا بُخارِيًّا إلى مَنْبَعِ النَّهرِ ، أمّا أنْتَ يا جاك فَإنّي أُريدُكَ أنْ تَأْخُذَ بَعضَ الجِيادِ وَتَتْبَعَ جِسْرَ النَّهرِ ، أمّا أنا وَمينا فَسَوْفَ نَأْخُذُ القِطارَ إلى ڤرسْتي ، وَمِنْ هُناكَ نَمْضي في طَريقِنا نَحْوَ الحِصْنِ فَإذا لَقيتُمْ دراكولا في الطَّريقِ فَتَصَرَّفوا مَعَهُ ، أمّا إذا لَمْ تَلْقَوْهُ فَسَوْفَ نَكونُ في انتِظارِكُمْ في الجِبالِ . إنَّها فُرْصَتُنا الأخيرةُ . »

الفَصْلُ العِشْرونَ

حِينَما جاءَ جوناثان إلى ترانْسيلْڤانيا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ كانَ الجَوُّ مُشْمِسًا ، وَمِنْ ثَمَّ كانَ السَّفَرُ مُتْعةً . أمّا الآنَ فَالدُّنْيا خَريفٌ ، وَالصَّباحُ الباكِرُ مُعْتِمٌ فَوْقَ النَّهرِ ، وَالضَّبابُ مُخَيِّمٌ في أغْلَبِ الأَوْقاتِ . وَلِذٰلِكَ كانَ جوناثان يَسْعَدُ بالدِّفْءِ حينَما يَفْتَحُ صُندوقَ الاحْتِراقِ في الزَّوْرَقِ البُخارِيِّ الصَّغيرِ وَيَضَعُ فيهِ مَزيدًا مِنْ قِطَعِ الخَشَبِ .

وَطَوالَ يَوْمَيْنِ ـــ كانَ الزَّوْرَقُ يَسيرُ فيهِما لَيْلًا وَنَهارًا ـــ كانا يَمُرّانِ بِقَليلٍ مِنَ الزَّوارِقِ الصَّغيرةِ الَّتي لَمْ يَكُنْ حَجْمُها يَتَّسِعُ لِحَمْلِ صُندوقِ الكونت . وَلٰكِنْ في اليَوْمِ الثّالِثِ ـــ وَحينَما كانَ الزَّوْرَقُ يَمُرُّ خِلالَ نَهرِ بيستريتز ـــ عَلِما مِنْ بَعْضِ السلوڤاكِ العابِرينَ أنَّ هُناكَ زَوْرَقًا كَبيرًا كانَ يَمْخُرُ عُبابَ النَّهرِ بِسُرْعةٍ غَيْرِ عادِيَّةٍ ، قَدْ مَرَّ بِهِمْ في اليَوْمِ السّابِقِ . وَقَدْ أحْيا هٰذا الخَبَرُ الأَمَلَ في نَفْسَيْهِما . وَحينَما زادا مِنْ سُرْعةِ الزَّوْرَقِ كانَ مَجْرى النَّهرِ قَدْ أصْبَحَ ضَيِّقًا صَخْرِيًّا ، وَلَمْ يَحْتَمِلِ الزَّوْرَقُ الصُّخورَ فَأَصابَهُ عَطَبٌ في النِّهايةِ ، وَاسْتَغْرَقَ إصْلاحُهُ عِدَّةَ ساعاتٍ ، كَما أنَّ الطَّقْسَ بَدَأَ يَسوءُ .

كانا ـــ في ذٰلِكَ الوَقْتِ ـــ عَلى بُعْدِ حَوالَى تِسْعينَ كيلو مِتْرًا فَقَطْ مِنْ بيستريتز . وَكانَ آرْثَر يَخْشى أنْ يَكونَ الصُّنْدوقُ قَدْ سَبَقَ نَقْلُهُ إلى البَرِّ . وَلِذٰلِكَ غادَروا الزَّوْرَقَ عِنْدَ أوَّلِ مَدينةٍ صَغيرةٍ لِيَسْتَخْدِما الجِيادَ ، وَقَرَّرا أنْ يَسيرا بِها عَبْرَ الطَّريقِ الرّيفِيَّةِ الصَّغيرةِ مُتَّجِهَيْنِ إلى المَكانِ المُحَدَّدِ لِلِقاءِ مينا وَالبروفيسور . وَلَمْ يَكونا قَدْ شاهَدا جاك سيوارْد مُنْذُ أوَّلِ يَوْمٍ غادَرا فيهِ غالاتز ، وَلِذٰلِكَ اعْتَقَدا أنَّهُ سَبَقَهُما عَلى الطَّريقِ .

أمّا البروفيسور وَمينا فَكانا قَدْ وَصَلا إلى ڤرسْتي في مُنْتَصَفِ نَهارِ اليَوْمِ الحادي وَالثَّلاثينَ . وَكانَتْ هٰذِهِ المَحَطَّةُ هِيَ نِهايةَ مَسارِ القِطارِ ، وَلِذٰلِكَ غادَراها لِيَرْكَبا عَرَبةً تَأْخُذُهُما لِمَسافةِ مِئةِ كيلو مِتْرٍ مِنْ ڤرسْتي إلى طَريقِ بيستريتز الجَبَلِيَّةِ .

وَاشْتَرى البروفيسور بَعْضَ الطَّعامِ وَالمَلابِسِ الثَّقيلةِ ، وَقالَ لِمينا : « رُبَّما لا نَرى مَدينةً أُخرى لِمُدَّةِ أُسْبوعٍ . »

كانَتِ الطُّرُق سَيِّئَةً ، وَلٰكِنَّ ڤان هِيلْسِينْغ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ الكَلَلَ ، وَمَضيا قُدُمًا ، وَلَمْ يَكونا يَتَوَقَّفانِ إِلَّا لِفَتَراتٍ قَصيرةٍ مِنْ أَجْلِ النَّوْمِ ، أَوْ لِتَغْييرِ الجِيادِ كُلَّما كانَ ذٰلِكَ مُمْكِنًا . حَتَّى بَلَغا طَريقَ بِيسْتْرِيتْز في اليَوْمِ الثَّاني .

كانَتْ مِينا تَنامُ كَثيرًا ، وَلٰكِنَّ الأَحْلامَ الَّتي كانَتْ تَراها عَنِ الماءِ تَوَقَّفَتْ ، مِمَّا يُشيرُ إِلى أَنَّ دراكولا لابُدَّ أَنْ يَكونَ قَدْ غادَرَ النَّهْرَ . وَالآنَ وَقَدْ أَخَذا يَزْدادانِ صُعودًا في الجِبالِ ، بَدَأَتْ مِينا تَتَخَلَّصُ مِنْ رَغْبَتِها في النُّعاسِ ، وَبَدا عَلَيْها الاهْتِمامُ الشَّديدُ بِالطَّريقِ ، وَأَخيرًا هَتَفَتْ وَهِيَ تُشيرُ إِلى طَريقٍ جانِبِيَّةٍ : « هٰذِهِ هِيَ الطَّريقُ . »

فَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « أَأَنْتِ مُتَأَكِّدَةٌ ؟ »

فَأَجابَتْ : « بِالطَّبْعِ ، أَلَمْ يُسافِرْ جوناثان في هٰذِهِ الطَّريقِ وَيُخْبِرْني عَنْها ؟ »

وَمَعَ أَنَّ الأَمْرَ بَدا لِڤان هِيلْسِينْغ غَريبًا فَإِنَّهُ أَطاعَها ، وَبَعْدَ ساعَتَيْنِ تَبَيَّنَ أَنَّها كانَتْ عَلى صَوابٍ ، فَقَدْ شاهَدا — لِأَوَّلِ مَرَّةٍ — مِنْ خِلالِ فُرْجَةٍ بَيْنَ الأَشْجارِ جُدْرانًا تُكَلِّلُها السُّحُبُ .. جُدْرانَ قَلْعَةِ دراكولا . فَانْسَحَبا بَعيدًا عَنِ الطَّريقِ بَيْنَ الأَشْجارِ ، وَأَدْرَكَ ڤان هِيلْسِينْغ أَنَّ الثَّلْجَ سَيَسْقُطُ ، فَأَوْقَدَ نارًا . ثُمَّ أَخَذَ عودًا وَخَطَّ بِهِ دائِرَةً حَوْلَ النَّارِ وَمِينا ، وَأَلْقى فيها بَعْضَ قِطَعٍ صَغيرَةٍ مِنَ الخُبْزِ المُقَدَّسِ . ثُمَّ مَشى إِلى خارِجِ الدَّائِرَةِ ، وَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلى مِينا وَهِيَ جالِسَةٌ بِجِوارِ النَّارِ صامِتَةً كَالأَمْواتِ ، ثُمَّ نادى : « مِينا ، تَعالَيْ إِلى هُنا . »

فَنَهَضَتْ وَبَدَأَتْ تَمْشي نَحْوَهُ ، ثُمَّ تَوَقَّفَتْ ، وَبَدا أَنَّها عاجِزَةٌ عَنِ التَّقَدُّمِ خُطْوَةً أُخْرى . فَمَدَّ ڤان هِيلْسِينْغ يَدَهُ نَحْوَها وَقالَ : « تَعالَيْ . »

فَهَزَّتْ رَأْسَها ثُمَّ انْهارَتْ فَوْقَ الأَرْضِ . لَقَدْ حَدَثَ ما تَوَقَّعَهُ . كانَتْ فِعْلًا قَدْ أَصْبَحَتْ نِصْفَ مَصَّاصَةِ دِماءٍ ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَتَحَرَّكَ خارِجَ الدَّائِرَةِ . وَلٰكِنْ إِذا لَمْ تَكُنْ هِيَ قادِرَةً عَلى اجْتِيازِ الدَّائِرَةِ لِتَخْرُجَ مِنْها ، فَإِنَّ الآخَرينَ لَنْ يَكونوا قادِرينَ عَلى اقْتِحامِ

الدَّائِرَةِ لِيَدْخُلوها . أَمَّا هُوَ فَسَيَكونُ آمِنًا ما بَقِيَ في داخِلِ الدَّائِرَةِ ، وَمادامَ يَحْرِصُ عَلى أَلَّا يُصيبَهُ أَذًى مِنْ مِينا نَفْسِها . وَأَخَذَ يَتَطَلَّعُ إِلَيْها ، أَمَّا هِيَ فَقَدْ عادَتْ إِلى النَّارِ وَجَلَسَتْ بِجِوارِها مُسْتَغْرِقَةً في أَفْكارٍ عَميقَةٍ خَفِيَّةٍ .

خَيَّمَ الظَّلامُ عَلى المَكانِ ، وَكانَتِ الجِيادُ تَصْهِلُ صَهيلًا مَذْعورًا ، وَتُحاوِلُ التَّخَلُّصَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتي رُبِطَتْ إِلَيْها . فَاتَّجَهَ ڤان هِيلْسِينْغ إِلَيْها ، وَرَبَّتَ عَلَيْها بِيَدَيْهِ لِتَهْدِئَتِها . وَمَعَ أَنَّهُ كانَ مَنْهوكًا مَكْدودًا فَإِنَّهُ لَمْ يَجْرُؤْ أَنْ يَنامَ قَبْلَ أَنْ تَنامَ مِينا الَّتي كانَتْ أَرِقَةً .

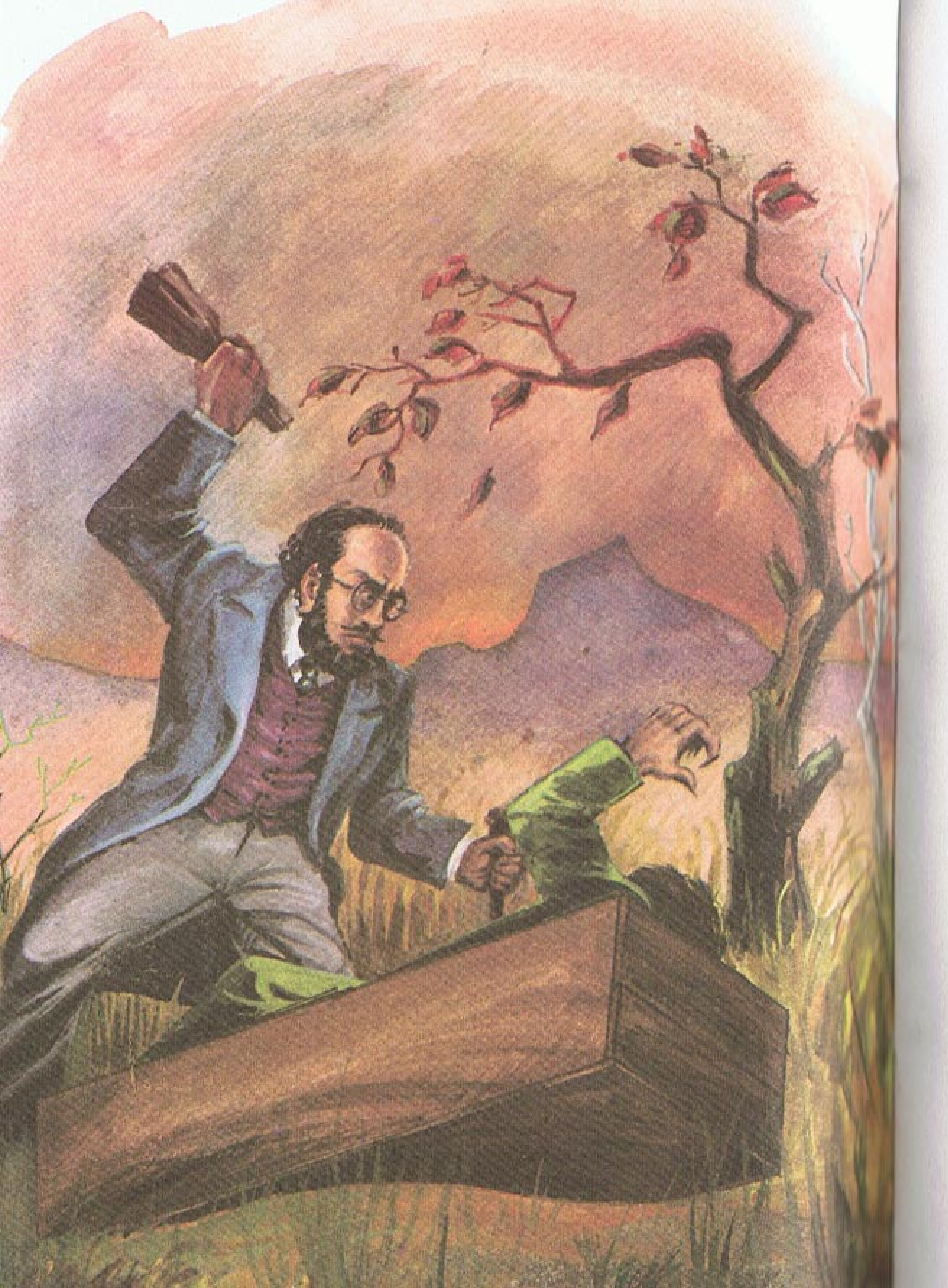
وَفي حَوالَى السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ صَباحًا بَدَأَتِ النَّارُ تَخْمُدُ ، وَكانَ يوشِكُ أَنْ يَنْهَضَ لِيُحْضِرَ بَعْضَ الخَشَبِ قَبْلَ أَنْ يَتَكاثَرَ سُقوطُ الصَّقيعِ حينَما تَكَلَّمَتْ مِينا . قالَتْ : « لا تَخْرُجْ مِنَ الدَّائِرَةِ الآنَ . ابْقَ كَما أَنْتَ آمِنًا . »

فَتَوَقَّفَ قائِلًا : « رُبَّما أَكونُ آمِنًا ، أَمَّا أَنْتِ ... »

فَأَطْلَقَتْ ضِحْكَةً خافِتَةً غَيْرَ طَبيعِيَّةٍ وَقالَتْ : « لا تَخَفْ عَلَيَّ . لَيْسَ هُناكَ مَنْ هُوَ أَشَدُّ أَمانًا مِنِّي . فَأَنا في أَمانٍ مِنْهُمْ . »

وَكانَ يوشِكُ أَنْ يَسْأَلَها عَمَّنْ كانَتْ تَعْني بِقَوْلِها « مِنْهُمْ » حينَما صَهَلَتِ الجِيادُ ثانِيَةً ، فَنَظَرَ فَإِذا ثَلاثُ نِساءٍ يَتَحَرَّكْنَ حَوْلَ حافَّةِ الدَّائِرَةِ كَما تَفْعَلُ الرَّاقِصاتُ ، فَتَمَلَّكَهُ الخَوْفُ إِذْ أَدْرَكَ أَنَّهُنَّ لابُدَّ أَنْ تَكُنَّ سَيِّداتِ القَلْعَةِ اللَّائي شَرِبْنَ مِنْ دَمِ جوناثان . وَمَدَّتِ النِّساءُ أَذْرُعَهُنَّ نَحْوَ مِينا كَما لَوْ كُنَّ يَدْعونَها لِتُشارِكَهُنَّ . وَأَحَسَّ ڤان هِيلْسِينْغ بِما بَدَأَ يَنْتابُ مِينا مِنْ إِثارَةٍ أَخَذَتْ تَتَزايَدُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا . وَفَكَّرَ ، تُرى هَلْ سَتَظَلُّ القُوَّةُ الَّتي في الدَّائِرَةِ صامِدَةً ؟

وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَتْرُكَ الأُمورَ لِلْمُصادَفَةِ ، فَالْتَقَطَ قِطْعَةً مِنَ الخَشَبِ المُتَوَهِّجِ وَأَلْقاها عَلَيْهِنَّ وَصاحَ : « بِاسْمِ الرَّبِّ اذْهَبْنَ بَعيدًا . » فَإِذا بِهِنَّ يَبْتَعِدْنَ صارِخاتٍ لاعِناتٍ .



وَعادَ السُّكونُ يُخَيِّمُ عَلى ٱلمَكانِ ، وَأَحَسَّ بِإِرْهاقٍ لَمْ يُحِسَّ بِهِ مِنْ قَبْلُ ، وَلٰكِنَّ مِينا كانَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظَراتٍ غَريبَةً . وَكانَ عَلَيْهِ أَنْ يُواجِهَ ٱلحَقيقَةَ ٱلمُفْزِعَةَ ، إِذْ لَمْ يَعُدْ هُناكَ أَمانٌ في أَنْ يَنامَ وَهُوَ بِصُحْبَتِها . إِنَّها تُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ عالَمَ اللاَّمَوْتى .

وَأَقْبَلَ النَّهارُ بِبُطْءٍ ، وَتَوَقَّفَ سُقوطُ الصَّقيعِ ، وَلٰكِنَّ السَّماءَ كانَتْ لاتَزالُ مُلَبَّدَةً بِٱلغُيومِ .

كانَ جوناثان وَآرْثَر قَدِ ٱلْتَقَيا بِجاك سِيوارْد عَلى الطَّريقِ في ٱليَوْمِ السّابِقِ . وَبَيْنَما كانَ ٱلفُرْسانُ الثَّلاثَةُ في طَريقِهِمْ لاحَظوا آثارًا حَديثَةً لِعَجَلاتٍ فَوْقَ ٱلأَرْضِ الَّتي يَكْسوها الصَّقيعُ ٱلخَفيفُ . فَٱسْتَدَلُّوا بِها عَلى أَنَّهم لا يَبْعُدونَ عَنْ عَدُوِّهِمْ إِلَّا مَسافَةً قَصيرَةً . وَبَعْدَ الظُّهْرِ بِقَليلٍ اسْتَطاعوا أَنْ يَلْمَحوا في طَريقِ ٱلجَبَلِ فَوْقَهُمُ ٱلغَجَرَ الَّذينَ كانَ السلوفاك قَدْ سَلَّموا إِلَيْهِمُ الصُّنْدوقَ . وَحينَما أَخَذَتِ الشَّمْسُ تَميلُ بِبُطْءٍ لِلْمَغيبِ كانَ واضِحًا لِلْجَميعِ أَنَّهُمْ في سِباقٍ مَعَ الزَّمَنِ .

وَفَجْأَةً سَمِعوا طَلْقَةً تُدَوِّي في ٱلفَضاءِ ، وَكانَ مَصْدَرُها مِنْ مَكانٍ قَريبٍ مِنْهُمْ .

فَسَحَبَ جوناثان السِّكّينَ ٱلهِنْدِيَّ الَّذي مَعَهُ ، وَحَثَّ جَوادَهُ ٱلمَكْدودَ لِيَنْطَلِقَ ، وَأَوْشَكَتِ ٱلمَعْرَكَةُ ٱلفاصِلَةُ أَنْ تَبْدَأَ .

تَوَقَّفَ ٱلغَجَرُ ، وَتَجَمَّعوا حَوْلَ عَرَبَتِهِمْ وَفي أَيْديهِمُ السَّكاكينُ ، وَفي مُواجَهَتِهِمْ في وَسَطِ الطَّريقِ كانَ ڤان هِيلْسينْغ يَقِفُ شاهِرًا مُسَدَّسًا . وَبَدا عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ مُتَرَدِّدونَ لا يَعْرِفونَ ماذا يَفْعَلونَ . كانَ ڤان هِيلْسينْغ واحِدًا ، وَكانوا كَثيرينَ . صَحيحٌ أَنَّهُ يَحْمِلُ مُسَدَّسًا ، وَلٰكِنْ ماذا إِذا هاجَموهُ كُلُّهُمْ دُفْعَةً واحِدَةً ؟

وَلٰكِنَّ ٱلوَقْتَ لَمْ يُسْعِفْهُمْ لِكَيْ يَتَّخِذوا قَرارًا ، فَما هِيَ إِلَّا لَحْظَةٌ حَتَّى كانَ ٱلفُرْسانُ الثَّلاثَةُ يَنْدَفِعونَ بِجِيادِهِمْ نَحْوَهُمْ مُباشَرَةً ، وَفي مُقَدِّمَتِهِمْ جوناثان يُلَوِّحُ بِسِكّينِهِ وَيَصيحُ صَيْحاتٍ ضارِيَةً .

كانَ الغَجَرُ مَكْدودينَ مِنْ وَعْثاءِ السَّفَرِ ، وَأَخَذَهُمْ هَوْلُ الْمُفاجَأَةِ ، فَتَظاهَروا بُرْهَةً بِمَظْهَرِ الْمُقاتِلينَ ، وَلٰكِنْ سَرْعانَ ما نَكَصوا عَلى أَعْقابِهِمْ وَفَرّوا هارِبينَ إِلى سَفْحِ الْجَبَلِ .

كانَتِ الشَّمْسُ وَقْتَئِذٍ قَدْ أَخَذَتْ تَتَدَلّى نَحْوَ أَسْفَلِ الْجَبَلِ حَتّى بَلَغَتْ مُنْتَصَفَ الْمَسافَةِ ، وَأَدْرَكوا أَنَّهُ بَعْدَ دَقائِقَ تَعودُ إِلى دراكولا قُوَّتُهُ وَيَفيقُ . فَكانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُسارِعوا قَبْلَ فَواتِ الْأَوانِ . وَلٰكِنَّهُمْ كانوا قَدْ فاتَهُمْ أَنْ يُحْضِروا آلَةً يَفْتَحونَ بِها الصُّنْدوقَ ، فَالْتَقَطوا بَعْضَ الْأَحْجارِ وَتَسَلَّقوا الْعَرَبَةَ وَأَخَذوا يَطْرُقونَ أَعْلَى الصُّنْدوقِ بِشِدَّةٍ كَأَنَّهُمْ مَجانينُ . وَكانَتِ الشَّمْسُ قَدْ بَلَغَتْ في تَدَلّيها ثَلاثَةَ أَرْباعِ الْمَسافَةِ نَحْوَ أَسْفَلِ الْجَبَلِ . وَكانوا يَكادونَ يُحِسّونَ جَسَدَ دراكولا يَتَحَرَّكُ داخِلَ الصُّنْدوقِ ، وَأَخيرًا وَمَعَ الضَّرَباتِ الْمُتَتالِيَةِ بِالْأَحْجارِ ، تَحَطَّمَ خَشَبُ الصُّنْدوقِ ، وَبَدَأَ يَظْهَرُ وَجْهُ دراكولا ، ثُمَّ انْفَتَحَ فَمُهُ ، وَخَرَجَ مِنْهُ صَوْتٌ خَفيضٌ . إِنَّ قُوَّةَ الشَّرِّ قَدِ اسْتَيْقَظَتْ . تُرى هَلْ فاتَ الْأَوانُ ؟

كانَتِ الشَّمْسُ قَدِ احْتَجَبَتْ أَسْفَلَ الْجَبَلِ حينَما وَضَعَ الْبُروفيسور قِطْعَةَ الْخَشَبِ — الَّتي كانَ قَدْ قَطَعَها مِن شَجَرَةٍ — فَوْقَ قَلْبِ مَصّاصِ الدِّماءِ . ثُمَّ رَفَعَ كُتْلَةً مِنَ الْخَشَبِ وَطَرَقَها بِها بِشِدَّةٍ .

كانَتْ لَحْظَةً رَهيبَةً . وَهَيْهاتَ أَنْ يَنْسَوا ، مَهْما امْتَدَّ بِهِمُ الْعُمْرُ — آخِرَ صَيْحَةٍ أَطْلَقَها دراكولا عِنْدَما انْفَتَحَتْ عَيْناهُ وَانْغَرَزَ الطَّرَفُ الْمُدَبَّبُ في قَلْبِهِ . وَكانَتِ الصَّيْحَةُ هِيَ الَّتي جَعَلَتْ مينا تُهَرْوِلُ نَحْوَهُمْ مِنْ مِنْطَقَةِ الْأَشْجارِ حَيْثُ كانَتْ مُخْتَفِيَةً ، وَالْتَفَّ الْخَمْسَةُ جَميعًا حَوْلَ جُثَّةِ عَدُوِّهِمْ .

وَأَخيرًا هَمَدَتِ الْجُثَّةُ ، وَتَوَقَّفَتْ حَرَكاتُ الذِّراعَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ الضّارِيَةُ ، وَنَظَروا فَإِذا وَجْهُهُ الَّذي لايَزالُ مَمْلوءًا بِالْحِقْدِ يَتَحَوَّلُ مِنْ أَبْيَضَ إِلى أَصْفَرَ ثُمَّ إِلى رَمادِيٍّ . وَبَدَأَ الْجَسَدُ كُلُّهُ يَجِفُّ وَيَضْمُرُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَما هِيَ إِلّا خَمْسُ دَقائِقَ حَتّى بَدا أَشْبَهَ بِالْخُضَرِ الذّابِلَةِ ، ثُمَّ ضَمُرَ وَذَوى نِهائِيًّا .

كانوا يُراقِبونَ وَلا يَسْتَطيعونَ أَنْ يُحَوِّلوا أَبْصارَهُمْ عَمّا يَحْدُثُ . وَلَمْ تَكُنْ قَدْ مَضَتْ نَحْوُ عَشْرِ دَقائِقَ مُنْذُ انْغَرَزَ الطَّرَفُ الْمُدَبَّبُ في قَلْبِ دراكولا — حَتّى كانَ الْجَسَدُ كُلُّهُ قَدْ تَحَلَّلَ . وَذَهَبَتْ إِلى غَيْرِ رَجْعَةٍ قُوى الشَّرِّ الَّتي كانَتْ تَعيشُ فيه .

وَالْتَفَتَ الرِّجالُ إِلى مينا ، وَمَعَ أَنَّ ضَوْءَ النَّهارِ كانَ قَدْ ذَهَبَ ، فَقَدِ اسْتَطاعوا أَنْ يَلْحَظوا التَّغَيُّرَ الَّذي طَرَأَ عَلَيْها . فَالْأَسْنانُ الطَّويلَةُ ، وَاللَّوْنُ غَيْرُ العادِي لِلْبَشَرَةِ ، وَالنَّظْرَةُ الْغَريبَةُ في عَيْنَيْها .. كُلُّ ذٰلِكَ قَدِ اخْتَفى .

لَقَدْ عادَتْ ثانِيَةً لِتَكونَ مينا ... مينا الَّتي كانَتْ مِنْ قَبْلُ .. مينا الَّتي أَحَبَّها جوناثان . لَقَدْ نَجَتْ .

الروايات المشهورة

١ ــ جين إير	٤ ــ دراكــولا
٢ ــ فرانكنشتاين	٥ ــ لورنــا دون
٣ ــ مونفليت	٦ ــ دكتور جيكل ومستر هايد



مكتبة لبنان

ساحة رياض الصلح - بيروت

رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 104


ARAB COMICS
AC
عرب كوميكس
www.arabcomics.net